

تاريخ المصريين

١٦٦

مذكرات معقل سياسي

صفحة من تاريخ مصر

السيد يوسف



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



تاريخ المصريين

(١٦٦)

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرسكان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

محمود الجزار

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



مذكرات معنقل سياري

صفحة من تاريخ مصر

السيد يوسف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

الإشراف الفني

محمود الجزار

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب « مذكرات معتقل سياسي » للأستاذ السيد يوسف ، وهو صفحة من تاريخ مصر السياسي والاجتماعي ، من خلال تاريخ حياة معاصر وشاهد عيان ، ومثقف يساري ، انحاز للفكر للماركسي ، والتحم بالحركة الشيوعية ، وأيد ثورة ٢٣ يوليو ، ولكنها اعتقلته كما اعتقلت غيره من الشيوعيين .

وهذه المذكرات تسجل ظروف اعتقاله في عام ١٩٥٣ ، ويسمى هذه الفترة « بالمرحلة الممتازة في معاملة المعتقلين السياسيين في السجون في عهد ثورة يوليو » ، وتمتد الى فبراير عام ١٩٥٤ ، حين أفرجت عنه الثورة في ظروف أزمة مارس ١٩٥٤ .

ولكن الثورة لا تلبث أن تعتقله مرة أخرى في أكتوبر ١٩٥٤ ، بعد محاولة الإخوان المسلمين اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية ، وتقوم بترحيله الى أوردى ليमान أبي زعبل ، ليخضع لممارسات التعذيب التي عرف بها عصر عبد الناصر ، ثم تفرج عنه الثورة بعد صدور دستور ١٩٥٦ وانتخاب عبد الناصر رئيسا للجمهورية في ٢١ يونيو ١٩٥٦ .

وينتقل الأستاذ السيد يوسف لما اسماه « بمعنة الوحدة الوطنية » ، فيتحدث عن انقسامات الحركة الوطنية ، وتصاعد المد الوطني والقومي في سنوات ٥٦ ، ٥٧ وبداية ١٩٥٨ ودور الشيوعيين

فى الحركة الوطنية والاجتماعية ، والصدام بين الشيوعيين وعبد الناصر بعد قيام ثورة العراق ، وما أعقبها من اعتقالات رأس السنة وبداية السنة الجديدة فى عام ١٩٥٩ ، وصور التعذيب التى تعرض لها فى معتقل العزب بالفيوم ، ثم فى أوردى ليغان أبى زعبل ، واستشهاد الدكتور فريد حداد وشهدى عطية الشافعى ، وما أعقب ذلك من النفى الى سجن المحاريق بالواحات فى ١٥ يوليو ١٩٦٠ ، ثم وقف التعذيب فى مجمع السجون بعد استشهاد شهدى عطية الشافعى ، مع استمرار الاعتقال !

وقد اعتمد الأستاذ السيد يوسف فى كتابة مذكراته على تجربته ومشاهداته الشخصية ، وعدد من الدراسات والمذكرات الأخرى للمعتقلين الشيوعيين الذين زج بهم عبد الناصر فى معتقلاته .

ومن ثم فالكتاب يعد مصدرا تاريخيا من الدرجة الأولى يلقى الضوء على جوانب خفية من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى قبل ثورة يوليو وفى عهدها .

وأملى أن يجد فيه الباحث والمنقف العادى ما ينشده من متعة وفائدة .

والله الموفق .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

مقدمة

هذه لمحات من ذكريات حياة ، ولقطات من مشاهد فترات مختلفة من العمر ، ليس الهدف منها سرد أحداثها بقدر ما هو عرض لتطور مظاهر الحياة .

فمن الحياة في القرية . أردت أن نعرف الكم الهائل للتطور الذي شهدته الحياة في الريف المصرى فى عمر جيل واحد . . من الحياة البدائية الساذجة والبسيطة والخالية من كل الخدمات ، الى حياة مدنية شبه كاملة . انقرض معها كثير من معالم الحياة القديمة .

لقد حلمت كما حلم الكثيرون غيرى - بالريف المنج السعيد ، وبالقرية التي تتغلب على جهلها ومرضها وفقرها . وتتجاوز ذلك الى أجيال أكثر علما وانتاجا وصحة تسكن فى مسكن حديث ، وتنظم الزراعة فى مساحات واسعة . فتتغلب على مشكلات تفتيت الملكية من أجل انتاج أكثر كثافة ووفرة .

ولقد تحقق الكثير من هذه الأحلام فالكنرة الغالبة من القرى تتمتع الآن بالكهرباء والمياه النقية والصرف الصحى ورصف بعض الشوارع ، ووجود مكان للغالبية العظمى من الأطفال بالمدارس ، وتوفير قاعات للضيافة وللمناسبات المختلفة ، وتجهيز البيوت بالأجهزة الحديثة من راديو وتليفزيون وفيديو وثلاجة وغسالة ومكنسة ومراوح كهربائية وتليفون . . الخ .

ولقد حدث هذا التطور في حياة الريف المصرى فى حوالى نصف قرن بسبب التطورات والمكتشفات العلمية والصناعات التكنولوجية التى عاشها العالم فى القرن العشرين وبسبب التطور الطبيعى فى حياة المجتمع المصرى ودور الثورة فى انجاز هذا التطور . صاحب هذا التطور المادى تطور فكرى وثقافى شمل اغلبية الأسر ، فبعد أن كانت القرية لا يوجد بها سوى أفراد قليلين على معرفة بالقراءة والكتابة أصبحت تضم المئات من خريجي الجامعات فى التخصصات المختلفة ، ويحتل إبنائها أرفع المناصب فى أجهزة الدولة والقطاعين العام والخاص .

لكن هذا التطور الحضارى السريع كان يسير معه ويوازيه تطور العنف السياسى خاصة ذلك العنف الذى تمارسه أجهزة الدولة .

فى الماضى كان العنف يأخذ شكل السخرة لمواجهة الأخطار كفيضان النيل ، أو لاقامة الصروح الضخمة لتقديس الملوك والرؤساء كبناء الأهرامات ، أو للنهوض بأعمال عظيمة تخدم الأمة والوطن ، أو تحميه من الكوارث كتنسيق قناة السويس وحفر الترغ والمصارف وبناء القناطر على النيل .

لكن فى عصرنا اتخذت السخرة لتعذيب الانسان والتشكيل به خاصة اذا كان يحمل أفكارا مناضلة تنافس السلطة ، أو تتطلع الى مشاركتها ، أو تتعارض مع مصالحها .

فبقدر انتشار الوعى وتعدد وسائل تنظيم الناس وتجميعهم وتوحيدهم فى مواجهة السلطة السياسية بقدر ما يتصاعد شعار السلطة فى مقاومة هذا الوعى والتجمع ، واستخدام القهر النفسى والبدنى فى قمع الرأى المخالف أو المنافس بهدف اذلاله وتصفيته :

ان عرض مثل هذه الأساليب غير الانسانية ليس هدفه اداة
وتعزية الماضى فقط ، بل هو ضرورى لسد الطريق أمام أى شكل
من أشكال التعذيب البدنى أو النفسى لمن يحمل أفكارا معارضة فى
الحاضر أو المستقبل . .

ان كبت الحرية يخل بالتوازن الاجتماعى ويفسح الطريق
للعنف المضاد .

فى مسيرة هذه الحياة نما فىنا وعى جديد ، وشوق لانعتاق
النسب من معاناته ، وتطلع لحياة انسانية محضرة يسودها العدل
والحرية والرخاء .

كان واقع سيطرة الاسنعمار وجنسح الافطاع والرأسمالية
وظلام حياة الفلاح هى التى قادتنا الى هذا الوعى . لذا كان الوعى
نابعا من احتياج انسانى ، ومن هنا يكتسب أصالته فلا يضيع .

كانت التجربة الخاصة جزءا من التجربة العامة ، ومن هنا كان
صدفها الذى لا بد وأن تجد طريقها للقلوب .

كنا سبابا أحببنا وطننا وآمنا به ، وتعلقنا بالعروبة قوميتنا
والتمسنا فيها قوتنا ومستقبلنا . . لم يكن ذلك تعصبا ، أو انغلاقا
على النفس ، أو ضيق أفق ، انما كان البداية الصحيحة لالتئام
اللحمة وسد الثغرة ، وحصن الانطلاق .

كان العالم - بعقولنا وخيالنا - ينفتح أمامنا ، فمرانا
جزءا منه ، تربطنا به روابط الانسانية والاخاء والعمل الجاد لسعادة
البشرية وانعتاقها من عبودية القهر والاستغلال . . رأيناه - قبل
أن تصبح ثورة الاتصالات حقيقة واقعة - قرية صغيرة . . نتابع كل

أحداثها ، نتعاطف مع الشعوب الافريقية والآسيوية ، ومع دول عدم الانحياز . بحكم الجوار تارة ، وبحكم الهموم المشتركة تارة أخرى . . . وحتى مع شعوب البلاد الاستعمارية امتد تعاطفنا - لأننا وهي تقع تحت ضغط مستغل واحد ، ومصالحة كل منا في التخلص من هذا القهر .

كنا نرى أن انتصار الحرية والعدل في أي مكان من العالم هو انتصار لنا ، وهزيمة الاستعمار في أي جزء من المعمورة هو تأكيد لحريتنا ومساهمة ايجابية في مستقبل أكثر إشراقا وجمالا لشعوبنا .

لم يتوقف اهتمامنا بالوطن والعومية فحسب ، بل تجاوزنا الحدود والأجناس والأعراق ورأينا وحدة الانسانية وتطلعاتها المشتركة ، في حياة حرة متكافئة وتعايش سلمي ، بغض النظر عن الديانات والمذاهب والأعراق ، لم نر صراع الحضارات بل تفاعلها وتعايشها لخير البشرية .

رأينا أنفسنا جزءا من دوائر مختلفة لا تتناقض بل تتكامل ، فنحن جزء من الوطنية المصرية ، ومن القومية العربية ، ومن الدائرة الافريقية الآسيوية ، ومن عالم عدم الانحياز ، وتجمعنا مع الانسانية عامة روح الأخوة وضرورة التعايش ، ونبذ الحروب العدوانية لرخاء البشرية .

هذا الوعي الجديد كان له ثمن فادح دفعناه من حياتنا . . ضحينا بأجمل أيام العمر ، بزهرة الشباب والفتوة . . أكلتها السجون والمعتقلات ، وهتك حرمتها وقداستها التعذيب والانهاك البدني والقتل والمطاردة في لقمة العيش .

كانت التضحيات بحرا موسيقاه رنين الشوم على الأجساد
المعروقة من الجوع •

لم يكن التعذيب ألما ذاتيا فحسب بل كان خيطا فى نسيج
الآلم العام ، ونغمة فى بطائية جماعية ، ولحنا فى أغنية الاعصار •

ذقنا العذاب مرتين ، مرة فى ذاتنا ، وأخرى حين نرى أحدا
يعذب ، حتى صارت جدران الزنازين حصن أمان ، لا تثير الغضب ،
وأصبح صوت المفتاح فى أبواب الزنازين كنعيق الغربان •

أمام همجية التعذيب كان لابد أن نصمد : - نضحك - نسخر
- وتهزم بسمتنا قهقهة الجبان العرييد ، ونعوض شقاء النهار - حين
ننام فى المساء - بأحلام جميلة يحرسها الحنين الى الحرية •• نردد
مع ناظم حكمت :

أحلم أنى خارج سجنى فى دنيا مشرقة حلوة

لم أر نفسى فى الحلم سجيننا أبدا

لم أسقط فى الحلم من الجبل الى الهوة أبدا

هذه القسوة لم تستطع أن تحرمنا الروح الحضارية والسمو
الفكرى •

لقد حولنا حياة المنفى الى أغان وفن ونقافة ومسرح ، وانتاج
أدبى وعلمى ، وعشنا معارك فكرية تحمل رائحة الديمقراطية
والحضارة •• لعبت دورا كبيرا فى إثراء حياتنا وتخصيب أفكارنا ،
فكان المنفى بحق مدرسة للشوار •

ليس معنى ذلك أن السجن كان نعمة ، بل محنة ، استطعنا التغلب عليها - حتى نعيش - بالأمل فى الحياة والثقة فى غد أكثر اشراقا وحرية .

فى هذا الكتاب استعرضت حياتى فى القرية من الكتاب الى الأزهر والوظيفة والجامعة ، ومن العدل الاجتماعى فى الاسلام الى الاشتراكية العلمية .

وتعرضت لمظاهر المطاردة والملاحقة : بالاعتقال والحرمان من الدراسة ومن الامتحانات ، وبالفصل السياسى من الوظيفة ومن الجامعة ، وبالتعذيب الوحشى فى السجون والمعتقلات دون ذنب أو جريمة ، الا ممارسة حقى فى الانشغال بهموم وطنى وأمتى .

وحتى بعد الافراج والعودة الى الوظيفة لم يتوقف الاضطهاد والمطاردة ، بل أخذ شكل المرتب والدرجة الأقل ، والحرمان من التدريس ومن ممارسة أى عمل يتصل بالجمهور .. ثم التقى الى الصعيد والحرمان من الاعارة الخارجية ومن السفر للخارج .

فى الكتاب تعرضت للصراع السياسى والتنظيمى داخل الحركة الشيوعية ، كما تعرضت لحل الحزب فى مقابل وعود وتعهدات التدريس ومن ممارسة أى عمل ينصل بالجمهور .. ثم النقى الى الأمل تحت وطأة الاستدراج والخديعة التى مارسها الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعى بقيادة جمال عبد الناصر .

ثم أنهيت السيرة بتوجهى الى المجال الفكرى والثقافى أسجل فيه نتائج تجربتى ، ودراساتى عن تطور الحركة الاسلامية فى العصر الحديث ، راجيا أن تلعب هذه الدراسات دورها فى نشر الوعي

والاستنارة وكشف الوعي الزائف والمغلوط في فهم الاسلام الذي
تستخدمه بعض التيارات المتسترة بالدين متكا للوصول للسلطة
والتسلط .

من هنا تنكشف الغمة عن صدور الأمة لتنطلق الى وعى صحيح
يكون سلاحا في معاركها للخلاص من القهر والفساد .. وتنقية
القيم الاصيلية والنبيلة لشعبنا .. وتحقيق حياة للوطن اكثر اتحاما
بين ابنائه وأكثر سعادة ورخاء وقوة .

١٩٩٨/٨/٢٤

المؤلف

السيد يوسف

الفصل الأول

من الكتاب الى الكلية

قريتي :

على شاطئ البحر الصغير ، وعلى بعد عشرين كيلومترا من المنصورة ترقد قريتي (ميت الحلوج) شرق مدينة دكرنس مباشرة .

كانت المزارع تلبث حولها ولكن هذه المزارع الآن تآكلت وزحفت المباني عليها حتى التصقت بدكرنس وميت مجاهد .

كان البحر الصغير - الذي يبدأ من المنصورة وينتهي في بحيرة المنزلة يشق مدينة دكرنس ، ثم ينحني قبل ميت الحلوج مباشرة ليألف حولها من ناحية الغرب والجنوب والشرق ليصنع نصف دائرة ، ويشكل منها شبه جزيرة ويفصل بينها وبين قرية ميت مجاهد ، ثم ينحني مرة أخرى ليتجه نحو الشرق مستقيما ، ثم عدل هذا الالتفاف واعتدل سيره ، فشق له مجرى مستقيم يقع شمال القرية حدث ذلك في الثلاثينيات من القرن العشرين حيث كنت طفلا .

وحتى لا يعزل البحر الصغير - بعد هذا التعديل - القرية عن زمامها أقيم عليه كوبرى يربط القرية بأرضها ، كان الناس

يخافون على أطفالهم من الاقتراب من الكوبرى فأشاعوا بينهم
الأساطير عن ذبح من يقترب منه من الأطفال .

اشتهر عن ميت الحلوج أن أهلها يبادرون منذ الصباح الباكر
يوم الأربعاء للذهاب لسوق دكرتس ليشتروا احتياجاتهم قبل غيبتهم
من البلاد الأخرى .

كما اشتهر عنهم التعصب لأبناء بلدهم والاتحاد لمقاومة أى
عدوان عليهم من القرى المجاورة .

المستويات الاجتماعية والاقتصادية بين أهالى القرية متقاربة ،
فلا يوجد بها استقطاب طبقي حاد فأغلب أهلها من صغار الفلاحين
أو العمال الزراعيين ولا يتميز من بينهم فى الملكية سوى عائلات
قليلة أشيع أن حيازة بعضها من الأراضى قد حصلت عليها بطريق
غامض حيث كان حفر قناة السويس يتم بالسخرة ، وكان الملتزم
بتنفيذ السخرة يختار أجمل فتاة أو أحسن شاب من الأسرة ليمثلها
وينوب عنها فى حفر القناة ، وعلى الأسرة أن تختار بين ذلك
أو تتنازل عن مساحة معينة من الأراضى التى تمتلكها ، وفى سبيل
إعفاء الأسرة من هذه السخرة كانت تضحي بأرضها ، فقد كان
الكثيرون يموتون فى حفر القناة ، وأسمع أن أحد جدودى مات هناك
وتم الاستيلاء على أملاكه .

كانت قيمة الأرض ضعيفة فكانت الأسرة تشتري ابنتها أو
ابنها بهذه المساحة من الأرض فتتنازل عنها .

لم تتجاوز أى ملكية كبيرة عن المائة فدان من زمام القرية
الذى يبلغ ستمائة فدان ، ومع التسوارث تفتتت هذه الملكية الى

مساحات قزمية ، ومع محدودية زمام القرية. تسرب الى بعض المرايين مساحة كبيرة من أراضيها ، ويشاع أن ذلك بسبب اسراف البعض على نفقات الطعام .

وعلى خلاف قرينتنا كان عدد كبير من قرى مركز دكرنس يقع تحت سيادة وسيطرة الخاصة الملكية وعدد من الأسر الاقطاعية الكبيرة وبعض الأجانب خاصة اليونانيين الذين امتلكوا مساحات واسعة من الأرض عن طريق الديون الربوية أو تجارة القطن ، ولذلك شهدت هذه القرى تفاوتاً طبقياً صارخاً بين ملاك كبار وكثرة غالبية من العمال الزراعيين الأجراء الذين يكسحون في هذه الاقطاعات ولا ينالون ما يسد رمقهم وما يحميهم من الأمراض والجهل .

كانت قرينتنا مقسمة الى عائلات كبيرة . . وكان لكل عائلة مندرة (مضيفة) للاجتماعات في مناسبات الأعياد والعزاء والأفراح .

كان بيتنا يقع في صرة البلد ، وأمامه المندرة وكانت ملك أبى وكانت العائلة تستعملها في المناسبات الخاصة بها .

كان العمدة ومشايخ البلد يختارون من العائلات الأساسية في القرية .

عشت طفولتي وصباي في هذه القرية ، لم يكن بها في تلك الفترة مياه نقية ولا كهرباء ولا مجارى كنا نشرب المياه من الزير والقلعة . والماء ينقى بالشبة أو نوى المشمش والاضاءة بلمبة الغاز (الكيروسين) وفي البيوت المستورة نوعاً ما تستبدل الللمبة نمرة خمسة لتصبح نمرة عشرة أو خمسة عشر . وفي سهرات رمضان

تكون الاضائة بالكلوب ذى الرتينة وكان الناموس أو ما يسمى الهاموش يتجمع حول الكلوب ليحدث طنينا ثم يتساقط على الأرض بالآلاف محترقا .

كان الصرف الصحى يتجمع فى بيارات فى فناء المنازل أو أمامها فى الشارع وينزح كل فترة على أكوام السباخ أو الشرب (الطين الجاف) لينشر رائحة كريهة على المنسازل ويتجمع عليه الذباب والحشرات ليلوث البيئة .

كانت البيوت كلها من الطوب اللبن أو الطوف ولا تجد بيتا من الطوب الأحمر الا نادرا .

لم يكن هناك تحديد للنسل أو تنظيم للأسرة ، فالرجل ينجب أعدادا كبيرة من الأولاد من زوجة واحدة أو عدة زوجات ، وأحيانا لم يكن يتذكر عدد أبنائه أو أسماءهم جميعا ، يقضى الأبناء أكثر أوقاتهم فى السوارع ، فلا مدارس ولا عناية صحية ولا غذاء كافيا ، يلعبون فى البرك والمستنقعات ، وفى أحسن الأحوال فى مياه البحر الصغير وما يتفرع عنه من ترع ومصارف ، البلهارسيا تحصدهم ويموت الكثيرون منهم بشتى الأمراض ، خاصة حينما تبتاح البلاد الأوبئة كالجدري والكوليرا والتيفوس .. الخ .

لم يكن هناك تطعيم لكل الأمراض ، ولم يكن هناك دخل للقرية سوى الزراعة ، والحرف محدودة جدا ، وأجورها تدفع عينا مع موسم الحصاد ، كانت الأسرة تعيش على ما تخزنه من مؤن فى موسم حصاد الأرز والقمح والشعير والذرة ، أما عند جنى القطن فيقوم الفلاح ببيعه وسداد ما عليه من ديون قد تستغرق كل انتاجه ، هذا اذا لم يكن قد باعه مسبقا قبل جنيهه مقابل ديونه ، وما يبقى

بعد هذا يشتري به كسوة لأسرته ، ويعيش بقية العام بلا نقود يأكل مما خزنه أو تجود به مواشيته ، أو يشتري بالأجل وبأعلى الأسعار .

كان بالقرية مدرسة الزامية يتسرب أغلب طلابها منها لمساعدة آبائهم فى الزراعة أو الأعمال الأخرى ، وأذكر أن أبى أخرج أخى يوسف من المدرسة ليساعد جدى فى الزراعة ، وأقام وليمة للتناظر وللمدرسين مكافأة لهم على موافقتهم على ترك أخى للتعليم !!

والمدرسة الالزامية مرحلة منتهية لا توصل خريجها الى مراحل أعلى بل بعدها يتحول الطالب الى فلاح أو صبى فى حرفة ما وينسى ما تعلمه من قراءة وكتابة ويعود الى الأمية .

وبعاصمة المركز مدرسة ابتدائية أميرية ، أما المدرسة الثانوية فلا توجد الا فى عاصمة المحافظة ، ومن يرد الالتحاق بالأزهر فعليه أن يلتحق بمعهد دمياط الدينى بعد أن يجتاز امتحان مسابقة القبول بنجاح ويكون حافظا للقرآن الكريم كله ويجيد القراءة والكتابة والحساب وبعض قواعد اللغة العربية .

كانت مصروفات المدارس الأميرية : الابتدائية والثانوية فوق مستوى قدرة الطبقات الصغيرة بل والمتوسطة أيضا .

أسرتى : فتحت عينى حين بدأت أعى على هذا المناخ .

أدركت جدى وجدتى لأبى ، كان فلاحا منابرا على عمله فى الأرض حريصا على أن يجمع لديه بعض الأدوات التى تساعد على اصلاح آلات الزراعة أو شبابيك وأبواب البيت ، والى جانب ذلك

كان يمارس تجارة الفاكهة فى دكان ملحق بالمنزل ، وفى السوق بدكرنس يوم الأربعاء كان له بنك (طاولة يبيع فوقها ما لديه من فواكه) وكانت جدتى تساعدته فى ذلك ، وكانت تمتاز بالذكاء وحيوية الحركة وفهم أغوار الناس ، وقد استطاع جدى وجدتى زيادة ما يمتلكانه من مساحة زراعية ، بفضل نشاطهما التجارى ، وقد بلغت هذه المساحة ثلاثة أفدنة ونصف وهى تعتبر مساحة طيبة بالنسبة لكثير من الأسر فى القرية .

أما أبى فكان أفندبا يلبس الطربوش والجلباب الافرنجى المكوى والبلطو ، وقد حفظ القرآن الكريم ونعلم لعام وأحد فى جامع البحر الدينى بدمياط ، ثم توقف عن التعليم ، وأصبح بهذا القدر أحد وجهاء القرية ومستنيريه الذين يقرأون الجرائد ويتكلمون فى السياسة الداخلية وفى متابعة سير المعارك الحربية أثناء الحرب العالمية الثانية .

كانوا فى القرية قلة من هذا القبيل ، نعد على أصابع اليد الواحدة ، وكانت اهتماماتهم السياسية تعود الى روحهم الوطنية المعادية للاستعمار الانجليزى والى حيوية حزب الوفد القديم الذى كانوا ينتمون اليه .

لم يكن أبى يتقن الزراعة ، ولم يكن له صبر عليها ، وننقل بين عدة أعمال ، فكان مقاول أنفار يسرحهم للعزب والتفاتيش وفبريكة ضرب الأرض أو لعمليات حفر الترع والمصارف ، وفى بعض هذه العمليات وقع ضحية عملية نصب خسر فيها مبلغا كبيرا شدته الى الوراء كثيرا ، ثم فتح محلا لبيع السيرج ثم محلا للبقالة وحول المنذرة فى فترة الى مقهى ، ولكن ذلك لم يكن يستمر فيه طويلا .

كان حريصا على أن يروح عن نفسه بالسفر الى الاسكندرية أو القاهرة ، وكان يصحبني أنا وأمي كل عام بعد موسم جنى القطن لزيارة السيد البدوي وحضور مولده ثم متابعة السفر الى القاهرة لزيارة معالمها خاصة أولياء الله الصالحين ، أحيانا يصاحبنا أحد من الاخوة الثمانية لكنني كنت مصاحبا لهما كل عام .

يرجع السبب في الدوام سنويا على زيارة السيد البدوي الى أن أمي وهي حامل بي كانت تنوى أن تجهض نفسها - وكثيرا ما فعلت ذلك مثل غيرها من نساء القرية - وكان هذا يؤذيها الى درجة كانت تهدد حياتها ، فجاءها السيد البدوي في المنام وقال لها « حرام عليك تموتي السيد » فألهمها هذا الحفاظ على جنينها حتى ولدته واسمته « السيد » ، واعجابا وتديلا لي قالوا عني انني كنت طفلا جميلا ، وأن جمالي هذا جلب على الحسد من سيدة من جيراننا دخلت على فبهرت بي وفي نفس اليوم وبسبب حركات يدي سقطت على خدي الايمن زجاجة لمبة الغاز فحرقتها ، ولازال أثرها باقيا حتى اليوم يحسكي هذه الواقعة ، أو الأسطورة التي صدقتها الأسرة ، وخاصة أمي .

أما أمي فكانت سيدة طيبة القلب . كريمة ، وهي أكبر أخواتها ، ولذلك كانوا يلجأون اليها لاستشارتها ومطاوعة نصيحتها، كانت تجيد الخياطة واشتهرت بذلك في القرية ، ودر ذلك عليها دخلا معقولا كانت تساعد به في سد احتياجاتنا والترفيه عنا ومجاملة أخوتها ، كانت تحترم من هو أكبر منها بل كانت تعطي احتراماً أكبر لمن هو أصغر منها سننا ولكنه في علاقة النسب يمثل جدها أو عمها أو خالتها غير المباشرين ، فكانت تنادي على من هو أو هي في سن ابنتها أو ابنها أو أصغر يا خال أو يا خالة وكان هذا يضايقني فألومها واعتبر هذا نوعا من التواضع السلبي الذي يجب

أن تتحرر منه وتنأى بنفسها عنه ، وحين مات أبى فى سن مبكرة فى ديسمبر عام ١٩٤٢ نست نفسها وكرست حياتها لأولادها وأظهرت ثباتا وإصرارا على تحمل المسئولية وحماية أبنائها وتجميعهم حولها وتحبيبهم فى بعضهم مما جمع حولها القلوب وربط الأحفاد بها حتى كانت العروة الوثقى لهم يحبونها ويحترمونها يحجون إليها ويبدأ الأحفاد حفلات ومواكب زفافهم من عندها ، واستمر ذلك حتى وافاها الأجل يوم السبت ١٦ نوفمبر ١٩٨٥ الساعة الخامسة بعد الفجر الموافق ٣ ربيع الأول عام ١٤٠٦ هـ وقد سميت هذا العام بعام الحزن رحمها الله وطيب ثراها بقدر ما أعطت وأفنت نفسها فى خدمة أبنائها وأحفادها .

طفولة متردة :

كنت مدللا من الأسرة وخاصة والدى ، ولذلك كانوا يتغاضون عن كثير من شقاوتى وعصيانى ويستجيبون لطلباتى رغم أن ترتيبى هو الخامس ضمن ثمانية من الأخوة والأخوات .

فى المرة الأخيرة التى زار فيها أبى القاهرة عاد مريضا ولزم الفراش حوالى شهرين ثم توفى فى ديسمبر ١٩٤٢ بسبب قرحة فى المعدة . ولم تكن المضادات الحيوية قد اخترعت بعد وكان عمره حوالى الأربعين عاما وكان جدى قد توفى قبله بسنة إلا أربعين يوما أى مات فى نفس السنة بحيث كانت سنوية جدى تتفق مع مروز أربعين يوما على وفاة أبى ، كان عمى فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عاما ، أتذكر أننى لم أبك فى طفولتى صباى كما بكيت يوم وفاة أبى ، كنت عائدا مع أخى من الحقل مع المغرب وكنا نركب فوق البرسيم على الحمار ونغنى ففوجئنا بمن يخبرنا بوفاة أبى فها لنا الخبر وانخرطنا فى البكاء والصراخ ونحن نجرى .

أذكر أيام طفولتي كأطياف غائمة أو خيالات أحاول أن أدقق فيها لأتبين ملامحها .

أتذكر أنه كان يتعذر على بلع أقراص الدواء وكانت هذه الأقراص كبيرة الحجم عما هي اليوم كانت كأنها حق (علبة) يحتوى فى داخله على بودة ، كنت أجرى منهم ويجرون ورائى لاجبارى على تناولها .

كنت مشاكسا لا أرضى بما يعرض على وأطلب غيره ، فاذا أحضروه أخذت الاثنين . كان هذا يتكرر كثيرا فى أنواع الطعام وفى الملابس . . . تقول أمى اننى كنت مسعدا لا تذهب لشراء ملابس لى الا وتجده ما هو جيد ومناسب .

كنت أشارك جدى وأخى يوسف والسيد ابن عمى العمل فى الحقل أحيانا ، وكنا اذا أخطانا حاول جدى الامساك بنا ليضربنا فأقلت أنا وأهرب ويقع أخى يوسف وابن عمى فى قبضته فيضربان بينما أتفاخر أنا بافلاتى من الضرب .

الكتاب وحفظ القرآن :

دخلت كتاب الشيخ محمد أبو الوفا خشان وحفظت عليه القرآن الكريم وتعلمت فيه القراءة والكتابة والحساب ، كنا نقرأ بسرعة وبدون فهم ، واذا تمهلنا فى القراءة تعثرنا وأخطانا ، كان يقرأ لى كل يوم نصف ربع وكنت أطلب وألح أن يكون ربعا كاملا فكان يرفض ، ولوجئت اليه فى اليوم التالى حافظا الربع كله وطلبت تسميعه فانه يرفض ويطلب تأجيل النصف الى اليوم التالى ، كان يبغى اطالة فترة الحفظ حتى يسسنمر فى قبض المعلوم كل يوم خميس ، وكان أبى مواظبا على دفع المعلوم كل أسبوع لا يتأخر ،

وحيث أغيب يوما عن الكتاب لانشغالي بمساعدة الأسرة في ري الأرض أو حرثها أو جنى القطن أو جمع البمار كنت - لأعوض هذا التأخير - أقوم بحفظ ما كان يجب أن أحفظه لو كنت قد حضرت هذا اليوم في الكتاب ، وكنت أطلب تسميع ما حفظته وأنا غائب فيرفض ، كما كان ابن خالتي عبد الحى يسير معى فى الحفظ . وكان سريعا فى حفظه أيضا ولكن أباه كان يتأخر أحيانا فى دفع المعلوم فيطرده الشيخ حتى يحضر المعلوم فينقطع عدة أيام ويطلب منى الشيخ أن أتوقف عن حفظ أجزاء جديدة وأن أراجع ما سبق حفظه حتى يحضر ابن خالتي ، وهكذا كنا نتقدم ثم نتوقف حتى أتممت حفظ القرآن كله وأنا فى العاشرة من عمرى .

كنا نهز جسمنا الى الأمام والى الخلف ونحن نقرأ القرآن الكريم وكان الشيخ يفعل ذلك وهو يستمع الى حفظ تلاميذه ويمسك فى يده بسير من الجلد مثبت فى يد من الخشب يقرع به ظهر تلميذه مع كل خطأ فى الحفظ ، وإذا غاب الشيخ تولى الشيخ أبو الفتوح وهو أقدم التلاميذ مسئولية المكتب وكان يحلو له أن يجرب ضرب السير فى بعض من عرف عنهم بلادة الحفظ خاصة الشيخ أحمد وكان أشول يجز احدى رجله ومصابا بالعتة والبلاهة وفقدان الذاكرة وطبعا ضعف الحفظ وتشتعل الحرائق فى الكتاب وتتعالى الصرخات الهستيرية مع فرقعات السير على ظهر الشيخ أحمد وفى كل مكان من جسمه مع قهقهات السعادة والتسديد من العريف المؤقت .

فى المدرسة الالزامية :

دخلت المدرسة الالزامية بالقرية ، وأذكر أننى التحقت بها وكان الفصل مفروشا بالقش ثم جهزت الفصول بعد ذلك بدكك نجلس عليها .

كنت متميزا بين الطلبة ، وكان المدرسون يتوقعون أننى سأواصل التعليم . وكان أبى يأمل لى حفظ القرآن وتجويده وحسن تنغيمة .

طفولة بريئة وألعاب ساذجة :

كنا ننتظر العيد بشوق ولهفة ، لأننا سنلبس ملابس جديدة وناخذ المصروف ونذهب الى المولد ونشاهد تياترو عاكف أو الحلو . وكان يقام فى دكرنس فى عيد الأضحى مولد السادات وتقام فيه أماكن اللهو والمرح والمتعة فى شكل أنواع من السيرك والتياترو وضرب المدفع ومسابقات للحفظ ومراجيع وخلافه ، وبعض المأكولات من حلوة وحمص وغيرها . . . كنا نسمع عزف الموسيقى فى المولد ونحن فى الحقول فتتشعر أبداننا وترقص أجسامنا على نغماتها وتشدنا لنسرع اليها عائدين من الحقول نلبس الملابس الجديدة ونحمل مصروفنا ونذهب الى المولد جماعات تملأنا الفرحة والبهجة .

كان لمثل هذه المناسبات رونقها وجاذبيتها لدى الأطفال والصبية والشباب .

لم تكن بالبلد نواد ولا متنزهات ولا سينمات . . . كانت المتعة الوحيدة هى لعب الكرة الشراب والمضرب مع الأولاد فى النهار فى الأماكن الخالية من القرية وتقع فى وسطها ، كانت قبل ذلك مستنقعا للمياه الراكدة الآسنة ومصدرا للأمراض والروائح العطنة ، ثم تعطف الحكومة فردمتها وأصبحت مكانا (جونا) لدراس الأرض والغلال ، واستعمل جزء منه لتكويم سباح البهائم الذى يخرج الفلاح من حظيرة حيواناته لينقله بعد ذلك لتسميد أرضه ، والجزء الباقي كنا كصبية نستعمله كملعب .

الكرة كنا نصنعها من الجوارب القديمة النى نملأها بعطع من خرق القماش تم نخيطها ، وأذكر أن اللعبة - وقد انقرضت الآن - كانت مكونة من كرة شراب ومضرب من الخشب أو العصى ، وكان اللاعب يضرب الكرة من خط الملعب ثم يجرى الى اللازمة فان التقط الكرة أحد من فريق الخصم فعليه أن يضرب بها اللاعب قبل وصوله الى اللازمة وبذلك يخسر اللاعب فان أفلت من اصابتها بالكرة يكون قد نجح خاصة اذا عاد من اللازمة الى خط الملعب سالما .

كانت لعبة بدائية ولكنها كانت تنير حماسنا وحماس المشاهدين ، وكنا نعجب بأنفسنا حين ننجح فى الافلات من اصابتنا وحين نشد اعجاب المشاهدين .

كما كنا نلعب لعبة البلى أو النحلة والكسوة وهى عبارة عن إسطوانة من الخشب كالقمع بداخلها مسمار له سن وتلف الدوبارة (الكسوة) حول الاسطوانة ثم تقذف بها الى الأرض لتستمر فى الدوران حول نفسها . فان كسرت نحلة من النحل الموجود على الأرض أو فرقته أو أصابت احداها حين قذف بها على الأرض كان هذا نجاحا وفوزا للاعب .

وفى المساء كنا نلعب ألعابا أخرى منها لعبة الاستغماية ولعبة غوط ولعبة القط والفار وكلها ألعاب ساذجة وبدائية ولكنها كانت تمتص طاقاتنا وتريح نفوسنا .

هذا عدا ألعاب الكوتشينة المختلفة ، وكانت قرينا قد أطلق عليها قديما « مونت كارلو » لما كان يتم بها من مراهنات قمار بالنقود يشترك فيها زوار من خارج القرية ، وكان هناك من يحقق منها كسبا كبيرا ، كما كان هناك من يخسر خسرانا مبينا ، وقد قضينا

على هذه الآفة بعد ذلك حين شغلنا القرية باهتمامات سياسية واجتماعية ووطنية .

لم يكن بالقرية وسائل للتسلية حتى جهاز الراديو لم يعرف الا في أواخر الثلاثينيات وكان بالقرية جهازان أحدهما عند الشيخ امام ناظر المدرسة الأولية والثاني اشتراه أبى وأحضر من المنصورة العامل الفنى الذى ركب الايرىال فوق السطح . . كان الراديو يعمل بالبطارية السائلة لأن الكهرباء لم تكن قد دخلت القرية ، وكان حجمه كبيرا ، وكنا نظن كأطفال أن المقرئ للقرآن يجلس بداخله وكان أبى قد اشترى هذا الجهاز ليضعه فى المفهى الذى افتتحة لبعض الوقت فى المندرة أمام منزلنا .

دروس خصوصية :

بعد أن حفظت القرآن كله وأتممت المدرسة الإلزامية أخذت دروسا فى اللغة العربية والحساب عند أحد المدرسين بالقرية الذى تميز بروح خيرة وبنزعة صوفية ، كان يصحو قبل الفجر ويوقظنا معه لنصاحب عم على أبو شريف الذى تطوع لايقاظ أهل القرية لصلاة الفجر . . يدور فى حوارها بطبلته الكبيرة يدق عليها ليصحو الناس للصلاة .

كان أستاذنا يقودنا أيضا لننشد الأوراد فى المسجد قبل صلاة الفجر . كما كان يوقد لمبات الغاز أو الكلوب فى المسجد بعد صلاة العشاء لتلاوة بعض الأذكار . . كنا نصاحب أستاذنا فى هذا التعبد .

كان يصر على أن لا يأخذ أجرا على دروسه الخصوصية ، ولكن أياه كان يضيق من موقفه ويبدى تذمره وتبرمه ، فكانت

أسرتى ترسل له - دون علم الأستاذ - بعض الحبوب لترضيه وتسكته ، وكان للأستاذ أخ يأخذ معنا الدروس ولا يحل واجبه وإذا أجاب جاءت إجابته خطأ وكثيرا ما تكسرت على رجله مساطر من خشب الزان وكنا نتندر عليه لاهماله ، وكان تفوقنا في الإجابة سببا فيما يعانيه من عقاب فحقد علينا وتجمع أغلب غضبه على لأننى كنت أجيب عن كل الأسئلة بل كنت أسبق الى الإجابة عن أسئلة أخرى موجودة بالكتاب ولم يطلب الأستاذ الإجابة عنها وأكثر الأستاذ من منحنى درجة الامتياز على إجاباتى حتى بلغ الحنق بأخيه مرة أنه لم يستطع أن يكتم غيظه فخطف منى كراسة التطبيق أمام الأستاذ وقطعها .

وكان معى طالب بالسنة الرابعة بالمدرسة الابتدائية الأميرية وكان الوحيد الذى لديه كتاب حساب به كثير من المسائل فكنت أسبقه الى الإجابة عنها ، وحين تكرر ذلك أخفى الكتاب عنى حتى لا أجيب عن أسئلة أخرى .

وجاءت اجازة الصيف وبدلا من أن يقضى أستاذنا الاجازة فى مصيف رأى أن يقضيها فى المنصورة ليتبتل فى مساجدها فأجر حجرة فى حارة خوخة بالقرب من شارع السكة الجديدة وطلب منا أن تصاحبه فى الإقامة معه بالمنصورة فذهبت معه أنا وطالبان وأخوه ولم يصمد بعضهم ، ومكثت معه مجاملة له رغم حالة التقشف الشديدة التى عايشناه فيها من ناحية الطعام ، كان يطبخ شربة العدس وبعد أن تغلى يأخذ الشربة ويتصدق بها على بعض الجيران خاصة المرضى منهم ، ثم يضيف ماء جديدا على التفل المتبقى ويفعل بعد غليه نفس الشيء ثم يكررها مرة ثالثة وهذه تكون غذاءنا .

وقبل الفجر نذهب الى مسجد لنشيد الأوراد ، فاذا بالمروردين
على المسجد يطلبون منا الصمت واذا لم ننفذ قاموا بطردنا ، ويتكرر
هذا في مسجد آخر .

كانت فترة عصيبة ومضحكة ، ولكنني تحملتها على مضض
في سبيل الاستفادة علميا .

طالب بالمعهد الدينى بدمياط :

بهذا أصبحت مستعدا لدخول مسابقة القبول للمعهد الدينى
بدمياط ، وللمدرسة المعلمين بالمنصورة ، ودخلت المسابقتين ونجحت
فيهما ، واخترت المعهد الدينى لأن الدراسة به مفتوحة الى الثانوى
فالكليات الأزهرية أو دار العلوم ، كانت تلك هى دور العلم المتاحة
أمامنا .

لم يكن بالقريه ممن سبقنا للتعليم الممتد للتعليم العالى سوى
أفراد معدودين على اليد الواحدة واحد منهم بجامعة فؤاد الاول
(القاهرة) والباقي بالأزهر منهم خالى وكان طالبا بكلية الشريعة .

وهنا وقفت الأسرة متسائلو : هل أذهب الى دمياط أم أحول
أوراقى من معهد دمياط الى القاهرة لآكون مع خالى ؟ واستقر الرأى
على أن أسافر فى بداية العام الى القاهرة والتحويل إليها ، ثم ثارت
مشكلة أخرى فى اختيار قماش الكاكولا (الجبة) فمن الأسرة من
يرى أن يكون القماش من القطن أو الكتان وهذا أرخص ولكنني
رفضت وأصررت على أن يكون صوفيا وثمنه أغلى ، وأخيرا وافقوا
على رغبتي وذهبت الى الترزى وصنع لى الجبة المطلوبة وسافرت
الى القاهرة ومكثت بها شهرا من بداية العام الدراسى ولم نوفق فى

التحويل .. كان شيخ المعهد الدينى بالقاهرة هو الشيخ سليمان نوار وكان شخصية قوية اذا رفض طلبا لا يتراجع عنه .

سافرت الى دمياط وسكنت مع طلاب من قرىتى ومن دكرنس والقباب الصغرى ، ووجدت زملائي قد قطعوا شوطا لا بأس به فى شرح العلوم ، كانت المواد صعبة ومعقدة على مبتدئ مثلى خاصة أننى لم أحضر الدروس الأولى التى منها يتعرف الطالب على طبيعة المادة ، ولم أعرف بعض المصطلحات الواردة فى الكتب ، وكان منها كتاب « التحفة السيئة » فى اللغة العربية وكتب أخرى فى الفقه والحديث ... الخ ولكننى حاولت غير أن بعض العبارات فهمتها على غير حقيقتها مما أحاطها بغموض لم أفهمه الا متأخرا ، ومثال ذلك أن كثيرا من المسائل الفقهية كانت تنتهى بهذه العبارة « وبعبكسه جاز » فكنت أقف أمامها حائرا لأن كلمة جاز كنت أفهمها على أنها السائل الذى نستعمله كوقود فى الانارة والطبخ أى الغاز السائل وبهذا لم أفهم العبارة ، ولكن بعد فترة ومع المذاكرة مع الزملاء فهمت المعنى المقصود .

فبل الامتحان بفترة قصيرة وكنا نذاكر فى جامع البحر ونراجع بعض المواد كطلبة تبين لى أن مذكراتى ضعيفة وأننى أوشك على الرسوب اذا استمر مستواى على هذا النمط ، مما أشعل فى نفسى عزيمة مضاعفة ، وشحذ همتى للاسراع بجبر هذا النقص ، فضاعفت المذاكرة حتى اجتزت الامتحان بنجاح ، وكان درسا لى فى السنوات التالية .

وبعد هذه السنة الأولى وأثناء الاجازة الصيفية افتتح أخى الأكبر محلا للخردوات بدكرنس وكانت سمعته طيبة مع الزبائن فبوركت تجارته وراجت ، وتسارعت الآراء فى الأسرة تقترح أن

أترك التعليم وأنضم لأخي في التجارة . لم تكن التجارة من ميولي
وكنت متشوقا لمواصلة تعليمي وكان خالي « السيد » من أكثر
المتحمسين والمشجعين للوقوف مع أخي في المحل وترك التعليم
فرفضت وأصررت على مواصلة تعليمي وهاجمت خالي واستعرت
كتب الفرقة النانية من زميل يسبقني في الدراسة بعام وهو
عبد الحكيم شعبان من « القباب الصغرى » ، كنت أقرأ في هذه
الكتب في الاجازة وتدمع عيناى خوفا من حرمانى من مواصلة
الدراسة .

غير أن فتوى من شيخ بالجامع الأحمدي بطنطا حسمت الامر،
فقد ذهب أخى الأكبر الى طنطا لزيارة السيد البدوي وقابل أحد
المشايخ وعرض عليه المشكلة ليفتيه فيها فرد عليه بحرمة الوقوف
فى طريق طلب العلم وأن من قطع طالبا عن العلم كمن قطع شجرة
يحتذى بها الناس فى فلاة ، وحذره من ذلك بالويل والنبور على
من يفعل ذلك أو يشجع عليه ، فعاد أخى وقد عزم باصرار على أن
أواصل تعليمى ، واسترحت اذ خرجت من هذه الغمة الطارئة .

بدأ العام الدراسى فسافرت الى دمياط وواصلت الدراسة
بالفرقة الثانية وسكنت مع بلدياتى ومع طلبة آخرين فى منزل
شيخ بالمعهد الدينى وهو مدرس خط به ، وكنا - نحن الطلبة -
نعاكسه فى أثناء الحصص . . وكانت له حديقة كبيرة فى أطراف
دمياط من جهة رأس البر وبها عمارة كبيرة من عدة طوابق يسكن بها
ويؤجر بقية الشقق كما كان له منزل من طابق واحد وبه أربع حجرات
مؤجرة لطلبة من المعهد الدينى .

كان بعض الطلبة يتصرفون بشقاوة فيتسلقون نخل الحديفة
وأشجارها لياكلوا ثمارها ، أو يلعبون الكرة فيكسرون زجاج الأبواب

أي الشبايبك ويحدثون أصواتا مزعجة وهنا نفاجأ بنورة عارمة
ومطاردة غاضبة من الشيخ .

كانت العادة أن يحاول الطلبة الكبار أن يتسلطوا على الطلبة
الصغار خاصة المستجدين مثل السمك الكبير الذي يأكل الصغير ،
الأذا' قاوم الصغير واستشعر مكانته وكرامته ، حينئذ تحدث بعض
المصادمات إلى أن يتعادل ميزان القوى فيعتدل الميزان ويتحقق العدل
وتسوى الجفوة بين الزملاء والأصدقاء .. وهكذا تمضي الحياة .

اتسمت حياة التلمذة في الغربية بنوع من التقشف في المعيشة
المحدودية الموارد في المصروف ، ولا حساسنا بعدم تحميل أسرنا فوق
ما يطيقون ولحرصنا على توفير بعض النقود لشراء الكتب الثقافية
التي كنا نطمح لاقتنائها وقراءتها ، وكنا ننتهز أي فرصة للسفر إلى
القاهرة لشراء هذه الكتب من مكاتبها خاصة الكتب القديمة
المعرضة على سور الأزبكية .

توفي شيخ الأزهر وعين شيخ جديد فانتهزنا الفرصة لنهنته
.. كنا مجموعة كبيرة من طلبة معهد دمياط فاقتحمنا محطة السكة
الحديد بالسناية بدمياط ونحن نحمل علم المعهد الديني ، واحتللنا
عربة من عربات القطار المسافر للقاهرة دون تذاكر ، وفي محطة
القاهرة حاولوا احتجازنا لتحصيل ثمن تذاكر السفر ولكننا تكاثرنا
على الباب وخرجنا ثم سرنا في طابور حتى إدارة الأزهر وبتنا في
الجامع الأزهر ، ثم جاء خالي المتولي وأخذني للمبيت عنده حتى سافرت
إلى دمياط .

حاولنا مرة أخرى تكرار السفر إلى القاهرة في مناسبة مماثلة
عن طريق القطار فاقتحمنا المحطة بالقوة وكنا نهتف « باسم الملك
يفتح الباب » فتصدى لنا البوليس بالمحطة وتكسرت حوامل الأعلام

ومنعنا من السفر وقبض على بعض الطلبة .. وعدت مع البعض الآخر الى المعهد جريا فوجدنا البوليس قد أقام حواجز على كوبرى السنانية المقام على النيل فرع دمياط فاجتزنا هذه الحواجز وقد تساقط البعض ونحن مستمرّون فى الجرى ، وقبل المتهمة مباشرة كانت سيارة للبوليس مليئة بالجنود قد لحقت بنا فأسرعت بدخول الشارع المجاور للمعهد ، واختفيت فى أول بيت وراء الباب فأقبل جندى يطرق الباب فجاءت سيدة من الداخل ، ولم تكن قد رأتنى ونفت له وجود أى طالب بالمنزل ثم فوجئت بوجودى وراء الباب فصعقت فطمأنتها وكان الجندى قد ترك المنزل للبحث عنى فى المنزل المجاور ، وكانت المرأة قد سمحت لى بالاختفاء داخل المنزل حتى يتوارى العساكر ، ولكن العسكرى عاد مرة أخرى ودخل المنزل فأكدت له السيدة عدم وجود أحد من الطلبة فخرج مرة أخرى .. كانت الفترة بين دخولى الشارع ونزول العسكرى من السيارة للامساك بى لا تسمح الا بدخولى أحد هذين المنزلين .. حين توارى العسكر خرجت بعد أن طويت عمتى وجبتى وخرجت متبيللا من الشوارع الخلفية حتى وصلت الى سكنى .

بعد ذلك حاولنا الاتصال ببعضنا كطلبة ، نجمع التبرعات لشراء طعام للمقبوض عليهم ونتصل بشيخ المعهد نرجوه ليتوسط لدى المحافظ ورجال الأمن للإفراج عن الطلبة المحبوسين .

كثيرا ما كانت المظاهرات تسير فى الشوارع مطالبة بالجلء والاستقلال ووحدة وادى النيل نهتف « مصر والسودان لنا وانجلترا ان أمكنا » .

وتأتى سيارات الأمن تحمل العسناكر الذين يفرقون هذه المظاهرات بالقوة واستخدام العصى والقبض على بعض الطلبة .

كانت السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مشحونة بالحماس الوطني ، والحركة الوطنية في قمة اشتغالها .

كانت شهور الدراسة محدودة وبقية الشهور تعود فيها الى قرانا حتى تستقر الأحوال فقد كانت الحكومة تصدر القرارات بتعطيل الدراسة الى أجل غير مسمى ثم تصدر القرارات باستئناف الدراسة بعد ذلك .

الطالب في القاهرة :

حصلت على الابتدائية الأزهرية عام ١٩٤٧ وبدلا من أن ألتحق بمعهد الزقازيق الثانوى - كما هو متبع حسب التوزيع الاقليمى - حيث لم يكن معهد المنصورة قد أنشئ بعد - التحقت بمعهد القاهرة الدينى الثانوى - لآكون مع خالى بالقاهرة - وتركت العمامة والجبّة ، وفصلت بدلة ، ففى معهد القاهرة متسع للزى الافرنجى ، واذا عين للمعهد شيخ متزمت وشدد أحيانا فى الزى يضطر لاحضار عمامة وجبة احتياطى نلبسها فوق البدلة ولكن بعد أيام سريعا ما كان يستأنس ويضطر للتغاضى عن الدخول بالبدلة .

كنت أواظب على قراءة الصحف اليومية والأسبوعية - وفى القاهرة كنا نقرأها ونردها لمعهد الجرائد فى مقابل مبلغ شهرى خمسين قرشا ، وكنت اطلع على المجلات الشهرية وأقتنى منها ما أراه مفيدا ، ولازلت أحتفظ بأعداد كثيرة من مجلة الهلال منذ عام ١٩٤٧ وكتاب الهلال منذ ظهر والى جانب ذلك كنت أتجول حول سور الأزبكية لأشتري بعض الكتب والمجلات القديمة خاصة المجلة الجديدة لسلامة موسى والمقتطف وكنت أقرأ الرسالة لأحمد الزيات والكاتب المصرى لطف حسين ومجلتى لأحمد الصاوى وبدأت القراءات تتركز وتتمحور حول الفكر الاشتراكى بعد أن تأثرت كثيرا بكتابات

سلامة موسى ومقال لميخائيل نعيمة بعنوان « هل أنت مثقف ؟ »
خسره في مجلة الهلال ، وخرجت من هذه القراءات بأنه لا يعد مثقفا
من لم يقرأ المادية التاريخية والمادية الجدلية ، ولا زلت أذكر رأى
سلامة موسى عن الكتب التي تقرأها وتترك عندك مركبات ذهنية
تضيقك على امتداد حياتك ، على عكس الكتب التي تشترك بأسلوبها
وقوة عاطفتها وتشعرك بمتعة عند قراءتها ولكنها لا تترك في عقلك
شيئا ، ومقارنته بين المدارس للماركسية ويقرأ الجريدة وبين الذي
لا يستفيد منها بأكثر من ثمنها الأول يحصل على فوائد أضعاف
أضعاف ثمنها لأنه يفهم ما وراء الأخبار ، يفهم دوافعها ويستطيع أن
يمتدح كيف ستتطور في المستقبل .

من هنا بدأ اهتمامي بقراءة الكتب الماركسية فاشتريت
ما ترجمه الأستاذ راشد البراوي منها ، وأذكر أن الدكتور يوسف
ادريس استعار مني أحد هذه الكتب الذي يتحدث عن المادية
التاريخية عام ١٩٥٢ حين حضر أحد الاجتماعات في مسكني ثم حدثت
اعتقالات بعد ذلك وتقابلنا في « أوردى ليمان أبو زعبل » أواخر
عام ١٩٥٤ ويبدو أن الكتاب استولت عليه المباحث العامة ضمن
ما كانت تستولي عليه من كتب عند مهاجمتها للبيوت وتفتيشها .
والقبض على من تجده من الوطنيين والتقدميين رغم أن كثيرا من
هذه الكتب يباع في المكتبات .

اشتريت كثيرا من كتب سلامة موسى وكنا في القرية نجتمع
لنقرأ أجزاء من كتاب « تربية سلامة موسى » وقد قرأناه عدة مرات
وتأثرنا به كثيرا - كانت أفكاره جديدة ومستنيرة تشدنا إليها وتفتح
لنا آفاقا رحبة .

كذلك قرأنا كتاب « من هنا نبدأ » لخالد محمد خالد قرأناه
مرات وتأثرنا به وأحسنا كآزهرين بقربه منا لأفكاره الإسلامية
المستنيرة .

لم يكن بالفريية ناد للشباب فكانت المصاطب ودكان المزينين
والمقاهى والتجمع على البحر الصغير والمشى على ضفافه هى نوادى
الشباب التى تجمعهم للحوار والمناقشة .

كنت أسكن فى المحمية الجديدة مع خالى وبعض الطلبة الأقارب
من البلد وكنا نسير للمعهد الدينى مشيا على الأقدام من مسكننا
يخلى المحمية الى شارع المغربلين فالسروجية فشارع الأزهر حتى
المعهد الدينى بالدراسة ، وفى الخروج نعود من نفس الطريق . .
كانت عربات ساويرس تسير فى بعض هذا الطريق ، ولا يركبها
تقريبا سوى النساء البدينات وهى تشبه عربة الكارو وعليها كراسى
وحواجز خشبية وتجرها الخيول .

طلبت للتجنيد عام ١٩٤٨ وتم إعفائى لقصر النظر . وكان
حفظ القرآن يكفى للإعفاء من التجنيد وقد ألقى ذلك قبل طلب
تجنيدى بعام .

فى القاهرة بدأت أتكشف بعض مظاهر الحياة فى المدينة . .
حضرت بعض الندوات فى قاعة يورت بالجامعة الأمريكية وفى مقار
بعض الأحزاب .

ومن قراءاتى بدأت أتطلع الى الحصول على بعثة فى الخارج
ولكن هذه تتطلب تعلم لغة أجنبية فالتحقت بالمعهد البريطانى لتعلم
الانجليزية وسعيت للحصول على الابتدائية الأميرية عام ١٩٤٩
ونجحت فيها وأعددت نفسى للحصول على البكالوريا ثم الثانوية
العامة مع استمرارى فى الدراسة بالأزهر ، ولسكن الطموحات
والتصورات عن المستقبل كانت تتغير من عام الى آخر فى هذه المرحلة
من العمر .

الفصل الثانى

بواكير الوعي من العدل الاجتماعى الى الاشتراكية العلمية

القراءة وبؤس الفلاح قادتنا للفكر الاشتراكى :

كنا فى القرية مجموعة من الأصدقاء شدتنا القراءة للتشوق
للفكر الاشتراكى ، كما جمعنا طلب العلم فى الأزهر : أحمد
عبد الرازق ويسبقنى بأربع سنوات فى الدراسة وعبد السلام خشان
وعبد الحكيم الامام ويسبقانى بسنة واحدة فى الدراسة ثم أنا كنا
أربعة وكان يلتف حولنا عدد من الأصدقاء الآخرين بعضهم طلبة فى
الأزهر أو المدارس الأميرية والبعض الآخر من شباب الفلاحين . كنا
الأربعة نتبادل الكتب ونتناقش حول الرؤى والمستقبل وقضايا الوطن
والأمة ومشاكل القرية والفلاحين .. كرهنا الظلم والاستبداد
وغضبنا لما نحن عليه من تخلف وما يسيطر على الناس من خمول
وكسل وخضوع لسيطرة الأوهام والخرافات على عقولهم .. كان
يستفزنا الوجود الاستعمارى فى بلادنا وتواطؤ الطبقات الحاكمة
معه وخضوعها لأوامره وتعلقها بالارتباط به والتحالف معه .. كانت
الملكيات الاقطاعية الكبيرة تمثل لنا طغيانا واستغلا لا كريها لعرق
الفلاحين ، ومع ذلك كان هؤلاء يساقون الى صناديق الانتخابات
يقودهم السماسرة - لانتخاب الباشا - أو من يسانده الباشا

الاقطاعى . . كان الفلاحون الصغار أو العمال الزراعيون يعصرهم الفقر والجوع والفاقة وتحصدتهم الأمراض والأوبئة ، ويسيطر عليهم الجهل ، وقد سدت في وجوههم سبل التعليم ، لا يقدرّون على تعليم أبنائهم ، ولا يعرفون له طريقا وكان الاقطاع حريصا على أن يبقى الغالبية العظمى من الشعب على جهالتها .

طلب من « برهان باشا نور » التبرع لإنشاء معهد المنصورة الدينى فرفض محتجا وقال : نريدون أن يتعلم أبناء الفلاحين ؟! ومن يبقى لنا ليفلح أرضنا ؟!

من هنا أدركنا أن حياة الريف المصرى البائسة لا منقذ لها الا المنهج الاشتراكى فى التطور والتنمية فتشوقنا الى ثورة تقضى على هذا الاستقطاب الطبقي المستفز والتباين الحاد فى الدخول وتنشئ العدل الاجتماعى وتوزع الأرض على من يفلحها وتضع حدا أعلى للملكية وتفتح الباب لتصنيع البلاد ورفع مستوى شعبها .

كانت دراستنا للدين الاسلامى وما اشتمل عليه من دعوة للعدل والحرية والشورى والوقوف ضد الاحتكار واستغلال حاجة الناس ، والدعوة الى تقديس العمل واعتباره مصدر الملكية ومقياس التفاضل بين الناس ، والانتصار للأجير والحث على أن يعطى أجره قبل أن يجف عرقه ، والدعوة الى التكافل الاجتماعى ، وأنه ليس منا من يبيت شبعا نا وجاره جائع ، وأنه لا مال لأحد فيما زاد عن حاجته ، لأن المال مال الله والناس عيال الله .

دراستنا هذه كانت معاونانا لنا على سلوك هذا المنهج .

من هذه القيم والمبادئ الاسلامية تشوقنا الى العدل الاجتماعى الذى يلتقى مع الفكر الاشتراكى .

كانت قراءتنا لما كتبه الدكتور طه حسين عن المعذبين في الأرض وعن الفتنة الكبرى وما كتبه ميخائيل نعيمة وسلامة موسى . مددا بفتح لنا أبواب الأمل في وطن متحرر من قوات الاحتلال يحتضن العدل والحرية ويجعلهما رمزا ومنارة لمسيرته نحو المستقبل .

من هنا تابعنا باهتمام شديد قضية مصر حين عرضت على مجلس الأمن عام ١٩٤٧ ، وتحمسنا لموقف جروميكو مندوب روسيا في مجلس الأمن وتأييده لقضيتنا في نفس الوقت الذي شعرنا فيه بالضغط والغضب من المفارقة العجيبة التي تمثلت في موقف الحكومة المصرية ورئيس وزرائها النقراشي باشا ومندوبيها الدائم في الأمم المتحدة الذي رفض أن ينسق موقفه مع موقف مندوب روسيا لتأييد قضيتنا خوفا من غضب انجلترا عليه .

كان أهالي القرية يتجمعون في الشارع أمام بيتنا وأمام بيت الشيخ امام - حيث لم يكن بالقرية مذيع آخر غير هذين الجهازين - ليسمعوا نشرة الأخبار من الراديو وكلمات المندوبين في مجلس الأمن .

وبسبب حماسنا للعدل الاجتماعي وقراءتنا عن ثورات بلاد أخرى كنا نتوقع أن الاقطاع لن يستمر طويلا في مصر ، بل أن الملكية نفسها لن تعمر كثيرا ، وأن بلادنا مقبلة على ثورة تقتلع الاستعمار وجذور أعوانه وكان الناس يتعجبون مما نقول ، ولا يصدقون امكانية وقوعه .

قلت ان تطلعاتي وتصوراتي للمستقبل كانت تتغير من عام الى آخر . . تبخرت في ذهني فكرة البعثة ومواصلة الحصول على شهادات المدارس مكثفيا ومواصلة الدراسة في الأزهر مع الاهتمام

بالفكر السياسى ، وبدلا من النجاح الشخصى والمجد الفردى تبدى لى الوطن والمجتمع والشعب الذى يجب أن أهبه جهدى وتضحياتى - وجدت طموحى فى العمل السياسى والكفاح من أجل مستقبل أكثر اشراقا للشعب والوطن - كنا نسمع عن الفكر الاشتراكى وعن تنظيمات نروج لهذا الفكر فأخذنا نتلمس الطريق إليها ، وحين وصلنا بها خيط أمسكنا به وأمسكت بنا ، لأنها وجدت مجموعة ناضجة وطموحة ولها جمهور وتأثير فى بيئتها .

بدأنا الدعاية داخل القرية والقرى المجاورة ودخلنا فى نقاشات حادة مع الطلبة من الاخوان المسلمين خاصة فى دكرنس ، وكنا نسيطر على منبر الجامع ، فلا يعتليه أحد الا بموافقتنا ، ولا يستطيع واعظ المسجد وامامه أن يسمح لأحد بالخطبة اذا كنا نعارضه ، وحاول الاخوان أن يفتحوا لهم شعبة بالقرية ولكنهم فشلوا ، ثم حاولوا أن يأتوا بالدكتور خميس من المنصورة ليخطب فى المسجد ويدعوا للاخوان وقد انتهزوا فرصة وجودنا فى الامتحانات بالقاهرة ولكننا حضرنا الى القرية قبل أن يتم ذلك ، وأجهضنا المحاولة ، ثم استطاعوا أن يقنعوا عددا من طلبة الأزهر من جيل أتى بعدنا وفتحوا بهم شعبة فى منزل أحدهم ولكننا صممنا على أن نحتويهم حتى نجحنا فى ذلك وضممناهم إلينا وأصبحوا من أكثر المتحمسين لأفكارنا .

الوظيفة مع طلب العلم :

فى ذلك الجو حاول الاخوان ترويع أهالىنا فأشاعوا أننا تحت المراقبة وأننا مهددون بالاعتقال وأوهبوا أهالىنا بذلك فخاف الأهل علينا ، وألح على أخى بالتفرغ للدراسة فدفعنى ذلك الى الاستقلال بالمادى والاعتماد على نفسى وأنه من الأصوب ألا أستنفد كل وقتى

فى الدراسة خاصة وأن المذاكرة لتحقيق النجاح لم تكن تحتاج منا
الا الشهر الأخير السابق على الامتحان وطول العام كنا نقضيه فى
العمل السياسى ، فالتحقت بمدرسة الصيارف بعد نجاحى فى النقل
من الفرقة الثالثة الثانوى الى الفرقة الرابعة وكانت مدرسة الصيارف
تمنح الطالب بها ثلاثة جنيهاً مكافأة شهرية وكانت الدراسة بها
لمدة سنة واحدة بمدرسة التجارة أمام جامع الظاهر ببيرس بميدان
الخازندار بالعباسية . فى الصباح كنت أذهب الى المعهد الدينى
بالدراسة للدراسة بالفرقة الرابعة ثانوى وفى المساء أذهب الى
مدرسة الصيارف لأتلقى دروسها ، وفى نهاية العام امتحنت ونجحت
هنا وهناك وكان ترتيبى الأول على الجمهورية فى مدرسة الصيارف،
ثم تدربت فترة الصيف عند أحد الصيارفة بذكرنس لمدة ثلاثة
أشهر ثم صدر قرار بتعيينى فى الدقهلية بمحافظتى وكنت الوحيد
الذى عين فى محافظته وفى نفس الوقت ثم انتدبى للعمل بإدارة
ضريبة الملاهى بالقاهرة بشارع عماد الدين مكافأة لى على تفوقى
وكان العمل بهذه الإدارة لا يصل اليه الا من كانت له واسطة كبيرة
أو صاحب عمل متميز وعلاوة على هذا فقد كان هذا العمل ملائماً
لظروفى يمكننى من مواصلة الدراسة مع مهام الوظيفة وسعيت
لنقل نهائياً من الدقهلية الى القاهرة ووفقت فى ذلك .

منذ السنة الأولى الثانوية كنت أسكن بشارع قره قول المنشية
بالحلمية الجديدة مع خالى وبعض أقاربى من القرية . كانت حياتنا
تتسم بالتقشف فى المصاريف ، كان لكل واحد قدر محدد من الغذاء
لا يكفى حاجة الشاب الحيوية ، كان الطعام ينتهى قبل أن يتشبع
البعض منا .

لم تكن لدى الكبار الذين سبقونا وتخرجوا بل وعملوا
بالتدريس اهتمامات ثقافية أو سياسية لذلك لم تكن لديهم زغبة

فى شراء غير صحيفه يومية ويرفضون شراء الصحف الأسبوعية ،
مع أنهم يقرءونها ان وجدت لكن دون أن يشتركوا فى دفع ثمنها . .
لذلك كنا نشترىها اما على حسابنا الخاص واما نحملها على
المصاريف الجماعية التى كانت مسئولية أحدنا كلما لاحت فرصة .

تفرق البعض عن هذا المسكن لزواجه واتخذ سكنا خاصا له
وآثرت أنا وقريبى وصديقى الأستاذ أحمد عبد الرازق أن نتخذ
سكنا مستقلا حتى تكون لنا الحرية فى انفاق ما يكفى حاجتنا من
المعيشة والحياة الثقافية فأجرنا حجرة واسعة فى حارة البابلى
المتفرعة من شارع خيرت بالسيدة زينب كانت فترة أطلقنا عليها
فترة تسمين ، كان صديقى يحب الأكل ويتفنن فى صناعته ويكثر
من الحديث عنه حتى أننا كنا نأكل فى اليوم خمس أكلات ، وكأننا
كنا نثار من فترة المجاعة السابقة .

فى الساعة الخامسة صباحا يوقظنى صاحبى للطور الذى
كان قد أسرع واشتراه من الشارع وأعدده ، وفى التاسعة نأكل مرة
ثانية ثم أخرج لمهام الوظيفة وهى تحصيل ضرائب الملاحى من عدد
محدد من المسارح والسينمات فى دورة لا تتجاوز ساعة أو ساعتين
ثم أذهب للادارة لتوريد ما حصلته فى الخزينة ، وحين أعود فى
الساعة الواحدة والنصف تقريبا أجد الغذاء معدا ويطلب منى
صاحبى أن أجلس فورا لتناول الطعام حتى قبل أن أخلع ملابسى
ثم نأكل للمرة الرابعة بعد العصر والمرة الخامسة فى المساء .

عرفت صاحبة الشقة فىنا هذا النهم فساعدتنا عليه ، كانت
حينما نخرج للسوق تسألنا ان كنا نريد سمكا أم لحما أم كبدة
وهكذا فان كان سمكا نظفته وأعدته لنا .

كان زميلنا الذي تركناه في الشقة السابقة حين يأتي لزيارتنا يكون أول ما يهتم بمعرفته العنود على نوتة المصروفات التي كنا نضعها على أرضية شباك الحجرة فيتناولها ويقرأها ويهوله كميتها ويتعجب من حالنا وجرءتنا .

الكفاح المسلح :

في ذلك الوقت كان الوفد في الحكم وكانت الحركة الوطنية قد تصاعدت الى الكفاح المسلح في منطقة القناة وتتابع بطولات الفدائيين ضد معسكرات الانجليز بعد أن ألقى النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ في أكتوبر ١٩٥١ ، كانت القاهرة تحتشد بالمؤتمرات والندوات والتجمعات والمظاهرات التي تطالب بتوزيع السلاح على الشعب وتدريبه ليخوض معركة الاستقلال وطرد المحتل من أرض الوطن بعد أن حفظت قضيتنا أمام مجلس الأمن ونشلت المفاوضات وتكونت اللجان الوطنية في الأحياء والقرى لتفود حرب التحرير .

حريق القاهرة :

كان لابد للاستعمار والسراى والرجعية من أن تتآمر لانتكاس الحركة الوطنية فكان حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ بعد معركة الشرطة مع قوات الاحتلال في الاسماعيلية في ٢٥ يناير ١٩٥٢ .

كانت شوارع القاهرة تمتلئ يوميا بالمظاهرات تجوب أنحائها تندد بالاستعمار وتطالب بالسلاح . فكان حريق القاهرة ردا على التحركات الشعبية هذه لاتخاذ ذريعة لاعلان الأحكام العرفية ولجم الحركة الوطنية ووقف الكفاح المسلح الذي كان يكتسب كل يوم أنصارا ويتعمق محتواه .

كنت فى ذلك الوقت بشرفة ادارة ضريبة الملاهى بشوارع
عماد الدين وشاهدت أعمالا - لابد وأن تكون منظمة ومعدة سلفا -
رأيت رجالا يحملون كورا من القماش مثبتة فى أسياخ من الحديد
يغمسونها فى البنزين ثم يشعلونها ويقذفون بها المسارح والسينمات
والمحلات التجارية فى الشوارع الرئيسية بوسط المدينة ، ووسط
الحريق انتشر السلب والنهب وعاشت القاهرة ليلة حالكة السواد ،
وفى نفس الوقت الذى تشتعل فيه القاهرة كان الملك يستضيف
كبار رجال الجيش فى قصر عابدين على وليمة واحتفال ملكى ،
ولم يحدث هذا صدفة انما تم بتدبير محكم حتى يأخذ الحريق مجراه
ثم ينزل الجيش بعد اعلان الأحكام العرفية لضرب الحركة الوطنية
والزج بقادتها وبالفدائيين والأحرار من أبناء الشعب فى السجون
والمعتقلات .

فى هذا اليوم فرضت الأحكام العرفية. ومنع التجول فى
الشوارع وحوصر معنا فى حجرتنا صديق لى من المعهد الدينى وهو
الطالب محمد عبد الجواد الدكرورى وقريب له هو الأستاذ
عبد التواب يوسف كاتب قصص الأطفال ، تقابلنا صدفة بالقرب من
مسكننا فلجأنا اليه لحظر التجول .

فى هذه الفترة ساد ارهاب الدولة وتنخى من بقى من المناضلين
المعروفين عن الأنظار ، وبدأ هؤلاء يجتمعون سرا لمواجهة النكسة .

كانت حجرتنا مقرا لأحد هؤلاء الفسارين من المطاردة وهو
المرحوم الأستاذ عبد المنعم الغزالى مكث عندنا بعض الأيام وعقد فيها
بعض الاجتماعات السرية مع عدد من كوادر وأعضاء الحركة
الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدثو) وزعماء الطلبة أذكر منهم
د . يوسف ادريس والأستاذ سامى عبد الحميد والأستاذ محمود
المحامى بعد ذلك .

فى كلية دار العلوم :

فى أثناء الوظيفة حصلت على الثانوية الأزهرية عام ١٩٥٢ وكانت سنوات الدراسة بها خمس سنوات وفى يوليو من نفس العام قامت الثورة وكانت الظروف المحلية والعالمية مواتية لنجاحها وقد مهدت لها الحركة الوطنية الأرض سياسيا وفكريا .

سافر زميلى الى القرية وانتقلت أنا الى مسكن آخر بشبرا وتقدمت للامتحان فى مسابقتين احدهما للالتحاق بكلية دار العلوم جامعة القاهرة والثانية للالتحاق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ونجحت فى المسابقتين وأصبحت مقيدا فى الكليتين ، ولى أصدقاء هنا وهناك وكل منهما يريد أن أكون معه ، ومكنت حوالى أسبوعين أحضر هنا بعض المحاضرات وهناك البعض الآخر الى أن تغلب عندى اختيار كلية دار العلوم .

قامت الثورة فايدناها :

أفرجت الثورة فى بداية قيامها عن المعتقلين والمسجونين السياسيين ولكنها أبقت على عدد من الشيوعيين فى المعتقل بدون افراج . . استقطبت الثورة تأييدا شعبيا واسعا خاصة بعد طرد الملك واصدار قانون الاصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ الذى جعل الحد الأقصى للملكية مائتى فدان ثم عدل بعد ذلك لينخفض الى مائة فدان للأسرة .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الإخوان المسلمين لم يوافقوا على هذا التحديد وكانوا يرون ألا ينقص الحد الأقصى عن خمسمائة فدان .

أيدت « حدتو » الثورة من منطلق أنها تعبر عن أفكار البورجوازية الصغيرة والمتوسطة ، ولأول مرة يصدر تحليل عن حركة

الجيش باعتبارها تعبيراً عن فئات الشعب الذي اختزن آمالها وعبر
عن آلامها ، وبدلاً من أن يكون أداة في خدمة الاستعمار والرجعية
انحاز إلى أحضان الشعب ضد جلاديه ، وكان المعهود قبل ذلك في
الفكر السياسي التقدمي أن أي حركة من الجيش إنما تعبر عن
انقلاب لصالح الطبقات المسيطرة باعتبار الجيش أداة قهر في يدها
ولا يمكن أن يقيم إلا سلطة للدكتاتورية العسكرية ..

كان هذا تحليلاً جديداً قلناه تنظيم حديثه .. بينما رأى تنظيم
الحزب الشيوعي المصري « الراية » أن حركة الجيش هي حركة
فاشية يجب مقارنتها والتحالف مع القوى الرجعية للقضاء عليها .

بطرد الملك تم إعلان الجمهورية بعد فترة وبصدور قانون
الإصلاح الزراعي أصبحت الكلمات المحرمة في عهد الملكية مثل :
ثورة - جمهورية - اشتراكية - إصلاح زراعي ، صارت هذه الكلمات
مباحة ومحاطة بالاحترام والجلال .

مصاداة الديمقراطية :

رغم استقطاب حركة الجيش لتأييد شعبي عارم ، وكان من
المفيد الاستفادة من حركة الجماهير هذه في تنظيمها وتحريكها والثقة
فيها والاطمئنان إليها .

ولكن على العكس من ذلك تورطت الثورة منذ بدايتها في
اتخاذ مواقف صارمة وقاسية وظالمة ضد الطبقة العاملة حين قمعت
حركة العمال في كفر الدوار وأعدمت قائدين لها وهما خميس
والبقرى لترهب الطبقة العاملة وتحد من حركتها ومن تطلعاتها ،
وكأنت الثورة بذلك تحقق أمل قوى الرجعية في الانحراف بسلطتها
لتأديب الطبقة العاملة وتحييم حركتها .

بدأت الثورة تأخذ اتجاهها شموليا معاديا للديمقراطية وشجعها على ذلك وقدم لها التبريرات جماعة الاخوان المسلمين لتزيح من الساحة كل القوى الوطنية حتى يخلو لها الجو لتنفرد بالثورة وتفرض وصايتها عليها . . تلاقى نصيحة الاخوان مع الطبيعة العسكرية لقادة الثورة الذين يطلبون الطاعة التامة وعدم التجاوب مع الديمقراطية والشكل الجبهوى .

تدرجت الثورة فى ضرب الديمقراطية والحريات والغناء الأحزاب فطلبت أولا تطهير الأحزاب ثم ألغتها وأعلنت عن مرحلة انتقال مدتها ثلاث سنوات تنتهى فى يناير ١٩٥٦ ، وحتى تقضى على كل حركة مناوئة قامت بحملة اعتقالات واسعة ومتوالية للنقابيين والوطنيين والديمقراطيين والتقدميين وأنصار السلام وقامت الأجهزة الأمنية بتلفيق القضايا لتبرير عمليات القبض والاعتقال والسجن ، وقامت بمقاومة أى شكل من أشكال التنظيم النقابى أو التعاونى أو الفتوى .

ففى قريننا حاولنا تكوين اتحاد للفلاحين فقام الاخوان المسلمون بالارشاد عن الاجتماع الذى كان يتم فى القرية علنا ، فقامت قوة كبيرة من الأمن بمداومة الاجتماع والقبض على كل من فيه وأودعتهم سجن المركز ، فقام أهالى القرية بحصار المركز والضغط على المسئولين حتى تم الافراج عنهم بعد عدة أيام واحتفلت القرية احتفالا صاخبا بهذا الافراج .

وأذكر أننى كنت وقتها بالقاهرة فجاءنى من القرية الزميل منير الامام وكان طالبا بمدرسة الصنائع وأخبرنى بالواقعة فذهبت الى جريدة المصرى وقابلت الأستاذ عبد المنعم الصاوى وكان وقتها سكرتيرا للجريدة ونشر الخبر فى اليوم التالى .

التحقت بكلية دار العلوم عام ١٩٥٢ ودخلت امتحان الصف الأول عام ١٩٥٣ ونجحت وانتقلت الى الصف الثانى وفى هذه السنة كنت أسكن بشبرا وأنشط بها سياسيا وتنظيميا وأذهب الى عملى بشارع عماد الدين والى الكلية قليلا لنقل المحاضرات ومعرفة المقررات وتقديم الأبحاث العلمية المطلوبة .

كان صديقى وزميلي بالقرية عبد السلام خشان طالبا بكلية أصول الدين وذهب ليسكن مع بعض المحترفين السياسيين بشبرا ، وكان عندي سرير حديد زائد بعد أن اشتريت سريرا خشبيا تم تصنيعه بالبلد فطلب منى أن يأخذه ليضعه فى مسكنه لينام عليه زميل آخر ، وكانت المباحث قد اخترقت بعض الخلايا وتعرفت على هذا المكان فهاجمته وقبضت على من فيه وكان عبد السلام خارج الشقة لا يعرف أنها هوجمت ، وحين ذهب اليها فوجيء أمامه بعبساكر ومخبرين فرجع الى الشارع وجرى فجرى وراءه بعض المخبرين حتى أمسكوا به وأخذوه الى القسم فتظاهر بالسذاجة وأنه قروى ودخل ليسأل عن سكن وحين فوجيء بالعسكر خاف وجرى وإيه طالب بكلية أصول الدين ، وحيث أنهم فى القاهرة لا يعرفون عنه شيئا وأن المكان الذى حسم حوله قريب من كليته لذلك أفرجوا عنه .

وضاعت الشقة وضاع ما فيها ومنه سريري ، وكان أخى يسأل عنه ويطلب ارساله الى البلد فقلت له عليه أن يطلبه من المباحث العامة !!

نقلت وظيفيا من المنصورة الى القاهرة حسب طلبى وحين رغبت فى البقاء فى ادارة ضريبة الملاهى رفض الرؤساء فى المحافظة وأصروا على أن أنتقل الى مأمورية مالية قسم خامس (عوائد) بشارع خيرت لحاجة العمل فذهبت واستلمت عملى هناك .

الفصل الثالث

من السجن الى الاعتقال والفصل السياسى

فى السجن لأول مرة :

كانت النورة لا تكف عن القبض على كل من تحوم حوله شبهة معارضة أو رأى مستقل وتضع كل مجموعة فى قضية بتهمة قلب نظام الحكم ، وحتى تثبت براءتهم يكون قد مر عليهم فى السجن عدة شهور تردعهم عن العمل السياسى .

فى أوائل أغسطس ١٩٥٣ مسافرت الى دكرنس فى مهمة تنظيمية أثناء انقسام (ت ت) عن حدتو وكان هناك اعداد لمؤتمر السلام الذى سيعقد فى برلين وحين عدت الى القاهرة وذهبت الى البيت علمت من البواب ومن السكان الذين يسكنون معى أن المباحث قد جاءت منذ يومين بعد منتصف الليل للتفتيش وللبحث عنى وأن البواب أنكر أننى أسكن فى المنزل ورفض فتح بوابة المنزل فتشككوا فى العنوان وذهبوا ثم عادوا اليه وهددوه ففتح لهم البوابة وصعدوا الى الشقة وطرقوا الباب مرات عديدة ولم يرد عليهم أحد رغم أن الشقة كان بها بقية السكان ، ولكن لكثرة ضيوفى وغيايى وبسبب الوقت المتأخر سكتوا عن الرد ولم يفتح لهم أحد ، فرجعت القوة وهى تظن أنها أخطأت فى العنوان .

حين علمت بذلك نظفت سكنى من كل الأوراق والأجندات
وأسماء الأصدقاء لأنهم يقبضون على كل من يجدون اسمه بشكل
عشوائي ، ونزلت خلسة من الشوارع الجانبية وذهبت لمعرفة
الأخبار من بعض الزملاء بشبرا فعلمت بأنه تم القبض على عدد من
الرفاق فذهبت للمبيت عند أحد الأصدقاء بالامام الشافعي .

وفي الصباح من يوم ١٢ أغسطس ١٩٥٣ ذهبت للقيام بعمل
بعد اجازة قصيرة وخرجت مع عسكري حراسة من المأمورية لتحصيل
العوائد من مشيخة أئر النبي وحين عدت الى المأمورية وجدت في
البلكونة بعض الوجوه الغريبة كانت تنتظرني فأحسست بالخطر
وكان مكتبي في الدور الأول فقلت أصعد للدور الثاني لأرى ماذا
ستفعل هذه الوجوه فاذا بها تتبعني فعرفت أنني مقبوض على
فدخلت على مأمور المأمورية فوجدت عنده ضابط القوة التي حضرت
للقبض على فسلم على بالاسم وذكر لي مهمته وقامت المأمورية
بتعيين بعض الموظفين لاستلام أوراقى ومتيخصلاتى لتوريدها .

كانت هذه أول مرة يتم فيها القبض على وأتعرف فيها على
أقسام البوليس وسجون مصر وكان هذا في مناسبة عيد ميلادى
الرابع والعشرين والذي لم أحتفل به قبل ذلك أبدا .

صحبتنى القوة لتفتيش الشقة ولم تعثر على شيء وكان
للشقة حجرة منفصلة على السلم وبها كثير من كتب التراث والكتب
والأبحاث الدينية واللغوية ومن الكتب المقررة فى الدراسة بالأزهر
ودار العلوم وهى خاصة بى وبعض الزملاء من طلبة كلية أصول
الدين . . فأرشد القوة عن هذه الحجرة أحد سكان الشقة بسنداجة
فظنت القوة أنها عثرت على غنيمة وعلى أدلة تديننى حين فتحت
الحجرة ووجدت كما هائلا من الكتب ولكنهم بعد بحث وجهد خرجوا
بخض حنين .

أخذوني الى قسم العباسية وأخذوا معي هذا الساكن وهو
موظف صغير يعمل بالمحكمة المختلطة (محكمة الاستئناف) وليس
له صلة بالسياسة فقلت لهم هذا الشاب مسكين لا صلة له بشيء
فاتركوه ولكنهم أودعوه الحبس ليلة ثم أفرجوا عنه في الصباح .

في هذه الليلة رأيت فيها لأول مرة أقسام القاهرة وقذارة
الحبس فيها وأدركت كيف يهان الانسان في مصر وتنعدم آدميته
في مكان لا يصلح حظيرة للحيوانات .

في اليوم التالي أخذوني الى الداخلية وفي الطريق اشتريت
الجريدة وعلمت منها القبض على قضية شيوعية من ٦٨ شخصا
وحاولوا التحقيق معي واستكتا بي لمعرفة خطي فرفضت الاستكتاب
والاجابة عن الأسئلة حيث لا مبرر للقبض على فليست هناك
مضبوطات ولا أدلة ضدى وكانوا يحاولون استكتاب المقبوض عليهم
ليتعرفوا على من كتب بعض المضبوطات التى وجدوها عند بعض
المقبوض عليهم .

أودعوني قسم الخليفة حيث وجدت هناك بعض الزملاء ، ثم
رحلونا الى سجن مصر .

هذا السجن يقع على بعد خطوات من حي القلعة ويسمى أيضا
« أراميدان » وهو من السجون التى بناها الانجليز ويتكون من عدة
عنابر يحتوى كل عنبر على أربعة أدوار وبكل دور خمسون زنزاة
مقسمة الى جناحين فى مواجهة بعضهما وكل جناح به خمس وعشرون
زنزاة ويربط بين هذه الزنازين ممر دائرى وبجوار هذه العنابر
توجد زنازين للتأديب يحرم نزلاؤه من السجائر والجرائد والكتب
ومن الفسحة والزيارة ومن أى طعام غير الفول ، وزنازين التأديب

حظلمة لا ترى النور وتمتلىء جدرانها وسقفها بالقمل وأسراب البق
وتقفز فى أجوائها جيوش البراغيث وينام المسجون بالزنزانة دون
فرش أو غطاء .

ونزلاء سجن مصر من غير السياسيين يجمعهم الضياع وفقدان
القيم وهم خارج عن أى تصنيف طبقى يتوزعون بين نشالين وهجامين
وسماسرة وقوادين ومختلسين ومزيفين ونصابين وتجار مخدرات .

وكثيرا ما كان يطرق أسماعنا فى سكون الليل نشيد من
أحد الزنازين كاعلان عن الافراج عن أحد سكان هذه الزنزانة .

واحد ياورد . . اثنين ياقل . . ثلاثة يا ياسمين . . أربعة
ياأجدع ناس معلمين ، خمسة ياكركية وبقية الدور لومانجية . .
سته يازهرة الشباب والحركة الوطنية ، سبعة ياقرانات ولومانجية
ثمانية يارجالة حى البطلية .

وينتهى النشيد بالتعريف بالمفرج عنه . . ومع أن هذا المفرج
عنه قد يكون نشالا أو لص خزائن أو تاجر مخدرات فانه يضاف
عليه ألقاب التفخيم والتعظيم ، فهو من أعيان حى بولاى أو
روض الفرج مثلا ، وينتهى الاعلان بأنه خارج افراج بكرة ، وعقبال
عندنا وعندكم يا حبايب .

هذا النشيد اشتمل على بعض مصطلحات السجون المتداولة
بين نزلائها ، ويقوم النزلاء القدامى أو السجانة بشرح هذه
المصطلحات لنا ، فمصطلح الكركية يعنى المستجدين فى السجن
لأول مرة ، واللومانجية يعنى الفاقدين ، أما القارانات فهم أصحاب
المدة الطويلة فى السجن . أما تصنيف سكان دور ستة بأنهم زهرة

السبب والحركة الوطنية فيقصد به النوار من السياسيين والطلبة
حيث كانوا يوضعون في هذا الدور من أيام الحكم الارهابي
لاسماعيل صدقي باشا .

بعد أيام من اقامتنا بسجن مصر أخذونا مجموعات عدة مرات
لمحكمة باب الخلق للمثول أمام النيابة للتحقيق ، وكنا قد اتخذنا
قرارا بمقاطعة النيابة باعتبارها أداة للدكتاتورية العسكرية . وكان
موقف « حدتو » قد تعدل من تأييد الثورة باعتبارها ثورة وطنية
الى معارضتها باعتبارها انقلابا عسكريا اقام دكتاتورية عسكرية
يجب الوقوف ضدها ومحاربتها حتى اسقاطها ولذلك كنا نهتف
طوال الطريق من السجن وحتى المحكمة وأثناء مرورنا في المحكمة
حتى وكيل النيابة ثم العكس « تسقط الديكتاتورية العسكرية » .

ورفضنا الاجابة عن أسئلة النيابة معللين المقاطعة بأن هذه
قضايا ملفقة وأن النيابة ليست أكثر من أداة في يد الدكتاتورية
العسكرية التي يجب أن تسقط لعدم شرعيتها .

مكننا في السجن حوالى ستة شهور ، كنا نلبس ملابسنا
المدنية وتقدم لنا وجبات غذائية من متعهد خارج السجن ، فكان
لكل فرد عمود به لحوم وأرز وخضار وفاكهة وفي الصباح جبنه
وعسل وخبز أو فول وطعمية وفي المساء حلوة وصنف آخر وعيش ،
ولكل منا الحق في أن يشتري من الكانتين ما يريد وكانت لنا
زيارات من الأهالي .

كان هناك فرق في المعاملة بين المسجون السياسى وبين
المسجون العادى وكان المساجين العاديون يخدمون عنبرنا وكان
الشأى يأتى ليوزع علينا وكنا نخرج يوميا للفسحة مرتين في

الصباح وفي العصر ، صحيح كانت المعاملة أقل مما كان يعامل به
المسجون أو المعتقل السياسى فى عصر الملكية لقد انجذرت لكنها
حافظت على بعض الاحترام لآدميتنا وان كان هناك اهمال فى علاج
المرضى . ذهبت لطبيب السجن أشكو من جزع فى ذراعى فكتب
العلاج « حديد و زرنينخ » فرفضت العلاج محتجا بأن ما أشكو منه
ليس تعباً بالأعضاء ولا علاقة بين ما أشكو منه وبين هذا العلاج ،
فاشتكى الطبيب لإدارة السجن فحكمت على بالتأديب أسبوعاً ورغم
خوة حجتى فقد أخذوا بأقوال الطبيب وقبل أن أكمل عقوبة التأديب
جاء قرار الإفراج عنى .

كان فى كل زنزانة سرير وحتى الزنازين التى ليس بها أسرة
كان يوجد بها مراتب .

كانت هذه هى المرحلة الممتازة فى معاملة السياسيين فى
السجون فى عهد الثورة . . هذه المعاملة التى ستتحدر بأدمية
الإنسان بعد ذلك كما سيتضح فيما بعد .

الإفراج من النيابة :

لم تجد النيابة ما تدين به أغلبية المقبوض عليهم ، وثبت عدم
جدية الاتهام فى هذه القضية فأصدرت قرارها بالإفراج عنهم وكنت
أحدهم فى أول فبراير ١٩٥٤ بعد أن قضينا ستة أشهر محرومين
من حريتنا ومن دراستنا بلا مبرر سوى رغبة السلطة فى إرهابنا
وإشاعة جو من الرعب والخوف يدفع الناس إلى الصمت والسلبية .

خرجنا إلى الحرية وكان على أن أسرع إلى الكلية لمعرفة مناهج
الفرقة الثانية ونسخ محاضرات أغلب شهور السنة التى فاتتني
وتقديم بحثين للكلية حسب ما هو مطلوب منى ، واستطعت أن أنجز

ذلك فقدمت بحنين أحدهما عن الأدب والحياة وهو يحتاج الى جهد والثانى فى النحو والجهد المطلوب له محدود يتفق مع ضيق الوقت .

كنت فى الفرقة الأولى قد قدمت بحنين أيضا الأول عن « السوفسطائيون وكيف مهدوا لفلسفة سقراط » والثانى عن « القومية العربية » .

وأذكر أننى قدمت فى الفرقة الثالثة بعد ذلك بحثا عن « عودة الروح » لتوفيق الحكيم .

اجتزت الامتحان آخر العام بنجاح وبذلك انتقلت الى الفرقة الثالثة .

هبة مارس ١٩٥٤ :

حين خرجنا من السجن فى بداية فبراير ١٩٥٤ كانت البلد تغلى ، وكانت التناقضات قد تصاعدت بين رجال الثورة والعكس ذلك على أسلحة الجيش المختلفة حتى وقفت بعض الأسلحة فى مواجهة بعضها الآخر حسب موقف الممثلين لها فى قيادة الثورة ، كان محمد نجيب رئيس الجمهورية والرئيس الرسمى لمجلس قيادة الثورة قد أخذ موقفا منحازا للديمقراطية والأحزاب ومغايرا لموقف أغلبية قيادة الثورة ، وبدا وكأن تيار الديمقراطية فى صعود حتى أصدر مجلس قيادة الثورة فى فبراير قرارات بعودة الجيش الى ثكناته وبإعادة الديمقراطية والحكم المدنى الى البلاد ، واستكان الناس الى هذا الموقف الملاين والمراوغ ، ثم فى الخفاء تحرك عبد الناصر وأعوانه : طعيمة والطحاوى اللذان كانا يقودان هيئة التحرير وعلى صلة بالحركة العمالية واستطاعا أن يحركا بعض

قطاعات العمال خاصة عمال النقل المشترك للهتاف بسقوط الحرية والهجوم على مجلس الدولة وضرب رئيسه القانوني البارز الدكتور عبد الرزاق السنهوري والمطالبة بإلغاء قرارات فبراير الديمقراطية واستطاع عبد الناصر أن يناور مع الإخوان المسلمين فيخرج عنهم في مقابل عدم مساندتهم لدعاة الديمقراطية وعودة الأحزاب ، وهم كانوا دائما ضد الأحزاب ويطالبون بحلها لتخلو لهم الساحة وحدهم فيفرضوا وصايتهم على الثورة ، واستطاع عبد الناصر أن يكسب الجولة ويلغى قرارات فبراير الديمقراطية ويعود الى الامساك بزمام السلطة منحيا عنها من الناحية الفعلية محمد نجيب ومن يؤازرونه فكانت هبة مارس ١٩٥٤ مندة بانتكاس مجلس الثورة وانقلابه على قرارات الديمقراطية وبذلك رفضت الثورة منح الحرية للجماهير التي أيدتها وساندتها ، بينما أسعدت القوى الرجعية والاستعمارية التي ترفض الثورة .. ضربت الثورة أصدقاءها وأسعدت أعداءها .

قابلت الثورة اضرابات ومظاهرات الطلبة في هبة مارس بالعنف والمطاردة وتكثيف حركة الاعتقالات وافتعال القضايا للزج بأكبر عدد ممكن من الديمقراطيين والتقدميين والنقابيين الشرفاء وراء الأسوار .

وفي المنصورة واجهنا عبد الناصر في مؤتمر شارك فيه الأستاذ اسماعيل الأزهرى الزعيم السوداني واجهناه بالهتاف : « المفاوضات طريق الخيانة » - « الكفاح المسلح طريق الجلاء » ومن بيننا قبض يومها في المظاهرة على الأستاذ عبد الله الزغبى المحامى ، وكان عبد الناصر يجرى مفاوضات مع الانجليز انتهت بعدها بمعاهدة « جمال - هيد » .

بعد خروجي من سجن مصر في أول فبراير ١٩٥٤ عدت الى
عملي بمأمورية مالية قسم خامس بشارع خيرت وسكنت في حارة
عبد الرازق ببركة الفيل مع بعض الطلبة من قريتي وحرصت على
اخفاء مسكني عن مراقبة المباحث العامة حتى لا أيسر لهم عملية
متابعتي وازعاجي .

كان معي اشتراك لجميع خطوط الترام ، فكنت أركب الترام
بعد أن يتحرك من المحطة وأنزل في المحطة التالية أو التي تليها ثم
أتسلل داخل الشوارع والحواري الضيقة حتى أصل الى مسكني
وفي العودة أقوم بمنزل هذه التحركات للتمويه وحتى لا يتأكدوا من
حقيقة مسكني .

حين اقترب شهر يوليو وهو عيد قيام الثورة وكان من المعتاد
أن تقوم الحكومة في مثل هذه المناسبات بحملة للقبض على من بقي
حرا من المعارضين ، وحتى أتعاشى هذا أخذت اجازتي وسافرت الى
قريتي وهناك دخلت مستشفى أخذ أطباء الجراحة لاجراء عملية
بواسير ثم عدت الى القاهرة بعد أعياد الثورة وبعد اجراء العملية
الجراحية ، ومما يذكر أن المباحث العامة قبل أعياد الثورة ذهبت
فعلا لمسكني ببركة الفيل للبحث عني ولم أكن بالطبع موجودا
وأخبرهم من بالشقة أنني لا أسكن فيها .

وفي العباسية قمت بتأجير سكن لي مع أختي وزوجها الذي
كان مجندا بالجيش وحرصت أيضا على اخفائه وعدم معرفة مكان
سكني .

في المعتقل مرة أخرى :

ولكن في أكتوبر ١٩٥٤ - بعد محاولة الاخوان المسلمين اغتيال
جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية - جاءني مخبر في

مكان عملى يطلب منى الحضور معه الى وزارة الداخلية لمدة نصف ساعة فقط فذهبت فاودعوني فى حبس قسم عابدين لمدة حوالى ١٥ يوما انام على الأسفلت دون قرش أو غطاء أو طعام مع المجرمين واللصوص والمنحرفين بل والمنحرفات ممن قبض عليهن بواسطة بوليس الآداب من فتيات الليل ولا يفصلنا عنهن الا باب به بعض الثقوب التى يتبادل منها الرجال والنساء الحوار الجارح أحيانا للحياء وكان معى عدد ممن قبض عليهم على ذمة الشيوعية لم أعرفهم قبل ذلك منهم مصطفى بهيج وحمدى حمدان وعدد متتابع من الاخوان المسلمين .

١ : اتصلت بالمباحث العامة بى بالقسم وحاولت الضغط على لمعرفة سكنى لتفتيشه فرفضت لأنه ليس من مهمتى مساعدتهم على ذلك .
٢ : لقد انفتحت شهية الحكومة لاعتقال كل من لا يدين لها بالولاء التام والطاعة الكاملة لم تكف باعتقال الاخوان الذين دبروا محاولة الاغتيال ، وانما انتهزتها فرصة لضرب الجميع وانفتحت بوابة جهنم - اتفتحت بوابة التعذيب والحرمان والتنكيل حتى ممن لا صلة لهم بمؤامرة الاغتيال .

نقلت من قسم عابدين الى تخشيبه روض الفرج وهناك وجدت تجمعا كبيرا من المعتقلين على ذمة الشيوعية ، ومكثنا بالتخشيبه ليلة ثم رحلنا الى اوردى ليمن أبى زعبل لنفتحه لأول مرة بعد أن أخلوه من المساجين العاديين .

فى اوردى ليمن أبى زعبل :

على بعد أربعين كيلومترا من القاهرة اقيم ليمن أبى زعبل الذى أنشئ أصلا لايواء معتادى الاجرام وعتاة المجرمين وهو يقع فى الجهة الشرقية من السكة الحديد بينما يقع اوردى ليمن

أبى زعبل فى الجهة الغربية ، وتبلغ المسافة بينهما كيلومتر ونصف ،
وقد بنى الانجليز الليمان والأوردى •

والليمان بالتركية معناه السجن وهو مخصص للأحكام
الطويلة ، أما الأوردى فمعناه الملحق فهو ملحق لليمان يستعمل
كعزل صحى أو تأديب بعض المشاغبين أو لعزل النزلاء الجدد حتى
يتم ترويضهم على حياة الليمان والعمل الشاق بالجبل •

ويقال ان مئات من نزلاء الأوردى قد قاموا فى عهد الملك
فاروق ببناء قصر المنتزه بالاسكندرية واقامة الحدائق حوله ، وقد
راح ضحية هذه السخرة اللانسانية والعمل المجهد عشرات من
المسجونين •

الأوردى عبارة عن مربع كبير يحيط به سور شاهق يرتفع عدة
أمتار ويحيط بالسجن من جهاته الأربع ، وفى كل زاوية من زواياه
الأربع يرتفع برج خشبى يقف فيه حارس طوال الأربع والعشرين
ساعة يحمل مدفعا رشاشا سريع الطلقات ، ويصل الحارس الى هذا
البرج عن طريق سلم من خارج السور ، لذا يستطيع الحراس
الأربعة من هذه الأبراج وعلى هذا الارتفاع مراقبة كل ما يجرى
داخل السجن والسيطرة على أى تحرك داخله •

وفى منتصف الضلع الشرقى من هذا السور تقع البوابة
الوحيدة للسجن وهى بوابة خشبية مصفحة ضخمة عليها حراسة
دائمة ومحكمة ، وأمام تلك البوابة يقع مكتب قائد السجن
وضباطه •

ويحتوى السجن من الداخل على ستة عنابر مستطيلة من
طابق واحد ولكل عنبر باب واحد وأرضية العنابر - حين وصلنا
اليه - رملية رطبة وامتدت الرطوبة الى أجزاء من جدرانها ، وعرض

العنبر خمسة أمتار وطوله حوالى الأربعين مترا ، وفى وسطه تتدلى من السقف لمبة كهربائية خافتة الضوء وتحت الللمبة برميل مكشوف به مياه يعلوها ريم وطحالب وكائنات تتحرك فيها ، فليس بالسجن مواسير مياه بل تجلب المياه من الليمان يحملها المسجونون العاديون على ظهورهم فى خزانات (تانكات) مستطيلة من الألمنيوم ثم يصبونها فى هذه البراميل وهى على حالها دون تنظيف ، ومياه هذه البراميل للشرب ولاستعمالات الانسان الأخرى ، وفى نهاية العنبر توجد قاعدة كايينية (تواليت) بلدى مكشوف تماما فليس حوله أى جدار أو ساتر وعلى من يقضى حاجته أن يفعلها أمام كل الموجودين فى العنبر وفى جدران كل عنبر فتحت سبع عشرة نافذة مساحة كل منها ٤٠ × ٦٠ سنتيمترا وهذه النوافذ بقضبان حديدية وليس لها شيش أو زجاج فهى مفتوحة دائما لتصب على النزلاء زمهرير الشتاء ولواقح قيظ الصيف .

وهذه العنابر بهذا الشكل تذكرنا بعصور العبيد فهى لا تصلح ولواقح قيظ الصيف .

بجوار هذه العنابر الستة يوجد على يمين الداخل من البوابة حجرات الملاحظة والمغسل والغلاية والحمام وهذه يقبع خلفها عنابر ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ أما على يسار الداخل فتوجد حجرة الترميم وحجرة المخزن ويمتد وراءهما عنبر ٥ ، ٦ ووراءهما زنازين التأديب والسجناء الجنائيين الذين يخدمون فى مرافق السجن ومساحة كل منها ٢ × ٢ من الأمتار وأمام هذه الزنازين يمتد فناء السجن .

والأوردى بهذا الشكل يصبح سجننا نموذجيا فى مفهوم قوى الظلم والارهاب لسهولة حراسته والتحكم فيه والعزل التام لنزلائه عن الخارج واستحالة الهرب منه ، فسجان واحد يستطيع من خلال العين السحرية - المثبتة فى باب كل عنبر - مراقبة كل حركة ،

داخل العنبر بعد غلقه وأى صوت داخل العنابر تحمله النوافذ المفتوحة الى الحراس خارجها ، وأى حركة داخل السجن يستطيع الحراس من على أبراجهم الخشبية أن يرصدوها ويتحكموا فيها برشاشاتهم .

حين دخلنا هذا السجن لأول مرة كمعتقلين فى أوائل نوفمبر ١٩٥٤ شعرت بانقباضة فى القلب ، فالعنابر صفراء مستطيلة أشبه بالمقابر ، كانت غاية فى الانحطاط والإهمال لا تصلح حتى كمربط للحيوانات ، فالمياه النقية منعدمة ويصعب على الانسيبان أن يقضى حاجته دون حرج شديد ، مناظر انعدمت فيها كل مظاهر المدنية والتحضر وعاد الانسان حيوانا بدائيا لا نسنره حتى ورقة التوت .

أعطوا لكل منا برشا وبطانية فكان البرش يغوص فى الرمل والرطوبة ، وكانت الرطوبة تتسلل الى أجسامنا والرمل يختلط بطعامنا وبكل محتوياتنا .

لقد أودعنا هذا السجن بملابسنا المدنية ، كان الطعام يقدم لنا عن طريق المتعهد ، ولكن المكان غير مؤهل تماما حتى لسكنى الانسان البدائى ، كان هذا المكان هو البداية الأساسية فى انحطاط معاملة المعتقلين السياسيين من جانب الحكام الجدد .

شكونا من وضعنا السيئ الذى تنعدم معه الشروط الصحية ، لقد شعرنا بأن الاستمرار على هذا الوضع سيصيبنا بالأمراض لا محالة ، فحاولنا أن نقلل من مساوئه فضربنا كمية من الطوب من الطين وبعد أن جفت بنينا فى كل عنبر مصطبتين عرض كل منهما متران بطول العنبر حتى قرب نهايته وارتفاعها ثلاثون سنتيمترا وبينهما طريقة بطول العنبر ، وبنينا جدراننا لدورة المياه ووضعنا لها ستارة .

طالبنا بتحسين أحوالنا خاصة ضرورة أن يكون لكل معتقل سرير ومرتبة ينال عليها ، كما طالبنا بتحسين الطعام والسماح لأهالينا بالزيارة وبدخول الملابس والأغذية لنا والسماح للطلبة بحضور الامتحانات .

كانت هناك بعض المضايقات وكانت بعض الرسائل أو النقود التي ترسل إلينا تضيق ، ففي إحدى المرات جاءني شيك من مكان وظيفتي وأراد كاتب السجن أن أوقع عليه ليصرفه فرفضت وطلبت أن يكتب توكيلا لخالي ليصرفه فتضايق وذهب إلى الضابط يدعي أنني اجتديت عليه وشاغبته فعاقبتني إدارة السجن بضربي بالفلكة على رجلي فتورمتا فأخذت أجرى عليهما كثيرا حتى يخف الورم .

اضراب عن الطعام يقابل بالجلد والتعذيب :

تعددت شكاوانا دون جدوى فقررنا الاضراب عن الطعام في يوليو ١٩٥٥ اتخذ قرار الاضراب الحزب الشيوعي المصري الموحد الذي كان قد توحد في ٥ فبراير عام ١٩٥٥ ورفض تنظيم كل من « الراية » و « د . د . ش » دخول الاضراب معنا .

قام أطباؤنا وكان منهم الدكتور يوسف ادريس وطالب الطب عبد الحميد السحرتي بالكشف علينا للتأكد من سلامة القلب والنبض ومن قدرة كل منا على تحمل الاضراب عن الطعام ، كان نبضى قليلا وقويا وقالوا ان هذا هو مقياس الرياضيين . . أخذنا حقنا شرجية وشرب ملح ونظفنا أمعاءنا من فضلات الطعام .

دخلنا الاضراب على دفعات ، ولم تعترف إدارة السجن في بداية الأمر باضرابنا ، كنت من بين الدفعة الأولى وبعد أيام بدأت أشعر بالتسامي وبصفاء ذهني لم أشهده قبل ذلك حتى أنني قرأت

كتابا عن فلسفة هيغل وفيورباخ - وهو من أصعب الكتب -
واستوعبته بسهولة .

فى اليوم التاسع من الاضراب حضرت بجريدة ضخمة من
العساكر على رأسها اللواء اسماعيل همت وكان معروفا باجرامه
وقسوته وحبه المرضى للعنف - دخل الجنود علينا العنابر فى هجوم
تترى وهم مسلحون بالبنادق وبالشوم يضربون ويكسرون كل من
وجدوه ، كانت معركة رهيبة سالت فيها الدماء وأصيب الكثيرون
بكسور فى رؤوسهم وصدورهم وفى أذرعهم وأرجلهم ونهبوا كل
ما وجدوه من ملابس وبطاطين ومحتويات خاصة ونظارات ولوازم
شخصية .

كان ينام بجانبى الشاعر فؤاد حداد - وهو مضرب مثل عرن
الطعام من الدفعة الأولى ، وكذلك كان كل من بعنبر واحد الذى
أخليناه وخصصناه لضربى الدفعة الأولى - تكسرت ذراعه ولم يعالج
وبعد سنة من هذه الحادثة خرج من المعتقل وذراعه بها اعوجاج
بسبب الكسر الذى أصيب به ، وترك حتى التأم على حالة الكسر ،
وكذلك الفنان زهدى جرح فى رأسه ولطخت الدماء وجهه ، ومع
ذلك لم ينج من الضرب المبرح :

أجبرونا على الخروج من العنابر بين صفين من الجنود الذين
يتناولون بالضرب كل من يمر من بينهم حتى أصبحنا خارج السجن
وقد نصبت العروسة أمام بابه لجلدنا - والعروسة هى حامل خشبي
يشبه الصليب لها فتحة فى أعلى تطل منها الرأس ويربط المسجون
عليها عاريا ليضرب بالكرابيج التى تصنع من خبال خاصة بها عقد
وتوضع ليلة فى جردل به ماء وملح وكل ضربة تترك بصماتها على
الظهر جروحا ودماء تنزف وتترك أثرها لسنوات عديدة .

كان اللواء اسماعيل همت يقف خارج السجن بين حشد كبير من الضباط والجنود وأطباء السجن ووقف الجلادون أمام العروسة وانتزعوا منا الواحد بعد الآخر ليجلد عليها .

كان بيدي ساعة ففوجئت بشومة تنزل على رأسي من شاويش يطالبني بأن أنزع ساعتى وأسلمها له ، ففقدت وعيى للحظة ثم أفقت ورفضت فأراد أن يكسرها فى بدي فأخفيتها ، وأصررت على عدم تسليمها له ، ولما يئس - وكان دورى قد حل - جذبني الى العروسة وربطوا ذراعى ورجلى عليها وضغطوا على رأسي من فتحة العروسة العليا ثم أخذ الجلاد فى الضرب كانت كل ضربة تترك بصماتها على ظهري وتنزف منها الدماء وهكذا استمروا حتى تحول ظهري الى قطعة حمراء قائمة كالكبذ شرحت خطوطا دائمية متجاورة استمر أثرها لعدة سنوات . ثم قيدونا فى الحجلة (وهى جنزير طويل به مجموعة من الكلبشات تقبض على المعصم وكل كلبش به حلقتين يضم فردين معا يمر من بينهما هذا الجنزير بطول خمسة عشر مترا تقريبا .

ثم أخذوا فى ضربنا حتى نركب السيارة ، ولعدم اتمام الركوب باختظام أحدثت الحجلة خللا وعصرت صدور البعض منا لأن السيارة كان بها أربع دكك مستطيلة وكانت ظهور الدكك مرتفعة والدخول اليها بسسلالم مما أحدث ارتباكا فى الدخول أصابت البعض منا بجروح .

ولازال مشهد الزميل أبو ضيف عبد الجليل المحامى ماثلا أمامي وقد ضغطت الحجلة على صدره فصلبته على العارضة التى تتوسط الدكتين الوسطيين . بعد أن توزع من قبله ومن بعده على الجانبين ، منظر محزن ومهين ومؤلم للانسان وللانسانية .

نقلتنا السيارات الى زنازين التأديب بليمان ابي زعبل وأخذت
من سساعت صحتهم الى المستشفيات لاجبارهم على فك الاضراب
وتغذيتهم ولو بالحقن .

الزنزانة التى لا تتسع لأكثر من اثنين حشر فيها أكثر من
عشرة من المعتقلين حتى لم يكن هناك مكان يستطيع الانسان أن
ينام أو يتمدد فيه فكنا نتبادل الوقوف ، وكان نصيب الزميل أحمد
وقاعى أحيانا أن يجلس على جردل البول كنوع من التميز .

كان الماء الذى يأتون به لنشره مخلوطا بالبول ، وفى داخل
الزنزانة ينم التبول والتبرز فى الجردل ونعيش بين هذه الرائحة
الكريهة ، تمزقت ملابسنا من الضرب والجلد حتى لم يبق على
جسد بعضنا سوى القانلة والكلوت وكنا نجلس وننام على أسفلة
الزنزانة دون أى فراش أو غطاء حتى ولا برش . كانت ظهورنا
تنزف من الجلد ويشد علينا ألما ، وأتذكر أننى كنت أرفع القانلة
والصق ظهري الجريح بالأسفلة وأجد فى ذلك بعض الراحة ويبدو
أن أسفلة الزنزانة كان يمتص بعض الألم ويدبل الجراح .

لقد تركونا لمقاومتنا الذاتية فكنا نللمم جراحنا ، لقد منحتنا
قوة التحدى التى تملكنا القدرة على مقاومة عوامل الفناء ، ومن
هذه التجربة يتبدى للانسان كم يختزن من طاقات مهولة كامنة فيه ،
تظهر فى وقت الكوارث لتقى الانسان من غوائلها .

كانت أخبار الاضراب قد عرفت خارج السجن ونشرت وكالات
الأنباء معلومات عنه . ونددت بسبوء معاملة السلطات للمعتقلين
السياسيين .

زادتنا هذه المعاملة الجبانة اصرارا على مواصلة الاضراب ، وحاولت ادارة السجن عدة مرات التفاوض معنا لملك الاضراب بوحى من المباحث العامة المشرفة على معاملتنا وأعطت وعودا بتجسين أحوالنا والاستجابة تدريجيا لمطالبنا - وبناء على ذلك وبعد سبعة عشر يوما من الاضراب قمنا بفكه . ولكى يتم ذلك بما لا يضر بصحة المضرب فلا بد أن يتم بالتدريج والبدء بالسوائل ، وخرجنا من زنازين النأديب ، وشيئا فشيئا تحسنت المعاملة فى الغذاء وأحضروا المراتب وسمحوا بدخول الملابس والأغذية من أهالينا وتوفير بعض ما نرغبه من مشتروات من الكانتين ، بل وسمحت ادارة السجن للأطباء بصرف أغذية زائدة للمرضى وكان الدكتور يوسف ادريس مندوبنا الطبى لدى أطباء السجن فاتفق معهم على مجموعة من المأكولات الزائدة التى تصرف للمرضى خاصة من الألبان والمزيت وكانت هذه توزع على مجموعات الطعام وكانت مجموعتى تتكون من الدكتور يوسف ادريس وجميل عبد الشفيق وعادل حسين وأنا .

رغم الظروف القاسية فقد كنا نحاول التغلب عليها فنعقد الندوات والمحاضرات الفكرية والثقافية ونتبادل المخطوطات لنرفع من وعينا ونوحد أفكارنا ونكتب بعض الدراسات والتحليلات ووزعنا علينا بعض الموضوعات لندرسها ونكتب عنها ، كما أصدرنا بعض المجلات المكتوبة وكذا مجلات حائط ولكن لم يسمح لنا بأداء الامتحانات وبذلك حرمت من الامتحانات سنتين دراسيتين .

مواقف استقلالية مشجعة للثورة :

فى عام ١٩٥٥ حضر الينا فى المعتقل الصحفى الأستاذ أنور عبد الملك (الدكتور بعد ذلك) وكان من التحليلات التى أشاعها بين المعتقلين أن حركة الجيش بدأت تأخذ اتجاها استقلاليا وطنيا وشبهه باتجاهات الجنرال بيرون فى الأرجنتين .

كما سمعنا أن سبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي يزور مصر وأنه زار منطقته الأهرامات وعندما رأى تمثال أبي الهول علق قائلا :

يعولون ان أبا الهول صامت ولكني أقول ان مصر حية متحركة .

يبدو أن هذه كانت ارهاصات وتفاعلات للتحولات التي تمت بعد ذلك ومنها اعتراف مصر بالصين الشعبية وادراك مصر لخداع أمريكا فبعد أن وعدت أمريكا رجال الثورة بمدعمهم بالسلاح سحبته وعودها وغدرت بهم وتركتهم فريسة لاسرائيل تعربد على حدود مصر على هواها وكانت معركة الصبحة التي استشهد فيها عدد من المصريين ، ووفقت مصر مكتوفة الأيدي ، كانت هذه المعركة فاصلة في دفع مصر الى طرق أبواب المعسكر الاشتراكي لتحصل منه على السلاح .

فبعد مؤتمر باندونج في ابريل ١٩٥٥ توسط شو ان لاي رئيس وزراء الصين لدى الاتحاد السوفيتي لمد مصر بالسلاح ، فكان ما عرف بصفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية .

ألهبت هذه التطورات حماس المعتقلين فأرسلنا الى الثورة نوיד هذه المواقف الوطنية ، ونطالب بضرورة الافراج عنا لنأخذ مكاننا في حماية هذه المكتسبات .

كانت فترة الانتقال التي أعلنتها حركة الجيش تمتد ثلاث سنوات من يناير ١٩٥٣ وحتى يناير ١٩٥٦ .

وصدر دستور ١٩٥٦ وفي أحد نصوصه تحصين قرارات مجلس قيادة الثورة باعتبارها قرارات سيادية لا يجوز الطعن فيها ،

وانتظرت مصر تنفيذ اتفاقية الجلاء التي حددت له نهاية هو يوم ١٨ يونية ١٩٥٦ وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية في ٢١ يونيو ١٩٥٦ .

الافراج عن المعتقلين :

أصبح من الضروري الافراج عن المعتقلين السياسيين ، وبدأت الافراجات بالتدريج . . . كانت هناك بعض المفارقات تثير التعجب فقد وجد بالمعتقل بعض ممن ليس لهم صلة بالعمل السياسي أو كانوا مجرد أصدقاء أو متعاطفين مع بعض الأعضاء وجلبتهم الصدف إلى المعتقل . . . كان هؤلاء آخري بأن يكونوا أول المفرج عنهم ، بل كانوا أجدر بعدم القبض عليهم من البداية ، ولكن حينما يرون بعض الشخصيات التي لها دور بارز في التنظيمات السياسية يفرج عنهم بينما يستمرون في المعتقل تملأهم الحسرة والغضب ، حتى أن أحدهم كان صائما ورأى أحد القادة وقد قبض عليه لفترة قصيرة ثم أفرج عنه فنار وقال يا ربى أصوم وتفرج عن القادة وتتركني معتقلا وأنا ليس لي صلة بهذا كله والله لا كف عن الصوم وأفطر !! كان هؤلاء نطلق عليهم « أهل السلك » أي الذين كانوا ينتظرون عند السلك الشائك الذي يمنع المعتقلين من اجتيازه - ينتظرون أن ينادى عليهم للافراج عنهم وعندما تأتي قائمة بغيرهم ولا تشملهم يتحسرون وينورون لحظهم العاثر .

في أوائل يونيو ١٩٥٦ أفرج عني من المعتقل . . . كنت منتظرا أن يطلق سراحي في القاهرة وهي موطن عملي الوظيفي ولكنني فوجئت بترحيلي إلى المنصورة - رغم معارضتي وطلبي أن يفرج عني بالقاهرة ، ولم أفهم السر إلا بعد ذلك كما سيأتي شرحه .

وفي حجز قسم المنصورة بتنا عدة ليال ، كان معي عدد من الزملاء منهم المرحوم سعد عبد اللطيف المحامي ثم جاءنا ضابط

المباحث ومعه بعض رجاله يطلب منا كتابة تعهدات بعدم الاشتغال بالسياسة ، ويهدد بالانتقال إلى أى مكان خارج مفار سكننا إلا بعد استئذان المباحث ، فقلنا لقد رفضنا ونحن بالمعتقل مثل هذه التعهدات وليس من المعقول الموافقة عليها الآن بعد أن تقرر الإفراج عنا . ورفضنا هذه المطالب وحاولوا برزالة الحصول على معلومات عن أحوال كل منا وأفراد أسرته ، كما حاولوا استمالة كل واحد على حدة ، وتطورت المناقشات إلى اعتداء من رئيس قسم المباحث « جنيدى » على وتشابكنا بالأيدي ، ولما وجهوا بالرفض والاصرار على إطلاق سراحنا دون قيد اضطروا إلى الإفراج عنا وكان ذلك يوم الخميس ١٩٥٦/٦/٧ .

الفصل السياسى من الوظيفة :

ذهبت إلى قريتي وأهلى فى نفس اليوم ثم سافرت إلى القاهرة واستلمت عملى فى ١٩٥٦/٦/٩ وفوجئت فى ١٩٥٦/٦/١٦ بمدير إدارة الأموال ببلدية القاهرة التى يتبعها عملى يستدعيني فذهبت إليه وقابلته وإذا بالرجل يبدأ حديثه معى بمقدمات أننى فى مستقبل حياتى ويجب أن أتماسك وألا أياس كان الرجل يشعر بالأسى لأن عليه أن يبلغنى بأننى قد فصلت من وظيفتى وعلى أن أترك عملى ، وعلمت أن قرار الفصل الخاص بى وبآخرين ممن أفرج عنهم قد صدر قبل الإفراج عنا من مجلس قيادة الثورة فى أول مايو ١٩٥٦ بتوقيع جمال عبد الناصر وفى اليوم التالى ١٩٥٦/٥/٢ صدق مجلس الوزراء على القرار السابق وبتوقيع جمال عبد الناصر أيضاً ولم تكن جهة العمل تعلم بهذا القرار لدرجة أننى استلمت عملى وباشرته لمدة ثمانية أيام والادارة لا تعلم أننى مفصول .

تركت القاهرة وذهبت إلى القرية وكان هناك الاستعداد لانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية فى ٢١ يونيو ١٩٥٦ أى بعد

جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر بثلاثة أيام ، وكنا وقتها نؤيد الثورة ونؤيد جمال عبد الناصر ونحث الشعب على انتخابه رغم ما أصابنا من آلام ذاتية - تغلبنا على جراحنا وأعطينا من مصلحة الوطن التي هي فوق كل آلام ذاتية .

ومن المفارقات الغريبة أن خطاب الفصل الرسمي قد وصلني وأنا في لجنة الانتخاب بمدرسة ميت الحلوج الابتدائية أدعو الناس الى انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية ، فكل التبليغات السابقة بالفصل كانت شفووية .

وبسبب حرمانى من الامتحان بكلية دار العلوم سنتين دراسيتين أثناء الاعتقال رفعت بعد الافراج عنى قضية أمام محكمة القضاء الادارى اطلب فيها الحكم بالسماح باجراء امتحانين لى عن السنتين السابقتين ولما حدث العدوان الثلاثى انشغلنا به وتركنا القضية لمحامين وكلتھما للدفاع فيها ولكنھما أهملھا فرفضت .

الفصل الرابع

معارك متواصلة ضد الاستعمار

تأميم القناة والعنوان الثلاثي واندحاره :

كانت الثورة قد جددت السعى لانشاء السد العالي ، لنوفير المياه وزيادة الرقعة الزراعية وبحويل رى الحياض الى رى دلتا ولانتاج الطاقة الكهربائية اللازمة لتصنيع البلاد ، وحاولت الاستعانة بالغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والبنك الدولي ، ووعدوها بتوفير التمويل اللازم لانشاء هذا المشروع العملاق ، ثم غدروا بها ورفضوا تنفيذه وسحبوا ما وعدهوا به ، واتهموا ميزانية مصر بالافتلاس رغم ما فرضوه من شروط مهينة وقاسية ورغم قبول عبد الناصر لها مبالغه منهم فى اذلال مصر واصرارهم على الابقاء عليها متخلفة وفقيرة حتى لا تقوم فى المنطقة دولة قوية ، فكان رد عبد الناصر عليهم قراره بتأميم قناة السويس فقامت الدنيا ولم تقعد حتى كان العدوان الثلاثى من انجلترا وفرنسا واسرائيل فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .

ورغم آلام الاعتقال والسجن فقد انفعل الشيوعيون وتحمسوا لتأميم قناة السويس وبناء السد العالي . فهذا الشاعر فؤاد حداد يكتب قصيدة :

يا حمام البر سقف .. طير وهف هف .. على كتف الحر وقف
.. والقط الغلة .

وهذا صلاح حافظ من سجن جناح في قلب الصحراء الغربية
يتعالى على المحنة ويكتب قصيدة أخرى :

بكره النور في بلادنا يلالى لما نقيم السد العالى

غنى الشيوعيون وهم مسجونون ومحكوم عليهم بالأشغال
الشاقة هذه القصائد ، ثم غنتها مصر كلها والأمة العربية فى جميع
أقطارها .

أما من أخرج عنهم فقد انتشلوا بتجميع المتطوعين للتدريب
على القتال فى معسكرات طويجر والحلمية بالقرب من قناة السويس ،
وكان يشرف على أعداد المعسكرات ضباط تابعين لرياسة
الجمهورية .

ذهبنا للتدريب بالحلمية وأقمنا أول ليلة فى مسجد مفروش
بالقش ثم أقامونا فى طاحونة ، وكنا نتدرب فى المزارع والبساتين
ووزعت علينا أسلحة جديدة ، ولكن التدريب كان هشاً وسطحياً ،
وذهب عدد من هذه المعسكرات للتسلسل الى بورسعيد ، كان
الشيوعيون أول من دخل بورسعيد بعد احتلالها وكانوا مسئولين
عن المقاومة بها .

كانت قرينتنا قد تطوع منها عدد كبير وتسلسل منهم لبورسعيد
أربعة من الشباب : عبد السلام خشان وفتحى مجاهد وأحمد العدل
ومحمود صبيح كانوا يحملون قففا صنعت بالبلد وامتلات بالسلك
الذى يخفى تحته فى جيوب سرية منشورات تحت شعب بورسعيد
على المقاومة وترفع الروح المعنوية وقد دخلوا المدينة على أنهم
صيادون .

أما دورى فقد كان التوعية وبجميع المتطوعين ، أجوب القرى
فى الدفهلية والشرقية بسيارة جيش التحرير أحت الناس على
التطوع ثم تجميعهم وإرسالهم الى المنصورة على مكتب الاستاذ
عبد الله الزغبى المحامى وهناك يتجمعون ويرسلون للمعسكرات
بالشرقية .

أتذكر كيف تجمع عندى فى بيتنا بالقرية عدد من المتطوعين
جمعتهم من قرى متعددة حتى ملأوا البيت وكيف تحمست أمى وأخى
الحاج محمد فى توفير الطعام والراحة لهم وفرشوا لهم أرض بعض
الحجرات والصالة ليناموا حتى الصباح .. كان الجميع يحركهم
الحماس للوطن وهزيمة المعتدين .

كان دورى أيضا عقد الندوات بالمدارس والخطب بالمساجد
واسنخدام مكبرات الصوت فى الميادين والشوارع والأسواق بهدف
التوعية الوطنية ورفع الروح المعنوية .

واجه العدوان مقاومة بأسلة من الشعب وإصرارا من قيادة
الثورة على عدم المساومة مع العدوان كما وجه بولجانين رئيس وزراء
الاتحاد السوفيتى إنذارا للمعتدين بضرب لندن وباريس بالصواريخ
إذا لم ينسحبا من بورسعيد كما أدانت العدوان شعوب العالم
وشجيبته أمريكا لعدم استشارتها فيه .. لهذه الأسباب اندحر
العدوان وانسحب الانجليز والفرنسيون واحتفلت مصر بعيد
انتصارها فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ « عيد النصر » ثم انسحب اليهود
من سيناء .

ولكن بعد أن تقرر الانسحاب من بورسعيد وحتى لا ينسب
بعض هذا النصر الى من اشترك فى المقاومة من الشيوعيين ، أشاعت
الحكومة أن هناك مؤامرة لاغتيالهم ، وطلبت منهم مغادرة المدينة

فانصاعوا واسحبوا حفاظا على وحدة الجبهة الداخلية وهم يشعرون بالغدر وبكران. التضحيات الغالية التي بذلوها ، ونبارى الجبناء والانتهازيون في نسبة التضحيات والمقاومة لأشخاصهم وتراجع الى المجهول نضال الأبطال المغمورين .

حقق العدوان عكس ما كان يهدف اليه فقد كان من أهدافه العودة للمنطقة من جديد بعد أن جلا عن البلاد في ١٨ يونية ١٩٥٦ ، وتأييد مصر لتأييدها للثورة الجزائرية فكانت النتيجة نقوية ثورة الجزائر ثم انتصارها بعد ذلك واقتلاع جذور الاستعمار من المنطقة فقد استعادت مصر بهزيمة العدوان قناتها وسيطرت على القاعدة العسكرية في القنال ومزقت معاهدة جمال - هيد وما كان يترتب عليها من التزامات عسكرية تخل بالاستقلال الوطني فقد كانت تقضى باستمرار وجود القاعدة واعدادها لأي طارئ يفرض عودة القوات البريطانية مرة أخرى وقد نتج عن غدر انجلترا وفرنسا قيام مصر بتمصير كل الشركات والممتلكات الخاصة بالبريطانيين والإيريسيين وبعض الدول الأوروبية التي سياندت العدوان وبذلك خرجت انجلترا من المنطقة وضرب النفوذ الانجليزي والفرنسي في مقتل ولكن اسرائيل رغم انسحابها قد استفادت من العدوان بالسماح لسفنها بالمرور في خليج العقبة وبذلك تمكنت اسرائيل من احياء ميناء ايلات .

نظرية الفراغ ومشروع أيزنهاور :

انهبلت أمريكا هزيمة انجلترا وفرنسا ووجدتها فرصة لكي تحل بنفوذها واستعمارها الجديد محل انجلترا وفرنسا بدعوى وجود فراغ في المنطقة يجب أن تشغله فتقدمت بمشروع أيزنهاور لكني تملأ هذا الفراغ وكان ذلك عام ١٩٥٧ .

كانت مصر جمال عبد الناصر تعارض هذا الاتجاه وترى أن شعوب الأمة العربية قادرة على ملء هذا الفراغ وأنه لا يمكن أن نستبدل استعمارا باستعمار وكان يشاطر مصر في هذا الرأي سوريا برئاسة شكرى القوتلى بينما كانت السعودية والأردن تميلان الى قبول المشروع أو التهادن معه وعدم مصادمته .

أكبر عريضة ضد مشروع ايزنهاور :

وهنا شاركنا فى حملة شعبية عارمة ضد هذا المشروع بالكتابة والنشرات والندوات والاجتماعات والمظاهرات والتوقيعات التى تدين المشروع ونرفضه وخرجت الكتيبات تقول : لا . لايزنهاور ، ومن هذه التوقيعات التى جمعناها عريضة طولها أربعة عشر مترا من التوقيعات التى جمعناها من طلاب الجامعات ومن الأحياء الشعبية ومن عمال المصانع ورواد المقاهى ، وقد لقت هذه العريضة كثوب من القماش وقمت أنا وزميلى محمد عمارة الطالب بكلية دارالعلوم - الدكتور الآن والمفكر الإسلامى - بزيارة مقرات وكالات الأنباء والصحف لنشر معلومات عنها فقامت هذه الوكالات والصحف بالحديث عنها ونشرت صورنا لنا ونحن نحمل هذه العريضة ، وقالت الجرائد المصرية بعناوين بارزة انها أكبر عريضة قدمت .

كما ذهبنا الى رئاسة مجلس الوزراء بشارع مجلس النواب وسجلنا أسماءنا والمهمة التى جئنا بها وهى تقديم العريضة للزعيم جمال عبد الناصر للتعبير عن رأى الشعب فى هذا المشروع وليكون سنداً له أمام الحكومات الاستعمارية وأمام الرأى العام العالمى ، وبعد أن سجلنا أسماءنا طلبت منا سكرتارية مجلس الوزراء - بعد اجراء الاتصالات اللازمة - أن نذهب الى قصر القبة لتقديمها هناك ، حين كان يعقد فى نفس الوقت اجتماع الأقطاب الأربعة : عبد الناصر وشكري القوتلى والملك سعود والملك حسين .

فحبنا واستقبلنا على الفور - حيث كان لديهم علم - وسلمنا
العريضة لأمين رئاسة الجمهورية « فؤاد تيمور » الذي سلمها بدوره
الى الرئيس جمال عبد الناصر .

وقد كانت هذه العريضة من الحجج التي استند اليها
عبد الناصر في رفض الشعب وادانته لمشروع أيزنهاور .

فصلونى من الكلية كطالب منتظم :

حين هدأت معارك العدوان الثلاثى وتقرر الانسحاب أعلن
استئناف الدراسة بالمدارس والجامعات فذهبت الى القاهرة لأصلة
دراستي بالفرفة الثالثة بكلية دار العلوم بعد حرمان سنتين من
الدراسة والامتحان ، واستأجرت شقة بشارع مؤنس أفندى بعابدين
سكن فيها معى بعض الزملاء وبعض الطلبة من قرىتى كان منهم
حامد الموجى وفتحى مجاهد ومحمد الامام .. كانت هذه الشقة
ملتقى لكثير من الأصـدقاء والبلديات لا تخلو مائدة غذاء لنا
الا ويشاركنا فيها بعض الزملاء من خارج الشقة .

كان النشاط السياسى والتنظيمى هو أكثر انشغالنا ، نعقد
الاجتماعات ونوزع المنشورات ونشارك فى الندوات والمؤتمرات
والمظاهرات وجمع التوقيعات ونساهم بالرأى والموقف فى كل
المناسبات .

ذهبت الى الكلية لأنتظم فى الدراسة فقالوا لى انك محروم من
الانتظام فى الدراسة ، وانك مفصول كطالب نظامى تربوى .
فسألت : لماذا ؟ فقل لى : لأنك موظف وهذا يتعارض مع الانتظام
فى الدراسة ، فقلت : أما عن الوظيفة فقد فصلت منها وأصبحت
متفرغا للدراسة مع أننى درست فى الفرقة الأولى والثانية وأنا موظف

فما الذى جد فى الأمر ؟ خاصة وأن الكلية بها طلبة موظفون ويدرسون بانتظام فى الكلية ، فلماذا هذا الكيل بمكيالين ؟ أم أن الهدف هو استمرار معاقبتى بحرمانى من الدراسة ؟ قالوا : هذا هو قرار مجلس الجامعة ، وإذا كنت تريد أن تكون طالبا نظاميا فعليك بتقديم طلب لمجلس الجامعة وحين يتخذ قرارا فى ذلك يسمح لك بالحضور .

كان هناك فرق كبير بين وضع ومستقبل الطالب المنتظم والطالب المنتسب ، فالمنتظم يدرس مادة التربية النظرية والعملية ويسمح له بالانتظام فى الدراسة بالكلية ويتخرج بدرجة ليسانس تربوى مؤهل مباشرة للتدريس . بينما المنتسب يحرم من ذلك وإذا أراد أن يكون تربويا فعليه أن يلتحق بعد الليسانس لمدة عامين دراسيين بمعهد التربية العالى أو يحصل على مؤهل تربوى مع العلم بأن خريجي كلية دار العلوم يؤهلون أساسا للعمل بالتدريس .

تقدمت بالطلب ونابعته بجهد واصرار حتى حصلت على قرار من مجلس الكلية ومجلس الجامعة باعادتى كطالب منتظم ، وقد استغرق هذا كل شهور الفصل الدراسى الأول ، ولم أستطع الدخول للكلية واستخراج كارتية بانتسابى اليها الا قبل الامتحان بفترة قصيرة ، وضاعت على فرصة الاستفادة من شرح الأساتذة .

حاولوا حرمانى من الامتحان للعام الثالث :

ومع ذلك ورغم حل هذه المعضلة التى افتعلتها المباحث بالاتفاق مع الحرس الجامعى الذى كانت سلطته تعلو سلطات عمداء الكليات جل رئيس الجامعة نفسه .. لقد انتهكوا حرمة الجامعة ومزقوا قداسة العلم والبحث العلمى وبذلك تيسر للحرس الجامعى والمباحث العامة افتعال مشكلة أخرى لحرمانى من الامتحان للعام الثالث دون

مراجعة لحقنى الدستورى والقانونى والطبيعى فى التعليم وفى أداء الامتحان: يقدر ما تتسع قدراتى .

والمشكلة التى افتعلوها هو الادعاء بأننى حصلت على مكافآت أثناء الدراسة فى الفرقة الأولى والثانية بدون وجه حق ، وكانت الكلية تمنح كل طالب بها مكافأة شهرية ثلاثة جنيهات وصرفت لى المكافأة الشهرية أثناء الدراسة فى الفرقتين الأولى والثانية ، وقد أرسلت الكلية لى وأنا بالمعتقل خطابا تطلب منى فيه رد هذا المبلغ وحددته فأرسلت إليها موافقة على أن تحصله من مرتبى الذى كان يصرف لى كل شهر من وظيفتى وقد حولت إليها جهة عملى هذا المبلغ .

ولكننى فوجئت قبل الامتحان بأيام بالكلية تطالبنى بمبلغ آخر قدره سبعة عشر جنيها ، فكنت للكلية بموافقتى على استيفاء هذا المبلغ من المكافأة المستحقة لى عن مدة خدمتى - بعد فصلنى - ولم أكن قد صرفتها فوافقت الكلية على ذلك وسوى الموضوع على هذا الأساس وحصلت من الكلية على رقم جلوسى فى الامتحان وعلى نصريح لى بأدائه .

وفى اليوم الأول من الامتحان ذهبت صباحا قبل الميعاد بربع ساعة لأدخل أول مادة للامتحان وهى النحو - وكانت أصعب المواد - وذلك بعد حرمان سنتين ، وتقصدت للحرس بالكرنيه ورقم الجلوس ، فما كان من ضابط الحرس - وكان واقفا على الباب فى انتظارى - الا أن خطف منى الكرنيه ورقم الجلوس وجرى للداخل وطلب من الكونسبل والعساكر منعى من الدخول .

حدث ضجيج واحتجاج منى ومن الطلاب الداخلين ، واستفسرت واستفسروا فقال ضابط الحرس - كل هذا وأنا خارج البوابة - ان الجامعة قد أرسلت بالموتوسيكل خطابا فى الصباح الباكر لمنعى

من الامتحان حتى ادفع هذا المبلغ ، فشرحت له بأننى انتفت مع الأستاذ نوح مسجل الكلية على طريقة دفع هذا المبلغ ووافق ، ورغم هذا فهو دين مدنى لا يجوز أن يكون سببا فى حرمانى من الامتحان خاصة وليس معنى الآن هذا المبلغ ، وطلبت منه أن يسمح لى بالدخول لمنافسة المسجل فى هذا الأمر أو يأنى به هنا لمناقشته فرفض وأضر على عدم دخولى فتدخل بعض الطلبة باستعدادهم لجمع هذا المبلغ وتقدم أحدهم « عبد الرؤوف أبو السعد » (دكتور بالجامعة الآن) بساعته - وكان ثمنها أكبر من المبلغ - كرهان حتى يدفع هذا المبلغ بعد أداء امتحان اليوم ، ومع هذا أصر على الرفض ، وكان الامتحان قد بدأ ، فذهبت الى صديفى الطالب محمد عمارة وكان يسكن بجوار الكلية - وكان فى هذه السنة محروما من الامتحان بقرار تأديبى من الجامعة لاشتراكه فى مؤتمر بالجامعة احتجاجا على اقالة الملك حسين لوزارة النابلسى فى الأردن - فلم أجد معه نقودا فعدت مرة أخرى للكلية أغيد الكرة فوجدت الاصرار على الرفض فأخذت تاكسيًا لتاجر قريب لى فى حي عابدين القريب من الكلية ولحسن الحظ فقد كان مسنعا للسفر الى القرية فى ذلك اليوم ويبدو أنه قد أعد معه مبلغا لقضاء بعض المصالح هناك ، فأخذت منه المبلغ المطلوب على أن يتقاضاه من أخى الحاج محمد حين يصل الى القرية وعدت سريعا الى الكلية وقدمت المبلغ فذكر ضابط الحرس أن المبلغ المطلوب أكثر من ثلاثين جنيها محاولا بأن يجمع هذا المبلغ على المبلغ المدفوع قبل ذلك فثرت فى وجهه وأحس بأن هذه لعبة مكشوفة وخشى عواقب ذلك فسقط فى يده وسمح لى بالدخول محاولا أن يدارى خجله بالقول ان الحساب سيتم بعد انتهاء الامتحان ، وذهب معى لعنيد الكلية لاستثذانه فى دخولى الامتحان وكان قد مضى من زمنه أكثر من نصف ساعة وكنت فى أثناء الشجار قد أبديت له اصرارى على دخول الامتحان حتى لو مضى نصف الوقت وحملته مسئولية تأخيرى عن أدائه .

كان زمن الاجابة عن امتحان هذه المادة ثلاث ساعات . . ذهبت الى قاعة الامتحان متأخرا فبإسافرنى المراقب بتقديم ورقة الأسئلة وورقة الاجابة فعلبت ورقة الأسئلة على وجهها وأخرجت منديل الذى أخذت أنقش به العرف الذى أخذ يتصبب على جبيني وطلبت شاي وأشعلت سيجارة ومكنت برهة حتى هدأت نفسى ، ثم شرعت فى قراءة الأسئلة وبدأت فى الاجابة ، وكنت مشناقا الى هذه اللحظات التى حرمت منها طويلا لأثبت قدرتى على استيعاب المادة رغم الجهد الجهد الذى بذلته ورغم حرمانى من حضور محاضرات الأساتذة طوال الفصل الدراسى الأول وانشغالى هذه الفترة فى استصدار قرار مجلس الجامعة لعودتى كطالب منظم .

فتح الله على وأوفيت اجابتى قبل نهاية ميعاد الامتحان وخرجت ، وهوجئت بضابط الحرس ينتظرنى خارج باب قاعة الامتحان يتساءل مسظرفا بنفاق ومكر لا يكادان يخفيان ، فأجبته متحديا أربعين من أربعين وكانت الدرجة الكبرى لهذه المادة هى أربعين درجة ، ثم توجهت الى مكتب مسجل الكلية الأستاذ نوح ، وهو شخص حريص على أناقسه ومظهره متحفظ منشى - وفى هذا اليوم لم يكن قد مضى سوى عدة أيام على حادثة قتل شنيعة لأحد المدرسين الملاحظين على امتحانات الثانوية العامة ولقبه « زمزم » ، طعنه طالب بالثانوية العامة كان يريد القش فمنعه - ما ان رآنى الأستاذ نوح داخلا حجرتة حتى هب واقفا بانزعاج شديد منطلقا فى أيمان متتالية بالطلاق بأنه لا دخل له فيما حدث فى ذلك اليوم وأنه فوجئ برسول من الجامعة جاء مسرعا على موتوسيكل بخطاب يمنعك من أداء الامتحان ما لم تدفع المبلغ المطلوب وهو ١٧ جنيها وأمطرنى كثيرا بلقب يا أستاذ سيد ، فى مهابة واحترام شديدين .

قد يستغرب البعض من تعاهة هذا المبلغ الذى لم يكن متوفرا معى فى ذلك الوقت ولكن الحقيقة أن هذا المبلغ كان يمثل فى ذلك

الوقت شيئاً كبيراً بالنسبة لعدد كبير من الفئات ، وفى نفس اليوم ذهبت أنا والزميل محمد عمارة الى زميلنا الأستاذ شهدى عطية الشافعى واستلقنا منه هذا المبلغ وأندته لأسرة قريبي فى القاهرة وحين حضر من سفره وكان قد أخذ المبلغ من أحدى فرده على ورودته للأستاذ شهدى .

هذه بعض الملاحظات التى كانت تنهجها مباحث أمن الدولة ضد مستقبل الطلاب فلم تكنف بحرماننا من الامتحان أثناء الاعتقال مع أن حرية التعليم من الحريات الأساسية التى كفلها الدستور ، بل أن اللصوص والمجرمين العاديين فى السجون يسمح لهم بدخول الامتحانات ، أما السياسيون فقد حرمت عليهم النورة - فى انحراف عن مبادئها - حقهم فى التعليم الذى هو كالماء والهواء كما قال الدكتور طه حسين ، لم تكنف المباحث بهذا بل أرادت أن تواصل حرماننا بعد الافراج .

و حين أعود بالذاكرة الى الماضى أتأمل موفى واصرارى على ممارسة حقى فى دخول الامتحان رغم كل هذه الصعاب والرهالات السخيفة أتعجب من قوة التحدى التى تملكتنى حتى استطعت فى دقائق محدودة أن أجتاز هذه المحنة وأن أتغلب عليها .. لقد كنت فى حاجة الى تماسك فولادى للأعصاب حتى لا ننهار أمام هذه المحنة المفاجئة بعد حرمان سنتين من الامتحان ولقد منحتنى قوة التحدى الخارقة هذا التماسك الذى مكننى من التفكير فى بدائل متعددة حتى اجتزت المحنة بنجاح .

وتعبر هذه الحادثة عن أن القيم الدينية والانسانية والأخلاقية لا مكان لها فى حسابات بعض الأجهزة وهذا هو الذى يفقدها المصدابة والتعاطف الشعبى معها مع أن هذا شرط أساسى لنجاحها

فى عملها ، كما يبدو بعض أفرادها - وهم يتصرفون بوحشية - وكأنهم قدوا من الصخر لا عواطف تشعر ولا قلوب تنبض بل آلات صماء فقدت العقل والحس ولحمة الوطنية .

دفعتنى هذه الحادثة الى الاصرار على استرداد الرسوم الجامعية التى دفعها أخى عن السنتين اللتين قضيتهما فى المعتقل وحرمت من الدراسة والامتحان فيهما وكانت اللائحة الجامعية خالية من أى نص يسمح باسترداد هذه الرسوم كما لم تكن هناك سابقة لذلك ، ولكننى أصرت على حقى فى استردادها رغم أننى صرفت على نفقات المواصلات للجامعة أكثر من المبلغ الذى أطلبه ولكنه التحدى الذى دفعنى الى استرداد هذه المبالغ حيث لم أنتفع بها ، وبعد جهد وحجج ووقت اضطرروا الى رد هذا المبلغ لى وكانت سابقة تحدث لأول مرة حتى أن مدير شئون العاملين بالجامعة قال : ما ضاع حق وراءه السيد يوسف ، وكانت هذه من مفارقات التحدى والعناد .

معركة انتخابات مجلس الأمة :

انتهى الامتحان وأعلنت النتيجة ونجحت وانتقلت الى الفرقة الرابعة ، وفى صيف ١٩٥٧ جرت انتخابات مجلس الأمة ، تقدمنا بترشيح أحد زملائنا ، وهو الأستاذ أحمد عبد الرازق وهو مدرس بمدرسة علي مبارك الثانوية بدكرنس ، وكانت له شعبية بين صفوف الشباب فى الدائرة خاصة الطلبة والفوى الديمقراطية والتقدمية والمستنيرة ، ولكن الثورة أقامت مصفاة لشطب من لا تضمن طاعتهم العمياء ، فلم توافق الجهة المنوط بها غريبة المرشحين على ترشيحه ، وتزاحم علينا المرشحون الباقون ، كل يطلب ودنا وتأييدنا لأنه يعرف ما لنا من وزن وتأثير فى الدائرة ، ووقع اختيار بعض الزملاء

على أحد الضباط من دكرنسى وهو الصاغ محمد فرج وكان ينسب نفسه الى الضباط الأحرار ، وكنت فى ذلك الوقت بالقاهرة لتكملة أداء الامتحان ، وحين سافرت الى القرية وتناقست مع بقية الزملاء استقر الرأى على تأييد رجل رأسمالى وطنى من ميت مجاهد وهو الحاج عبد الحليم مجاهد وهو انسان مستقيم وذو قيم يلتزم بما يقوله ولا يلعب على الحبال كغيره وهو أخ لصديق لنا هو الأستاذ المرحوم أحمد مجاهد المحامى .

جرى الانتخاب فى الجولة الأولى ونمت الاعادة فى الجولة الثانية بين هذين المرشحين ، وفاز محمد فرج بأصوات قليلة ، وقيل ان صناديق الاقتراع بالجيش هى التى رجحته .

فتحت لنا معركة الانتخابات الأبواب أمام كبير من القرى ، لأننا عن طريقها تعرفنا على وجوه كثيرة ، كما تعرفنا عن كشب على الشخصيات المؤثرة فى كل قرية ، والتى عن طريقها تستطيع أن تستقطب أغلبيتها ، هذه الانتخابات مدرسة سياسية كبرى ، فمن خلالها نستطيع الوصول ببرامجك وأهدافك الى أوسع الجماهير الممكنة وتتعرف على القيادات الفاعلة فيها ومن منها تستطيع من خلاله التأثير أكثر ، أو تضع يدك على مشاكل القرية وترتيب أولوياتها وهمومها وتستلهم الحلول لها ، وتعرف مدى قدرتهم على التفاعل معك ، ومن من هذه القيادات اذا دخلت عن طريقه سدت أبواب القرية فى وجهك .

ان لعبة الانتخابات لعبة خطيرة تحتاج الى مهارة وحذق وقدرة على اكتشاف العناصر المناضلة المستعدة للكفاح تحت شعار العدل الاجتماعى ، والى معرفة القوى المختلفة ومدى قدرة وتأثير كل منها ، ومفتاح الطريق لجذبها واقتناعها والتأثير عليها ، وتحاشى الحساسيات

التي تنفر ويعرف ومعرفة الفضاءات المشتركة موضع اتفاق الجميع حولها .

التضامن مع الثورة الجزائرية :

لقد كانت معركة العدوان الثلاثي ومقاومته ومعركة الانتخابات من أهم المعارك الغنية بالخبرات والعبر ، والتي صهرت كثيرا من الكوادر وأمدتهم بالدروس المستفادة . وكشفت لكل منهم خريطة الدائرة المحيطة به : قواها ومستواها المادي والفروق بينها ومشاكلها وعناصرها البشرية البارزة وقياداتها ومستوياتها الفكرية ومفاتيح الدخول إليها .

مع بداية العام الدراسي ١٩٥٨/٥٧ بدأنا نعود الى القاهرة للالتحاق بكلياتنا والانتظام في الدراسة . . كانت قضية الجزائر واشتعال حرب التحرير بها على أشدها خاصة بعد نجاح مصر في تأميم القناة وحماية هذا التأميم بانهزام العدوان الثلاثي . وكان لهذا النصر أثره المتعاظم على القارة الافريقية التي مسسها هذا النصر وأشعل حماسها ، فامتدت حركات التحرير الى كثير من الأقطار الافريقية التي كان لها محلوها ومكاتبها في القاهرة ، وكانت مصر تشجع هذه الحركات وتقدم لها العون والتأييد .

حول قضية الجزائر قمنا بدور في التوعية بالقضية وكسب التأييد الشعبي لها بالمظاهرات والبرقيات والاضرابات السلمية والتوقف عن العمل تضامنا معها . كانت جميلة بوحريد وتعذيبها واختطاف فرنسا للقادة الخمسة للثورة الجزائرية مما أثار غضب الجماهير . . لقد كانوا رموزا لهذه الثورة ، وللتضامن معها اتجه التأييد الشعبي للمطالبة بالافراج عن جميلة بوحريد وتحرير القادة المختطفين .

الفصل الخامس

معنة الوحدة الوطنية

التمهيد لمحنة ١٩٥٩ :

كان عام ١٩٥٨ هو عام التحولات الكبرى ، كما كان أيضا عام الانتكاسات الكبرى ففيه تمت في ٨ يناير ١٩٥٨ الوحدة بين التنظيمات الشيوعية في تنظيم واحد هو الحزب الشيوعي المصري وفيه أيضا انهارت هذه الوحدة بعد فترة قصيرة من اتمامها .

وفيه تمت الوحدة بين مصر وسوريا في ٢٢ فبراير ، وارتفع بذلك صوت وسلطة البعثيين ليخربوا هذه الوحدة بعد ذلك ، ويلهبوا نيران الفتنة بين ثورة مصر وثورة العراق .

وفي عام ١٩٥٨ قامت ثورة العراق في ١٤ يوليو وتحطم بذلك حلف بغداد ، وارتفع حماس الجماهير لدعم القومية العربية ، ولعب جمال عبد الناصر دورا هاما في تأييد هذه الثورة وحمايتها من أعدائها ، ولكن أيضا في هذا العام تصاعد الصراع والحرب الكلامية والتنافس على الزعامة بين ثورة مصر بقيادة عبد الناصر وثورة العراق بقيادة عبد الكريم قاسم ، ونفخت بعض قوى اليسار في نيران الأزمة بعبثها الطفولي ورفعها شعارا صيانيا : « زى قاسم

يا جمال « مغالين في ذلك من دور قاسم النفاذ مع أنه رفض طلب الحزب الشيوعي العراقي بالمشاركة في الحكم - رغم أن الحزب قد شارك بفاعلية في قيام الثورة - وأصر قاسم على الانفراد بالسلطة .

كانت أعوام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ وبدايات ١٩٥٨ تبشر بقوة وتماسك الوحدة الوطنية وتصاعد الحركة القومية والتفاف الجماهير حولها ، كانت الحركة الوطنية والقومية في حالة مد ، وكانت القوى الرجعية المحلية والعربية والدولية في تراجع ، ولكنها لم تستكن ولم تيأس ، بل قامت بجهد مخادع لسحق الصف الوطني والقومي زاعمة أن الصراع مع الاستعمار قد انتهى ، ويبقى الصراع مع القوى الثورية التي تهدد الاستقرار ، وكان الطريق الذي يحقق أهدافها هو رفع راية العداء للشيوعية ، ووقعت بعض القوى الوطنية واليسارية في الفخ فوسعت من شقة الخلاف بين الثورة في مصر والثورة في العراق وأشعلت نيران التنافس على زعامة المنطقة . وشجعت بذلك الروح القومية المتعصبة لعبد الكريم قاسم .

وقعت المنطقة العربية في محنة انعكست على القوى التقدمية والنقابية والديمقراطية وأنصار السلام في مصر ، ففتحت المعتقلات من جديد لتقهر وتغيب داخلها خلاصة قيادات الوطن ودعاة الحرية والديمقراطية والتقدم والعدل الاجتماعي . . كانت مأساة الأمة بأكملها أن تنتكس مسارات الثورة والحرية ، وأن تنكفي الأمة على نفسها يعصر بعضها بعضا .

وبدلاً من أن تتضافر كل القوى لمواجهة التحديات التي تعوق التنمية والتقدم سعياً إلى توفير حياة أفضل للشعب العامل ، انشغلت هذه القوى بالصراع فيما بينها وإهدار طاقاتها في تدمير نفسها ، وملئت المعتقلات والسجون بالآلاف من أبناء الشعب الشرفاء .

وانفتحت بوابة التعذيب فى السجون .. انفتحت أبواب
جهنم كما لم تنفتح من قبل .

واذا كانت هذه هى الخطوط العامة لتحولات عام ١٩٥٨
فيجدر بنا أن نشير الى بعض التفاصيل .

وحدة الشيوعيين وانقساماتهم :

نشأت الحركة الشيوعية فى مصر فى مرحلتها الثانية أثناء
الحرب العالمية الثانية وبعدها نشأة انقسامية من بعض التنظيمات ،
ثم توالى اتحاد بعضها وانقسامه الى أن تمت وحدة خمسة تنظيمات :
هى حدتو والتيار النورى والنجم الأحمر وطليلة الشيوعيين المصريين
ونواة الحزب الشيوعى ، وتمت هذه الوحدة فى ٥ فبراير ١٩٥٥
وأعلن بذلك الحزب الشيوعى المصرى الموحد تم نمت وحدة بين
الحزب الموحد والحزب الشيوعى المصرى (الراية) باسم الحزب
الشيوعى المصرى المتحد فى سبتمبر عام ١٩٥٦ ، تم بضغط من
الكوادر الحزبية أعلن فى النامن من يناير ١٩٥٨ وحدة الحزب
الشيوعى المصرى المتحد مع الحزب الشيوعى للعمال والعاملين
(ع . ف) فى حزب جديد هو الحزب الشيوعى المصرى الذى ضم
الأغلبية العظمى من الحركة الشيوعية ولم يبق خارجه سوى منطمتين
صغيرتين هما الطليعة الشيوعية (ط . ش) . ووحدة
الشيوعيين (و . ش) .

استبشرت القوى الوطنية والنقدية بهذه الوحدة وأملت
منها خيرا لمزيد من الانجازات الوطنية والاجتماعية .

ولكن الأمل لم يستمر طويلا فقد تمت الوحدة على أساس
لائحة ووثيقة سياسية عامة ، مع وجود قضايا سياسية وتأصيلات

نظرية وفكرية لم يتم الاتفاق عليها . يساند ذلك نظريات تنظيمية انقسامية .

كان الخلاف حول الوحدة الوطنية والعربية والطبيعة الطبقية للسلطة .

بالنسبة للوحدة مع سوريا كان الرأي الغالب على تيار حدثو هو تأييد الوحدة والتركيز على حوائجها الإيجابية أما نواقصها الديمقراطية مثل حل الأحزاب فيمكن مالجتها من خلال الوحدة الوطنية والكفاح ضد الاستعمار والقوى الرجعية .

ولكن تيار « الراية » و « ع . ف » ركز على النواقص الديمقراطية فبدأ وكأنه يعارض الوحدة رغم ما يدعيه من تأييده لها ، أي أنه ركز على الشكل دون المضمون .

أما الطبيعة الطبقية للسلطة — وتحديدها له أثر كبير في المواقف العملية من بناء الوحدة الوطنية — فقد كانت هناك ثلاثة مفاهيم :

الأول : أنها برجوازية وطنية ذات قيادة تمتلك طاقات ثورية كامنة ومتجددة وهذا رأي أغلبية حدثو .

الثاني : أنها برجوازية وطنية محكوم عليها بالوطنية بسبب ازدياد المد الاشتراكي في العالم وهو رأي أغلبية (الراية) .

الثالث : أنها برجوازية احنكارية ، وهذا يقود الى شعار الاسقاط وهو رأي أغلبية (ع . ف) .

أما عن النظريات التنظيمية الانقسامية فقد دخلت التيارات الثلاثة الوحدة ولم تتخل عن مفاهيمها الانقسامية فتتبار (ع . ف)

يؤمن بتيار ماركسي وتيار متمرّكس ، والراية تؤمن بأنه لا شيوعية خارج الحزب وكلاهما دخل الوحدة على أساس أن يقوم بتصفية من عداه من الانتهازيين ، أما تيار حدتو فيؤمن بأنه التيار التاريخي والتنظيم الأم .

لعبت هذه النظرة الانقسامية دورها في تشكيل أزمة الحزب وتقسيمة .

كانت الأزمة سياسية يجب أن تصفى من خلال صراع فكري واسع داخل الحزب ، ينتهى بمؤتمر يحسم الخلاف ، ولكنها عولجت بشكل تنظيمي ، بتشكيل أغلبية لا مبدئية لمعالجة أزمة الحزب أى تشكلت أغلبية تنظيمية من ع . ف والراية لمعالجة أزمة سياسية ، لقد احتفظ كل من تنظيم « الراية » و « ع . ف » بعد الوحدة بالعلاقات الحزبية القديمة وأخفوا هذه العلاقة بينما اتهموا المجموعة القيادية لحدتو داخل الحزب الواحد بفعل نفس الشيء ، وهذا وضع تكتلى يخرق قواعد التنظيم . من هنا كان ائتلاف الراية و (ع . ف) - وهما مختلفان في السياسة - ضد حدتو موقعا لا مبدئيا في السياسة وفي التنظيم ، فالائتلاف قام على موقف حلقي انقسامي تأمرى للتخلص من قيادة حدتو تحت شعار حماية الحزب .

لقد أدانت كل من قيادة الراية و (ع . ف) ما زعمتاه من سلوك تنظيمي حلقي لحدتو بينما كانت كل منهما تمارسه ، وفصلوا المجموعة القيادية لحدتو وألفوا الاحتراف لضربها لأن أغلبية المحترفين من كوادرها .

لقد تم اجتماع جانبي غير تنظيمي - باعتراف نبيل صبحي أحد قادة (ع . ف) - لأربعة عشر عضوا بعضهم من أعضاء اللجنة

المركزية الذين يمثلون ع . ف . وبعضهم من الكوادر غير المركزيين من (ع . ف) أيضا وكان الاجتماع بقيادة أبو سيف يوسف مسئولهم السياسى ، واعترض على الاجتماع خمسة من أعضاء اللجنة المركزية وسادس من خارجها واتهموا الاجتماع بأنه تكتلى وغير تنظيمى غير أن أبو سيف يوسف أعلن لهم مسئوليته عن الاجتماع وأن من الضرورى فصل قيادة حدتو لضرب اليمين باليمين واستطاع اسكاتهم فحضروا الاجتماع .

كانت ع . ف نرى - باعتراف عضو آخر - أن اليمين الحقيقى هو فؤاد مرسى ومجموعته ومع ذلك ائتلفت معهم ضد « حدتو » لأن « حدتو » هى الأقوى عدديا والأفعل تنظيميا وجماهيريا وضربها يسهل عليها ضرب الراية بعد ذلك نحت شعار ضرب اليمين باليمين لحساب اليسار .

لقد رفضت قيادة (ع . ف) - باعتراف نبيل صبحى - تسييس الصراع ، والانتظار بعض الوقت لمحاصرة الفكر الحلقى والنزول للجماهير لبلورة الفكر الصحيح ، لقد رأت أن التسييس سيجعل حدتو والراية فى صف واحد ، فتصبح عملية فصل قيادة حدتو صعبة ، بينما الوضع الاجرائى يكتل الوضع الحلقى فى مواجهة حدتو ويسهل عملية الفصل .

لقد رفضوا اشراك كوادر الحزب فى حل الأزمة ، وحصروها فى اجتماعات تكتلية قبلية تهدف لرفض تسييس الأزمة .

وقد اعترف حلمى ياسين أحد قادة (ع . ف) بخطأ الاجراءات التنظيمية التى اتخذت ضد قيادة حدتو ، فهو يرى أن الاتجاه العام للحزب كان يمينيا ، وكانت المعالجة تنظيمية ، ولم تكن

حكيمه ، ثم حاول أن يخفف من أثر هذا الاعتراف بقوله : واستدرجت الأغلبية لاتخاذ ما يحقق صالح الانقسام .

وبذكر الدكتور فؤاد مرسى : أن تقيمي اليوم (في النمائيات) يختلف عن تقيمي وقتذاك لأن الخلاف سياسى ، وكان يجب أن يعالج فى إطار سياسى عن طريق الحزب ومؤتمره ، ولكننا تسرعنا فعالجنا الموضوع علاجا تنظيميا بالفصل ، ثم أراد أيضا أن يبرر قرارات الفصل فقال : غير أنهم كانوا يستفزوننا ، كانوا غير راغبين فى البقاء معنا ، هم ينقسمون . ونحن نرد على الانقسام (١) :

والاستاذ محمود أمين العالم فى توضيحه لسبب انتقاله من التكتل الى حدتو يذكر أنه كانت هناك نوايا مبيتة لاحتواء الحزب الجديد لصالح تنظيم من التنظيمات الثلاثة وخاصة تنظيمى الراية والعمال والفلاحين ، وطرد أو قهر التنظيم الثالث تنظيم الموحد وأغلبينه حدتو ، وأنه بعد أسابيع من الوحدة طالبوا بالغاء الاحتراف لضرب حدتو واضعاف عناصرها لأن أغلب المحترفين من كوادرها ، كما ذكر أن عناصر الراية والعمال والفلاحين تحالفوا داخل اللجنة المركزية ضد عناصر حدتو فى كثير من التصويتات ، كما أضاف عنصرا هاما فى احداث الأزمة داخل الحزب ، وهو دور الحزب الشيوعى العراقى ، حيث جاء أحد الرفاق العراقيين القياديين الى مصر قبل الثورة العراقية ، وقام باجتماعات عديدة سرية مع رفاق الحزب المنتمين لتنظيمى الراية والعمال والفلاحين ليمهد الأرض حتى يكون موقف الحزب الشيوعى المصرى الجديد متسقا مع سياسة الحزب الشيوعى العراقى الذى يرى أن مصر الناصرية تمثل فى الساحة العربية قطبا رجعيا ، بينما تمثل العراق القطب التقدمى

(١) د . فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٩٥ - ١٠١ .

الثوري ، حيث يشارك الحزب الشيوعي العراقي في السلطة التي ستقوم بالثورة العراقية ، وكان هذا الحزب يدرك الخلافات السياسية داخل الحزب الشيوعي المصري الجديد من سلطة عبد الناصر ، « فالراية » و « العمال والفلاحون » يرون أن الحركة الرئيسية هي معركة الديمقراطية ، ولذا فهي معركة صدامية مع السلطة الناصرية على حين أن مجموعة الموحد وحدتو ترى أن الحركة الرئيسية ضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية ، ومعركة الديمقراطية في المرتبة الثانية ، ومن هنا فموقف هذه المجموعة هو الدعوة للتحالف مع عبد الناصر .

كانت الثورة العراقية على الأبواب ، وكان لابد من اعداد المسرح المحيط بها وخاصة في مصر . وكان لابد من أن يتطهر الحزب الشيوعي المصري من العناصر التي يمكن أن تضعف من المساندة الكاملة للثورة العراقية اذا قامت واذا اصطدمت عند قيامها بالسلطة الناصرية .

ويواصل العالم قوله : وفي تقديري أن هذا كان وراء القرار الحاسم بفصل قيادات حدتو الموجودة في اللجنة المركزية . وقد التقى هذا الدور العراقي مع رغبات الرفاق القياديين من الراية والعمال والفلاحين للتخلص من حدتو ، وبفصل قيادات حدتو من اللجنة المركزية للحزب الجديد حدث الانقسام اذ خرجت معهم أغلبية رفاق حدتو وشكلوا الحزب الشيوعي المصري (حدتو) في مواجهة الحزب الشيوعي المصري (التكتل) حسب تسمية حدتو لهذا الحزب .

نم يذكر محمود أمين العالم : اننى التقيت بالرفيق الشهيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني ، وشكوت

واستقلالها ، وكانت تمثل رأس حربة للقوى الاستعمارية لتهديد استقلال مصر والعودة الى احتلالها ، ومصرت الشركات والمؤسسات البريطانية والفرنسية وأمالك الدول الأخرى التى ساندت العدوان الثلاثى ووضع بذلك الأساس المادى لنشأة القطاع العام وفتح الطريق لتحقيق هدف مصر الطموح فى بناء السد العالى بعيدا عن السيطرة الاستعمارية وبمساهمة منزهة على قاعدة الصداقة المصرية السوفيتية ، وهزم مشروع أيزنهاور الذى أرادت به أمريكا أن ترث الاستعمارين الانجليزى والفرنسى بحجة وجود فراغ فى المنطقة برحيلهما ، وأفرج عن المعتقلين وانبعت مساحة الحريات ، وتمت الانتخابات لرئيس الجمهورية وللمجلس الأمة لاستكمال المؤسسات الدستورية بالعودة الى الشعب لانتخاب ممثليه وخلق هياكل ديمقراطية ، رغم ما شابته ذلك من نواقص سواء ما تعلق منها بالاعتراض على بعض المرشحين أو بنزاهة العملية الانتخابية ، وزاد التعاون بين الشيوعيين وبين الحكم الوطنى بقيادة عبد الناصر ، وظهر هذا فى مجال الصحافة وخاصة جريدة « المساء » .

كان هناك التقاء وطنى جبهوى منذ مقاومة العدوان الثلاثى وان لم يأخذ شكلا رسميا ، وكان هناك الى جانب التعاون السياسى مجهودات مشتركة تبذل فى تخطيط التنمية الاقتصادية وفى عمل دراسات تمهيدية لتأمين بعض المرافق العامة مثل شركة سيارات أبو رجيلة وشركة فرغلى للأقطان .. الخ .

من هنا يتضح أن الشيوعيين كان لهم دور يتنامى فى الحركة الوطنية والاجتماعية فى مصر .

وعلى الصعيد العربى تصاعدت حركة التحرير الجزائرية ، وتزايد دور مصر فى دعمها ومساندتها ، كما تصاعد المد القومى

العربي بوحدة مصر وسوريا ونكوين الجمهورية العربية المتحدة رغم نواقصها الديمقراطية وقامت ثورة العراق وانهار حلف بغداد .

كان التصور أن حركة التحرير كسبت المعركة نهائيا وأن قوى الاستعمار والرجعية قد اندحرت ولن نستطيع رغم نحفزها أن ترفع رأسها مرة أخرى للتأثير على القرار الوطني .

ولكن التطورات في النصف الثاني من عام ١٩٥٨ جاءت معاكسة للمقدمات ، لقد تبدلت الصورة استطاعت القوى الاستعمارية والرجعية أن تفتعل الأزمات لتفريق القوى الوطنية ، فصورت الأمور على أن الاستعمار قد زال ولم يصبح خطرا ولا عدوا رئيسيا ، وأن التناقض معه قد تضائل وأصبح التناقض الاجتماعي بين الطبقات هو التناقض الرئيسي الذي يجب أن يوضع في المقدمة وتعباً له الجهود ، وبذلك تضرب القوى الوطنية بعضها بعضا .

ولقد تورطت القوى اليسارية داخل الحركة الشيوعية في هذا المأزق خاصة تيار (ع . ف) فلعبت هي الأخرى دورها في تطور الأمور واحتدام الأزمة بالتصور أن الحكم يمثل البرجوازية الاحتكارية ، وأن التناقض الرئيسي قد أصبح بينه وبين الطبقة العاملة ، بل لقد وصل ببعضهم إلى القول بأن الحكم شريك أصغر للاستعمار ، ورفعوا شعار الاسقاط .

ومن المفارقات الغريبة أن تيار (ع . ف) في الفترة السابقة على الثورة وفي سنواتها الأولى غلب على نشاطه العمل النقابي أكثر من السياسي ، وقد مارسوا نشاطهم من خلال الطليعة الوفدية ، فكانوا أقرب إلى الوفد منهم إلى الشيوعيين ، وكانوا دائما على يمين التنظيمات الشيوعية الأخرى وقد أطلقوا على تنظيمهم الديمقراطية

الشعبية (د . ش) ثم فجأة يتحولون الى عيب الأطفال اليسارى
بعد وحدة ٨ يناير ١٩٥٨ .

لقد بالغوا فى قوتهم ولم يكونوا بخطهم اليسارى التصفى
قادرين على مواجهة المحنة التى شاركوا فى صنعها ، ويعترف
« فخرى لبيب » بأنهم لم يكونوا مؤهلين لذلك فيقول :

« لم يكن الحزب بوضعه وانكشاف أعضائه مؤهلا لمعركة
طويلة المدى ، كان عليه أن يرجع الى الخلف ليعد نفسه الاعداد
الذى لم يكن قد نم انجازاه . دون أن يظهر نفسه بأكثر من
قوته » (٣) .

لقد كان عبد الناصر قبل انمام الوحدة مع سوريا حذرا من
التورط فى شكل من الوحدة لم تنضج ظروفه الموضوعية ، فاعترض
على الوحدة القورية بين البلدين وفضل عليها قيام اتحاد فيدرالى
لمدة خمس سنوات على أن يعاد النظر فى أمر تلك الوحدة المقترحة
بعد انتهاء تلك المدة .

وكتب وكيلا المخابرات المصرية ، شعراوى جمعة وأمين هويدى
الى الرئيس جمال عبد الناصر أن « الفروق كبيرة والواقع مختلف ،
وقبول الوحدة محفوف بالخطر ، والنصيحة هى التأجيل » .

وكان أغلب أعضاء مجلسى قيادة الثورة السابقين الذين عرض
عليهم جمال عبد الناصر الأمر ضد قيام الوحدة الاندماجية فورا ،
ويفضلون عليها قيام اتحاد بين البلدين (٤) .

(٣) د . فخرى لبيب الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٤) منكرات عبد اللطيف بغدادى ، ج ٢ ، نقلا عن د . فخرى لبيب :

الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٣ .

وقد وافق مجلس النواب السوري بالاجماع على الاتحاد
الفيدرالى مع مصر ، وأعلن فيه خالد بكداش - وكان عضوا بالمجلس -
موقف الحزب الشيوعى السورى بقوله :

« لقد دعونا دائما الى أن يؤخذ فى كل مشروع أو سعى الى
الوحدة الظروف الموضوعية فى كل بلد بعين الاعتبار ، ولانزال
عند رأينا ، فحنى بعد ازالة الافطاعية والبورجوازية الكبيرة من
الحكم ، تبقى لكل بلد ظروفه الموضوعية ، وان تغير محتواها ، أو
طرا عليها بعض التعديل من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى
كل حال يجب التمهيد للوحدة العربية باقامة علاقات اجتماعية أخوية
بين البلدان العربية المتحررة ، تخلق جوا من الثقة المتبادلة التى
يجب أن تتعاضد خلال التعاون السياسى والثقافى والاقتصادى » .

كما قال أيضا : « لقد أبدى حزبنا ، من زمن طويل ، رأيه
بان شعار الوحدة العربية ليس وليد نشاط أو دعاية حزب من
الأحزاب ، بل هو منبثق من الواقع الموضوعى للبلدان العربية ،
فتحليل الوضع فى العالم العربى ، على أساس الماركسية اللينينية
يؤدى حتما الى اعتناق شعار الوحدة العربية ، فهو اذن شعار تمليه
علينا مبادئنا نفسها ، وكل ادعاء آخر حول موقفنا - نحن
الشيوعيين - من الوحدة العربية هو كلام باطل » (٥) .

وكان حزب البعث الاشتراكى السورى يرى أن يكون الاتحاد
فيدراليا .

(٥) قصة ثورة ٢٢ يوليو ج ٢ لأحمد حمروش نقلا عن د . فخرى لبيب .

الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٢ .

ولكن عبد الناصر يتحول موقفه الى الوحدة الشاملة وليس الاتحاد الفيدرالى حتى تتجمع كل خيوط الدولة الجديدة فى يده وتحت قيادته ، ويرجع هذا التحول الى الأسباب الآتية :

- ١ - التيار الشعبى الشديد المؤيد للوحدة مع سوريا .
- ٢ - اجماع العسكريين السوريين على الوحدة ، وقبولهم قيادته عبد الناصر بلا تردد .
- ٣ - الخوف من انتشار الشيوعية فى سوريا ومصر .
- ٤ - الطموح الى ظهور أول تحقيق عملى للقومية العربية ممثلا فى أول دولة (٦) .

ويقرر عبد اللطيف بغدادى : « اضطررنا للاستجابة تفاديا لنهوذ الشيوعيين المتزايد فى سوريا » .

وقد اشترط عبد الناصر على السوريين لقبول الوحدة حل الأحزاب وابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة (٧) .

ثم قامت الثورة العراقية فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ فساندها عبد الناصر وعمل على دعمها دوليا ، فقد علم بها وهو فى عرض البحر عائدا من بريونى بيوغسلافيا فقطع رحلة العودة وتوجه فورا الى الاتحاد السوفيتى للحصول على دعمه للثورة العراقية .

(٦) قصة ثورة ٢٢ يوليو ج ٢ ، لأحمد حمروش نقلا عن د . فخرى لبيب . الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(٧) مذكرات عبد اللطيف بغدادى ، ج ٢ ، نقلا عن د . فخرى لبيب . الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٤ .

ولكن القوى الاستعمارية والرجعية سعت الى احداث الانشقاق بين العراق والجمهورية العربية المتحدة لاغراق المنطقة فى صراع داخلى تستطيع من خلاله أن تنتهز الفرصة للانقضاض على النظام نفسه والمكاسب الوطنية والاجتماعية التى تحققت .

وساهم الحزب الشيوعى العراقى فى هذه الأزمة بسياسته اليسارية التى كانت ترى أن هناك قطبين فى السياسة العربية قطب رجعى تمثله مصر الناصرية وقطب تقدمى ثورى تمثله بغداد ولعب الكل على وتر الديمقراطية وحل الأحزاب ونفخوا من روح التعصب القومى وضخموا من دور عبد الكريم قاسم ، وارتفعت من هنا راية العداء للشيوعية حتى تستطيع القوى الرجعية تحت ظلالها من هدم كل شئ . واستغلوا الشعارات الحمقاء التى رفعها بعض اليساريين فى مصر « زى قاسم يا جمال » كما عملوا على افساد العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى واستغلوا تصريح خروشوف فى موسكو فى فبراير ١٩٥٩ الذى رد به على تورط عبد الناصر فى حملة العداء للشيوعية وهجومه العنيف على الاتحاد السوفيتى وعلى الشيوعيين فى العراق وسوريا ومصر والذى يقول فيه عن عبد الناصر : « انه شاب حدث أمامه أن يكتسب خبرة طويلة » وأكد خروشوف فى نفس الخطاب الدوافع الوطنية المختلفة لدى القادة الوطنيين وعلى رأسهم جمال عبد الناصر ، وحذر من أى شقاق بين القوى الوطنية وأن هناك دوائر معينة تستخدم سلاح العداء للشيوعية للوقية بين القوى الوطنية العربية (٨) .

ولكن القوى الرجعية والاستعمارية أغفلت كل ذلك وركزت على قول خروشوف ان عبد الناصر شاب حدث أمامه أن يكتسب خبرة طويلة .

(٨) د . فتحى عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ٢٥ .

وبدأت صحف أخبار اليوم وصوت العرب حملة عنيفة ضد
الاتحاد السوفيتي والشيوعيين .

وفى تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى (الراية ،
ع . ف) فى ١/٨/١٩٦٤ اعتراف بأن الفكر اليسارى والقيادة
اليسارية هى المسئولة عن أزمة ١٩٥٩ وليس نظام عبد الناصر .
فمن الفترة من ١٩٥٩ الى عام ١٩٦١ يقول التقرير : « كان الخطأ
اليسارى الذى وقع فيه الحزب هو خطأ المبالغة والتعميم ، ذلك
أن النفوذ المتزايد للأجنحة اليمينية البرجوازية على السياسة المصرية
قد حجب عن الحزب - فى ذلك الوقت - أن التناقضات لاتزال قائمة
بين البرجوازية القومية كطبقة وبين الاستعمار ، وأن هذه التناقضات
لا يلغىها اشتداد حدة التناقضات بين البرجوازية وبين العمال
والفلاحين والشعب الكادح عموما . . . خطأ حزبنا عندما قدر - فى
هذه الفترة - أن البرجوازية الحاكمة ككل قد انعزلت نهائيا عن
مجرى الثورة . ومن هنا جاء التحليل الذى قدمه الحزب وانتهى فيه
الى أن التمثيل الطبقي لحكومة عبد الناصر قد تغير فلم تعد تمثل
البرجوازية القومية ككل بل جناحا منها هو جناح البرجوازية الكبيرة
بما فى ذلك البرجوازية الاحتكارية . . . ان هذا الخطأ يعكس عدم
ادراك لحقيقة أن التناقضات الثانوية بين القوى الثورية يمكن - اذا
لم تعالج بالحكمة اللازمة - أن تبلغ أبعادا بالغة الخطورة تهدد
- موضوعيا - مستقبل الثورة ومنجزاتها . كما أن الخطأ يعكس
عجزا عن التمييز بين العارض والجوهري فى الظواهر المتسبابة
والمعقدة التى تميزت بها الثورات التحريرية فى البلدان المستقلة
حديثا . . . وقد قامت الفكرة القائلة بأن مضمون السلطة قد تغير

وأن حكومة عبد الناصر تمثل الاحتكار - على خلط بين من بيده السلطة بالفعل وبين الفئات التي تستفيد منها نتيجة لظروف معينة أو لسياسة خاطئة ، (٩) .

بعد حوالي شهرين من قيام ثورة العراق بدأ التراشق بالاتهامات مستترا بين قيادة الجمهورية العربية المتحدة وبين القيادة العراقية ، ثم احتدم الصراع فالقيادة العراقية تهاجم الجمهورية العربية المتحدة كما لو كانت دولة استعمارية ، والجمهورية العربية المتحدة تهاجم العراق بنفس العنف ، وتفشل محاولات التهدئة ، وتستمر المعركة بين الناصريين والبعثيين والماركسيين ، صارت كلمات ناصري وبعثي وماركسي تحمل معاني كريهة في بعض البلاد العربية ، ففي العراق يوصف الناصري بأنه ناصر للاستعمار والبعثي بأنه عميل وانتهازي وفي مصر يوصف الماركسي بالخيانة والعمالة وتهاجم الصحف في العراق عبد الناصر وتصف نظامه بأنه دكتاتوري توسعي ينسق مع الاستعمار خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي مصر وسوريا يوصف نظام عبد الكريم قاسم بالشيوعية والعمالة والعداء للعروبة والتبعية للاستعمار البريطاني .

حملة صحفية وإذاعية شرسة على الجانبين لم توجه لإسرائيل أو ليمصالح الاستعمارية ، وإنما دارت بين النوى الوطنية التي تجمعها مصالح مشتركة ، وكانت بالأمس القريب تجمعها وحدة الشعارات والعمل ، ووقفت القوى الرجعية والاستعمارية التي عانت من الهزائم في السنوات الماضية ترقب المعركة في سعادة غامرة ، فقد تنفست الصعداء .

(٩) د . فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ . ٥٧٥ ،

لقد مثلت هذه المعركة الدعائية في مصر ارهابا فكريا باسم مكافحة الشيوعية ، وكانت تمهد لمعركة دموية شهدتها السجون والمعتقلات لأكثر من خمس سنوات .

لم يكن هناك من حمل السلاح ضد النظام حتى يردع بحملة دموية ، ولكنه العجز عن مواجهة الفكرة بالفكرة والخوف من الرأي الآخر حتى ولو كان متفقا معه لأنه ان قبل اليوم بحق الرأي الآخر في الاتفاق فذلك قبول بحقه مستقبلا في الاختلاف .

لم يطق النظام الحوار ولم يتعود عليه فقد نشأ تنظيم الضباط الأحرار في صفوف الجيش فكان لابد أن يتسم بأقصى درجة من السرية والانضباط والطاعة المطلقة التي لا تقبل نقاشا ، لذا كانت الديمقراطية في داخله نوعا من الترف لا يتحملها . . وكان للطبيعة العسكرية هذه تداعياتها حين تنتقل الى التعامل مع المجتمع المدني ، فتعمل قيادة الضباط الأحرار على تعميم التجربة على الشعب بمحاولة عسكرية الجماهير ورفض أى تنظيم آخر غير تنظيمها وبالتالي رفض الرأي الآخر وعدم القبول أو الاعتراف بأى شكل جبهوى .

من هنا ألغت قيادة يوليو الدستور والأحزاب وأدى بها ذلك الى أن ترفض القوى التي معها والتي هي في حاجة الى مساندتها .

لقد وقعت الحركة الشيوعية والتقدمية والديمقراطية ضحية لهذا الواقع المتأزم فتلقت الضربات القاسمة وساعد على نجاح هذه الضربات التي شملت الآلاف من الشيوعيين :

١ - انكشاف الكثير من العناصر أثناء أحداث الانقسام داخل الحركة الشيوعية الذي أهدر كثيرا من أسرارها .

٢ - التمثيل النسبي في اللجنة المركزية بعد الوحدة لكل تنظيم من التنظيمات التي اتحدت بحسب تعداد أعضائه فأسرع الجميع الى التوسع في تجنيد الأعضاء الجدد دون تحرى الدقة في الاختيار .

٣ - دخول الشيوعيين انتخابات عام ١٩٥٧ أتاح لهم التوسع في العضوية ، ولما حانت حملة الاعتقالات لم يكن كثير من هؤلاء الأعضاء قد تصلب عودة وتقوى إيمانه .

٤ - لقد نهلت بعض القيادات وانفصلت عن مسار الثورة وتلاقت مصالحتها مع الفئات العليا فانتصرت لديها قيم الثروة على الثورة وعملت على تصفية القوى الثورية وإزاحتها من الطريق .

اعتقالات رأس السنة :

بينما العالم يحتفل بليلة رأس السنة وبداية السنة الجديدة ١٩٥٩ انطلقت خفافيش الظلام وزوار الليل يطرقون آلاف الأبواب يروعون الأطفال والأمهات والزوجات من نومهم لاختطاف المناضلين من أحضان أبنائهم وأسرهم والزج بهم في غياهب السجون والمعتقلات .

في المدرسة اليونانية ببورسعيد :

وهنا نتوقف قليلا قبل أن نواصل حديث السجون والتعذيب .

في امتحان الفرقة الرابعة في يونية ١٩٥٨ أديت الامتحان وحصلت على اليسانس ، ولأننى مفصول سياسى من الوظيفة أعرف

أنه سيعترض على تعييني في أى عمل حكومى . لذلك لم أقدم بمسوغات التعيين للكلية - كما هو متبع بالنسبة لطلبة الفرقة الرابعة - والتي تقدمها بعد ذلك لوزارة التربية والتعليم لإصدار قرارات تعيين المدرسين من الناجحين في امتحان الليسانس باعتبارهم تربويين ومؤهلين للتدريس .

كان على أن أبحث عن مدرسة خاصة للتدريس بها ، كان مجال العمل محدودا ، طرقت أبواب المكتب الفنى للتعليم الأجنبى وكان مقره بمدرسة دار المعلمات بالعباسية بمصاحبة صديقى الأستاذ أحمد مجاهد المحامى وكان على معرفة بالأستاذ الخولى المفتش الأول للغة العربية - حيث كانا عضوين بالحزب الوطنى - وكان المطلوب ترشيحي للتدريس بإحدى المدارس الخاصة فأرسلنى الى المدرسة الألمانية بالزمالك فذهبت اليها وكان الأمل فى وجود مكان خال بها ضعيفا فعدت الى المكتب الفنى . . ومصادفة كان مدير المدرسة اليونانية ببورسعيد - الأستاذ فيليب - موجودا لطلب مدرس للغة العربية لمدرسته فرشحت لها وسافرت الى بورسعيد ، وحررت المدرسة عقدا معى بمرتب خمسة عشر جنيها فى الشهر وهو مبلغ لا بأس به فى ذلك الوقت فليس قليلا وليس كثيرا .

ويمكن معرفة قيمة هذا المبلغ اذا قارنته بما عرضته على مدرسة أخرى خاصة بالزيتون بشوارع سليم الأول وهو ستة جنيهات . . وقد رفضت عرضها رفضا مزموجا بالأسى والسخرية من هذا الابتزاز العلنى .

كان الجو السياسى فى القاهرة متوترا ينبىء عن عواصف بسبب الصراع العنيف فى العراق بين أجنحة القوى التى قامت بثورة ١٤ يوليو ، وقد أجم هذا الصراع حزب البعث فى العراق وسوريا

وشد عبد الناصر اليه بدعوى الصراع بين الشيوعيين والقوميين ونفخ الاستعمار فى هذا الصراع وتورط اليسار فى المعركة بشعارات صبيانية ، وشغل العرب بأنفسهم وتصادد الصراع بينهم الى مرتبة التناقض الرئيس وهاجم عبد الناصر الشيوعيين فى العراق وسوريا ومصر .

دفعنى هذا الجو الى مغادرة القاهرة فى أول أكتوبر ١٩٥٨ وفمت بالعمل بالمدرسة اليونانية بشارع الثلاثين ببورسعيد وهى خاصة بأبناء الجالية اليونانية تدرس علومهم بلغتهم غير أن وزارة التربية والتعليم المصرية قد فرضت على مثل هذه المدارس تدريس اللغة العربية لتلاميذها .

كانت فناء السويس فى ذلك الوقت مفتوحة للملاحة وقد أعيد فتحها فى ١٠ ابريل عام ١٩٥٧ بعد أن أغلقت عقب العدوان الثلاثى ، حين قام المصريون باغراق بعض السفن والكراكات بها - بزعم أن ذلك حدث بسبب غارات طائرات العدو - وذلك حتى لا يستخدمها الغزاة بأساطيلهم فى المساعدة على عملية العدوان . ورغم افتتاح الفناء فقد كانت المدينة شبه مقطوعة والملاحة ضعيفة بها فأثر ذلك على الحركة التجارية بالمدينة ، فعانت من الركود الاقتصادى ، وضعفت الحركة بها وانخفضت الأسعار .

كانت المدينة جميلة ونظيفة . . . سكنت أول ما نزلت بها فى منطقة الملاحات ببورفؤاد بعد مساكن الشركة ومكنت بها شهرا ثم نقلت الى بيت مجاور للبيت الحديد يطل على كازينو جونيلا بالحى الفرنجى - كنا أربعة مدرسين استأجرنا حجرتين عند سيدة فى شقتها بالدور الأول العلوى وفى نهاية العام الدراسى استأجرت شقة بشارع ابراهيم - وهو شارع القنصليات ومتفرع من شارع

الجمهورية وميدان الشهداء ، وكان يسكن معي مدرس آخر هو الأستاذ أحمد جودة .

فى بداية عملى بالمدرسة طلب منا استخراج تصريح للعمل فى الهيئات الأجنبية وكان هذا التصريح يستخرج من وزارة الداخلية ولما كنت أعلم أن وزارة الداخلية سترفض طلبى ، وفى نفس الوقت كنت حريصا على أن لا يعرف مكان عملى حتى لا أتطوع بنفسى فأصبح محل مراقبة أو مطاردة من الأمن أو منعى من العمل بالمدرسة .

من هنا فكرت : ما العمل ؟ حتى أؤجل هذه المشكلة أو أجد لها حلا .

حضرتنى حيلة أن أرسل ظرفا بداخله ورقة بيضاء خالية من الكتابة وأسجله فى مكتب البريد وأقدم إيصال مكتب البريد للمدرسة التى تضعه فى ملفى ، وتتعلل به المدرسة أمام مندوب الأمن اذا حضر لمتابعة استحضار تصاريح العمل بحجة أن التصريح لم يصل بعد من الداخلية ، وهذا هو إيصال ارسال طلب التصريح .

كنت معروفا فى القاهرة لدى أجهزة الأمن باسم السيد يوسف فلما سافرت الى بورسعيد اختصرت اسمى على : السيد أحمد محمد ولم أذكر يوسف وكثيرا ما يعتبر « السيد » لقبا وبهذا الاسم سجلت الخطاب بالبريد للداخلية .

فى عيد النصر فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ خطب عبد الناصر فى استاد بورسعيد وهاجم عبد الكريم قاسم والشيوعيين العرب عموما ، وبدأ الجو مكفها وأنا مقبلون على محن لا يعلم سوى الله مصيرها كنت موجودا بالاستاد يومها وأحسست بالخطر القادم ، فسافرت

الى القاهرة فى أواخر ديسمبر لجس النبض ومحاولة البحث عن واسطة للحصول على تصريح العمل من الداخلية فذهبت بصحبة الأستاذ أحمد مجاهد المحامى والعميد صلاح مجاهد الى وزارة الداخلية وسأل العميد صلاح مجاهد بعض الضباط عن زميله العميد حسن مصيلحى أحد كبار ضباط مكافحة الشيوعية ولكنه لم يكن موجودا ، كانت هنالك حركة فى المكاتب يبدو منها الاستعداد لشيء ما . خرجنا ولم تحقق الزيارة شيئا .

أحسست أن بقائى فى القاهرة لا داعى له وكانت النية أن أنتظر بضعة أيام وأن أبيت ليلة رأس السنة عند صديقى محمد عمارة فى شقة للمحترفين ، ولكن الصدفة دفعتنى للسفر للقرية ولم أنتظر بالقاهرة .

وفى يوم أول يناير ١٩٥٩ سمعنا فى القرية عن مذبحة الأمن للبيوت مع فجر العام الجديد ومنها الشقة التى كنت سأبيت فيها ، وعن موجة اعتقالات واسعة شملت صديقى محمد عمارة ، كما سمعنا عن قوائم جديدة معدة لاعتقالات أخرى .

سافرت وزميلي عبد السلام خشان الى القاهرة خلصة لنتتبع الأخبار فوجدنا المطاردات على قدم وساق وكثيرا من الكوادر التى لم تطلها حركة الاعتقال - تتحرك فى خفاء وتبحث عن مكان آمن . فأسرعت للانفلات من القاهرة الى بورسعيد .

كانت مأساة الحركة الوطنية والقومية والتقدمية ، هذا الصراع فى غير معركة وفى غير ميدان ، وبدلا من أن يبدأ العام الجديد ببشائر خير وتصاعد فى الحركة الوطنية والتقدمية صار نذير خنوم طرب له الأعداء وشجعوه .

مكنت بقية العام الدراسي بالمدرسة ، أشعر بأننى محاصر فى جزيرة لا أستطيع مبارحتها ورغم أنه كان يوجد ببورسعيد من المدرسين بعض من هم زملائى فى الدراسة ومن ذكرنس ممن لهم انتماءات سياسية أخرى أولا انتماء لهم ، فقد تعمدت ألا أقيم علاقات معهم حتى لا يتسرب نبأ وجودى ببورسعيد وحتى لا تعرف المباحث العامة ذلك ، وكنت قد عملت على أن يشاع فى القرية أننى سافرت الى الكويت ، وقد زرت أمى واخوتى بالقرية سرا وكانت المقابلة تتم فى قرية مجاورة عند أختى لأطمئن عليهم ويطمئنون على وفى الحجر أنهض وأمشى سيرا على الأقدام - يودعنى أحد أقاربى - الى محطة بعيدة عن ذكرنس لعلها مراقبة لأركب منها عائد الى بورسعيد .

كنت فى بورسعيد أقضى وقتى بين عند محمود من مدرسى المدرسة وأولياء الأمور اليونانيين .

كان صديقى حامد الموجى خريج كلية أصول الدين فى بلدة « السرو » بلا عمل فأرسلت اليه بالحضور الى بورسعيد حين عثرت له على عمل بالتدريس بالمدرسة اليونانية الابتدائية ببورفؤاد فحضر وسكن معى فكان وجوده مما خفف على الوحشة ، كما كان يؤنسنا صديق ثالث خفيف الظل هو الأستاذ أحمد جودة وقد تخرج معى من دار العلوم وعمل ببورسعيد مدرسا بمدرسة أجنبية ، كان زميلا متدينا فى اعتدال ومهذبا ، لى المعاملة وبه روح شاعر ، تأثر بنا دون أن تكون له صلة بالسياسة ، كان يبدى إعجابه بى وبالأستاذ حامد الموجى ، كما كان شديد الإعجاب بنقتى واعترازى بنفسى فى تعاملنى مع الآخرين ، كان يقول انه يجد فىنا شيئا آخر غير الناس .. كان معنا فى السكن مدرسان آخران مختلفان اختلافا بينا عنا فى المزاج والقيم وكانا مثالين للتفاهة والسطحية والمراوغة والكنب والادعاء وفقدان القيم ، تخرجنا معى من كلية دار العلوم ، ولم أكن

على صلة بهما وتعرفت عليهما في بورسعيد من خلال الاجتماعات التي كان يعقدها موجة اللغة العربية مع المدرسين وكانا يعملان بمدرسة خاصة أخرى ، كانت علاقتنا معهما هاشية جدا ، تعايش عن بعد وكان أحمد جودة ينحاز لنا ويتحاشاهما .

كنا نقضى وقتنا في المدرسة وفي مقهى « اللوفر » ونتجول على القناة والشاطئ واللسان الذى يقع فى بداية القناة يفصل بينها وبين البحر ويقام عليه تمثال « ديليسبس » الذى حطته جماهير بورسعيد بعد تأميم القناة كرمز للاحتلال وللخدعة .

توثقت علاقتى بإدارة المدرسة وبيعض أولياء أمور الطلبة من اليونانيين ، وكان همزة الوصل معهم زميل يونانى مصرى هو الأستاذ باسيل حنا ناشد أبوه مصرى صعيدى وأمه يونانية . كان مدرسا بالمدرسة ويتفنن اليونانية ويترجمها الى العربية وبالعكس ، وكان مسئولاً عن شئون الكتب بالمدرسة ، كنا نقضى أوقاتا طويلة معا ومعنا زميل مصرى آخر كان يدرس بالقسم الابتدائى هو الأستاذ عمر وينضم إلينا أحيانا الخواجة ينى سكرتير الجمعية اليونانية التى تتبعها المدرسة والكنيسة وهو يونانى وقسيس الكنيسة وقد اتفقت مع الأخير على أن أعلمه اللغة العربية ويعلمنى اليونانية ، ولكن لم يتم ذلك بسبب التطورات اللاحقة التى ستأتى بعد .

فى بعض الجلسات التى يحلو فيها الكلام وينطلق الانسان على سجيته يحكى عن نفسه . فهمت من الأستاذ باسيل أنه على اتصال بالماسونية وكان يعبر عنها بالبنائين الأحرار متفاخرا . . . كانت هذه الجمعية فى ذاكرتى تحيط بها الشكوك منذ قرأت عن نشاط جمال الدين الأفغانى فى مصر ، فبدأت أتنبه وأتساءل متجاهلا - ما أهدافها ؟ وكيف يتعرف الأعضاء على بعضهم البعض ؟

كما عرفت من خلال حديثه أنه طلب مرة في مباحث بورسعيد أيام العدوان الثلاثي ووجهت اليه بعض الأسئلة التي تثير بعض الشكوك حوله بعد أن ترك هناك ساعات طويلة دون أن توجه اليه أسئلة ، ودون أن يعرف لماذا استدعى ، مما أثار في نفسه الفزع من مستقبل غامض .

كانت علاقاني قد توطدت مع المدرسة فرشحتني لأكون وكيلا لها مسئولا عن المواد القومية مع بداية العام الدراسي تنفيذا لقرار وزارة التعليم عام ١٩٥٨ بضرورة وجود مشرف مصرى للمواد القومية بالمدارس الأجنبية ، فضلتني بهذا الترشيح رغم وجود زميل آخر أكبر وأقدم منى وكان معارا الى المدرسة فلم تجدد اعارته لجفاء بينها وبينه .

زاد دخلى المادى من هذه المدرسة لأن أولياء الأمور كانوا يطلبون منى اعطاء دروس لأبنائهم وقد يسر ذلك أن أقوم بإرسال بعض المساعدة المالية لأمى وإخوتى وكانت حالهم المالية فى تدهور عما كان الحال عليه سابقا بسبب بعض المغامرات فى مشروعات خاسرة .

يعرف عن أهالى بورسعيد أنهم يحتفون بالضيف خاصة إذا كان شابا غير متزوج وتأمل الأسرة أن تزوجه ابنتها وهم فى هذا يضحون كثيرا .

فى المنزل الذى سكنته ببورفؤاد كانت صاحبتة عندها بنت حاصلة على شهادة متوسطة وتعمل فى أحد البنوك وتذهب اليه بالدراجة حتى المعديّة ثم منها الى البنك وبالعكس فى العودة .

احتفت بى صاحبة البيت كثيرا ، كنت أخرج من المدرسة وأذهب الى البيت بعد أن أكون قد تغذيت فى مطعم أو أحضرت معى

طعامى ، فأجدها قد أعدت لى غذاء شهيا من السمك المتعدد الأصناف
ومن الأرز - لم أكن أحب الابتزاز والعيش على حساب الآخرين
وأجد هذا نقصا يخل بكرامة الانسان ، وأحرى بى أن أتزهد عنه ،
فكنت أصسلها عن ذلك وحين أجدها فى النهاية مصرة اشترط أن
أدفع لها ثمن ما اشترته .

كانت تحدثنى عن أملاكها ومنها مبنى مدرسة ببورسعيد وهذا
المنزل الذى أقيم به وبه بعض الشقق المؤجرة كما كانت تحدثنى عن
ابنتها الموظفة بالبنك ، وكنت أشم رائحة تحويجات كانت تطحنها
مستعينة بسيدة متخصصة فى ذلك وتقوم بعمل القهوة التى تصر
على أن أحتمسها ، ولما كنت لم أضع الزواح فى خطتى فى ذلك
الوقت ولا أؤمن بالخرافات المنتشرة بين الناس عن الأحجية والأعمال
وأنها مجرد أوهام لا أثر لها ، فقد كنت أحيانا أجد نفسى
مضطرا - للمجاملة - الى شربها ، وان كنت أجد لها طعما غريبا .

كانت تتعجب من هؤلاء الخواجات الذين يأتون الى المنزل -
وهم يلبسون البرنيطة - وينادون على من الشارع وكنت أنزل
وأذهب معهم الى بورسعيد ولا أعود الى المنزل الا متأخرا بعد منتصف
الليل ، وتتنذر على أبناء القاهرة الذين يسهرون خارج البيوت الى
هذه الساعات المتأخرة .

حين نقلت الى مسكن ببورسعيد بعد شهر أحست السيدة
بغصة وأيدت حزنها على تركى المسكن وشعرت بأن طيرا قد
أفلت منها .

أما عن العمل السياسى ببورسعيد فقد كان متوقفا تقريبا فى
تلك الفترة - كنت على علاقة شخصية محدودة بزميل من بورسعيد

.. قطعت الاعتقالات الاتصالات بين الكثير ممن لم تشملهم حركة الاعتقال .. كان الأمن لا يكف عن التقاط العناصر التي يعثر عليها ، أو يتركها ليتهايم لتكون مصيدة للآخرين .

حاولت مع زميلي حامد الاتصال بمن نعرفهم في الدقهلية والشرقية ، وتمت بعض الاجتماعات وأصدرنا بعض التكاليفات ، وحاولنا إصدار مجلة وطبعها على الرونيو ، وكتبت أنا وحامد أغلب مادتها ، وحاولنا الاتصال بالقاهرة ، فذهب الزميل حامد إليها لمحاولة العثور على خيط ، ولكنه وجد الأمور ممككة .. الضربات المتتالية قد فرقت العدد . ومن بقى من الناس أفراد فقدوا الاتصال ببعضهم فلا جامع بينهم ، وبسات في لوكاندة بالسيدة زينب فوجد نفسه مرافبا فنظاير بأنه يستخرج « فيش وتشبيه » وذهب ووقف في الصف نم تسلل وعاد انى بورسعيد ، ولكن لم يتأكد ان كان قد تمت مراقبته ومتابعته أم لا .

واحتياطا منا افترقنا في السكن .. ثم حدث بعد ذلك أن اعترض موجه اللغة العربية على تدريسه للغة العربية - مع أنه يدرس في المرحلة الابتدائية - بدعوى أنه ليس متخصصا ، فهو متخرج من كلية أصول الدين وليس من دار العلوم أو كلية اللغة العربية مع أنه درس اللغة العربية في الأزهر تسع سنوات - وهي أكثر بكثير من حيث مادة الدراسة في اللغة العربية مما يدرسه خريجو مدرسة المعلمين الذين يعينون بالمدارس الابتدائية .

كان الدافع الحقيقي وراء هذا الاعتراض هو آفة التعصب التي كانت تسيطر على بعض موجهى اللغة العربية ضد الخريجين من غير دار العلوم وكلية اللغة العربية بل كان هناك تعصب من خريجي دار العلوم ضد خريجي كلية اللغة العربية ، والعكس صحيح أيضا .

ترك الأستاذ حامد الموجي المدرسة الابتدائية اليونانية وبحث
عن عمل آخر ثم وجدته في مدرسة خاصة أخرى قضى فيها بقية
السنة الدراسية ثم عاد الى بلده في الاجازة الصيفية .

في المدرسة اليونانية كانت الفصول مشتركة بين الطلبة
والطالبات وكثيرا ما يتخذ بعض الطلبة من المدرس الذي يعجبون
به مثلا أعلى لهم . . . وحدث أن تعلقت بى طالبة فجعلت منى مثلها
الأعلى وحرصت على تنفيذ أوامرى ، وكانت حساسة لأى كلمة
نصدر عنى ، ولم أنبه لذلك . الا عندما أشعرتها مرة باستحسان
تخفيض وزنها عندما ناديت عليها بقولى : « يا تخينة » فما كان
منها الا أن قللت كثيرا من طعامها وبالقت فى ذلك فهزلت وكانت
وحيدة أمها وأبيها ، فضغطوا عليها لتأكل فرفضت وباحت لهما
بما قلته لها فجاءا الى وتوسلا أن أضغط عليها حتى تعود الى تناول
طعامها العادى ، فحدثتها فى ذلك وطلبت منها التوسط وعدم
المبالغة فاستجابت . . . كانت تشد والدها معها وتحوم حول المنزل
الذى أسكنه ، ودعونى لزيارتهم فى منزلهم وكان أبوها تاجرا
ببورسعيد .

كان الحاحها هذا قد ترك فى نفسى لها مكانا ، دفعنى الى أن
أحوم أيضا مرة أو مرتين حول منزلها وأن يكون شارعهم ضمن
شوارع تجوالى فى المدينة .

فى الاجازة الصيفية سافرت مع أبيها وأمها فى زيارة الى
اليونان على أن يعودوا فى نهاية الصيف عند استئناف الدراسة . .
وفى يوم سفرها صباحا ذهبت الى الميناء لأشاهد السفينة التى
حملتها وأودعها . . . ومن يومها لم أرها فقد اعتقلت قبل عودتها ،
وحين عادت لم تجدنى ، وحين خرجت من المعتقل بعد خمس سنوات

كانت قد غادرت مصر نهائيا الى اليونان قبل خروجي بقليل ولكنها تركت في قلبي الخالي ذكرى .

لاحت أطرافها بخواطري في ليالى المعتقل السوداء . . في معتقل القلعة كتبت قصيدة عنها ، حفرتها على جدران الزنزانة مع قصيدة أخرى كتبتها عن سفينة الفضاء السوفيتية . . ولكن لم يبق منها في ذاكرتي غير مطلعها الذي يقول :

أتذكريني كلما لاح لي ذكراك

وهفهم النيل العظيم على محياك . . أتذكريني

أثناء الاجازة الصيفية بقيت ببورسعيد أتردد على شاطئ بورفؤاد في كثير من الأيام ، وتسسلت مرة أو مرتين لأزور أمي واخوتي ليلا في قرية مجاورة ولم أنزل قريتي .

في سبتمبر عام ١٩٥٩ جاءني زوج أختي ليخبرني أن أخى أحمد قد قبض عليه كما قبض على زميل آخر من القرية هو عبد الحميد عبد الرازق ومعه أصول المجلة المعدة للطبع كما قبض معهما على الزميل الشاعر سمير عبد الباقي وتم ذلك بإرشاد أحد الأعضاء الذى أرهبته المباحث واستقطبته ليكون مرشدا لها .

أحسست أن القبض على يقترب وفعلا بعد أيام قليلة وفي الساعة الثالثة صباحا من يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٥٩ وكنت أسكن في الشقة الجديدة بشارع ابراهيم بالحى الافرنجى ، طرق الباب زميلى المدرس المصرى اليونانى « باسيلى حنا ناشد » فصحوت من نومي - كان يسكن معى بالشقة الصديق أحمد جوده وكان يومها مسافرا الى بلده « تلا » وبالصدفة بات معى ضيف جديد فى هذه الليلة وهو مدرس التحق بالمدرسة فى نفس اليوم وعزمت عليه ليبيت معى فالشقة خالية .

كانت مهمة الأستاذ باسيلى أن يدل المباحث على منزلى ويطرق الباب ويعرفنى أنه هو الطارق حتى أفتح وتتم عملية القبض فى هدوء .

انتهى دور الأستاذ باسيلى وتركوه ليعود الى منزله ودخلت القوة الشقة . . سألت : من أنتم ؟ أجابوا : نحن يا أستاذ سيد ضباط المباحث جئنا لتفتيش الشقة وأخذك معنا لوقت قصير . فسألت : هل معكم أمر تفتيش ؟ فردوا بالإيجاب .

قاموا بعملية التفتيش ولم يجدوا شيئا ، وأعددت حقيبتي وأخذتها معى ، فقالوا لا داعى ، قلت : الأحوط أن تكون حقيبتي معى فخبرتنى معكم تحتم على ذلك فقد سبق أن طلبتمونى لخمس دقائق فمكثت فى المعتقل ما يقرب من السنتين .

علمت بعد خمس سنوات حين خرجت من المعتقل وقابلت الأستاذ باسيلى أن المباحث بحثت عنى فى عدد من المدارس ، وحين وصلوا للمدرسة اليونانية وسألوا تطوع الأستاذ باسيلى بحسن نية وذكر لهم أنه يعرف سكنى فأخذوه معهم وأودعوه فى مكتب المباحث بقية النهار وجزءا من الليل ، فامتلا خوفا وفزعاً ، واستدعى هذا فى ذاكرته ما حدث له أثناء العدوان الثلاثى من استدعائه وسؤاله عما إذا كانت له صلة بالانجليز أو بعملائهم ، ولكنهم أعادوه الى منزله ونبهوا عليه ألا يخرج من المنزل فى تلك الليلة ، وحين حلت الساعة الثالثة صباحا ذهبوا اليه وأخذوه ليدلهم على شقتى ، وكان المنزل الذى أسكن فيه بالقرب من منزله وفى نفس الشارع ، وحين طرق الباب وفتحت له أطلقوا سراحه .

أخذونى الى قسم البوليس ومكثت هناك الليلة بمكاتب القسم ثم أودعت الحجز عدة أيام حيث علم أهلى فجاء أخى الحاج محمد ومعه بعض الأقارب وزارونى بصحبة أحد ضباط المباحث .

ثم جاء أمر القاهرة بترحيلى الى وزارة الداخلية ومنها الى معتقل القلعة .

معتقل القلعة :

القلعة بناء شيده صلاح الدين الأيوبي على طراز القلاع الصليبية مثل قلعة الكرك ببيت المقدس : وقد بناها كمدينة على شكل قلعة على جبل المقطم حتى يتحصن بها من بقايا الأسرة الفاطمية وأنصارها . فى مصر ، ومن الصليبيين فى فلسطين ، وقد أصبحت منذ ذلك التاريخ مقرا لحكم الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، وحينما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون عام ١٧٩٨ م ودخلوا القاهرة ، أقاموا بالقلعة حامية كبيرة لهم ، واستخدموها فى ضرب الأزهر والمدافع أثناء ثورة القاهرة الأولى عام ١٧٩٩ كما كانوا أول من استخدمها معتقلا للوطنيين .

وفى عهد محمد على قام ببناء توسعات واضافات للجناح الشمالى الشرقى ، كما أقام بها وليمة للمماليك ودبر لهم المذبحة الشهيرة ، وجعلها مقرا لحكمه ، واستمر ذلك فى أسرته حتى كان حكم الخديو اسماعيل الذى نقل مقر حكمه الى سراى عابدين عام ١٨٧٥ م .

وبعد احتلال الانجليز لمصر أقاموا بالقلعة حامية كبيرة لهم لاحكام سيطرتهم على القاهرة كما استخدموها سجنًا حربيا لجنودهم .

وفى عهد عبد الناصر استخدمت القلعة معتقلا سياسيا للشيوعيين والديمقراطيين والعقابين وأنصار السلام ، وبعد أن كان هذا المقر تاريخيا يعطى على القاهرة ويجذب اليه السياح،

والمواطنين لمشاهدة معالمة وشواهد ماضيه والاعجاب بعطره التاريخي .
أصبحت سمعته فى جزء منه كريمة وكثيرة ، لقد غدا شخصية
تشرف عليها المباحث العامة ، ومعتقلا للمناضلين المصريين ، ومحطة
تجميع وتوزيع على السجون والمعتقلات الأخرى فى الفيوم والواحات ،
كما كان مستودعا تستدعى منه المباحث من تريد التحقيق معه .

فى مسنهل عام ١٩٥٩ فتحت أبوابه الخلفية ليستقبل الدفوعات
الأولى من حملة الاعتقال البربرية التى شملت أخلص العناصر
الشريفة من الوطنيين ، ثم توالى الدفوعات الداخلة اليه والراحلة منه
الى المجهول .

هذا الجزء من القلعة له بوابة ضخمة ، خلفها فناء صغير يودى
الى باب لحجرة الضباط المناوبين والتى يتم فيها تفتيش المعتقلين
تفتيشا دقيقا ، ثم تسجل أسماؤهم وأماناتهم فى سجلات خاصة
وتقود هذه الغرفة الى باب آخر يودى الى زنازين وعنابر السجن .

بناء السجن غريب ، فقد جمع بين الماضى والحاضر ، فهو
يشتمل على دهليزين أو مستطيلين أحدهما أعلى من الآخر بثلاث
درجات ، وكل دهليز يضم عدة زنازين ، والدهليز الأعلى يلى حجرة
الضباط ، وبناؤه حديث ، وعلى جانبيه زنازين متلاصقة بكل
وزانة سرير ، وفى هذا الدهليز تقع دورة المياه الوحيدة ، أما
الدهليز المنخفض ، فهو يلى الأول ويتقاطع معه فى نهايته على
شكل زاوية قائمة وهو قديم تحت الأرض بثلاث درجات من عهد
الاستعمار الانجليزى ، يحمل طابع القدم وقسوة الماضى ، وتقع
على أحد جانبيه زنازين مساحة كل منها ٢ × ٣ متر وجدرانها
مصمتة ولكل وزانة باب مزدوج أحدهما من الخشب السميك
المطعم بالحديد به ثقب يتلصص منه الحارس على ما بداخل الزانة

والباب الآخر من القضبان الحديدية على شكل أعمدة متقاطعة ،
والسقف على الارتفاع به كوة ذات فتحتين مستطيلتين متجاورتين
تعلوها تعريشة خشبية ، وهذه الكوة هي المنفذ الوحيد للسماء
والهواء ، ومن تلك الكوة يتلصص الحراس على المعتقلين بالزنازين
من أعلى يحصون عليهم أنفاسهم وما يفعلون ، ويقال ان ثعابين
قد أسقطت على النزلاء من هذه الكوات ، وبكل زنزانة فتحة ضيقة
فى أحد أركان الحجرة تستخدم فى ادخال الطعام الذى يسمى
بالتعيين للسجين بدون الحاجة الى فتح باب الزنزانة .

وعلى الجانب الآخر من هذا الدهليز يمتد عنبران بطولهما
ويقع أحدهما فوق الآخر ، ويغطس العنبر السفلى تحت الأرض
بحيث يصبح مستوى أرض طرقة الدهليز فى مستوى شبائيك
العنبر السفلى ، وكل عنبر يتسع لعشرات النزلاء وهى من عهد
محمد على ، وكانت تستخدم فى التعذيب ، وطرقة الدهليز عريضة
ومبلطة ببلاطات حجرية .

كان سجن القلعة أقرب الى سجون العصور الوسطى ، اذا
استثنينا بعض العنابر الحديثة البناء .

زرت القلعة وأنا صغير مع أبى وأمى فقد كان من عاداتهما بعد
موسم جنى القطن أن يسافرا الى طنطا لزيارة السيد البدوى ثم
يوصلان السفر الى القاهرة لزيارة أولياء الله الصالحين : الحسين
والسيدة زينب والسيدة نفيسة والامام الشافعى .. الخ وزيارة
بعض معالمها ومنها القلعة .

فى احدى زيارتنا للقلعة اذكر اننى شاهدت طابورا من القوات
الانجليزية يقوم ببعض التدريبات .. كان الجو حارا ، وفتت

نظري وجوههم شديدة الحرارة .. ورأيت جنديا انجليزيا يسقط
على الأرض من شدة الاعياء والحرارة ، وقد أسرع زملاؤه لحمله الى
حيث اسعافه .

كانت مشاهداتي للقلعة مصحوبة بالدهشة والاعجاب لعظمة
ارتفاعها وما بها من مبان تتسم بالجلال وعظمة التاريخ وعطرها
ولا سيما جامع محمد على وقصر الجوهرة . كان ذلك وأنا حر
صغير .

أما في هذه المرة في سبتمبر ١٩٥٩ فلم أر مظاهر العظمة
والوقار لأن السيارة التي نقلتني كانت مغلقة فلم أشاهد ما حولي
في الطريق ، لكنني أدخلت فجأة على مكان له بوابة واسعة وممرات
ودهايز مخيفة ، بعد التفتيش وتسجيل الاسم والأمانات صحبني
عسكري الى زنزانة بالدهليز القديم المنخفض ترتفع درجة عن الطرقة
جدرانها مصمتة وشاهقة الارتفاع ضيقة وخالية من النوافذ سوى
كوة السقف .

أغلق الجندي الزنزانة خلفي .. كانت خالية تماما الا من
جردل للبول والبراز وجردل للماء ، وسرير مكون من حمالتين
(حمارين) من الحديد عليهما ألواح خشبية طويلة ، وفوقها مرتبة
قشرة من القش وبطانية .

مكثت بهذه الزنزانة ثمانية عشر يوما لا أخرج منها الا لمدة
عشر دقائق في الصباح ومثلها في المساء لدورة المياه وبصحبة عسكري،
وكان هذا يتم بين الزنازين بالتعاقب . فقد كان الحبس انفراديا
طوال اليوم كان كل نزيل يشغل الزنزانة وحده ، بل أحيانا كان

يفصل بين النزيلين زنزانة خالية حتى لا يتم بينهما حديث أو تبادل رسائل بالطرق على الحوائط الفاصلة بين الزنانتين .

حرمت من حرية التنقل أو الاختلاط بالزملاء الموجودين بالمعتقل ، لعل مؤانستهم والحديث معهم يخفف بعضا من المعاناة .. كنت أشعر أنني قادم الى سجن بناء الانجليز لكبت حرية المصريين واخضاعهم لسطوة الاحتلال ، وأننى أخطو نحو مستقبل مجهول .. كيف يتم ذلك فى ظل حكم مصرى وطنى !!؟

لم يكن هناك فى ذلك الوقت عدد كبير بالسجن ، فقد تم ترحيل الدفعات السابقة الى معتقل عزب الفيوم والى معتقل الواحات .

فى الدقائق المحدودة لمتح زنزانتى لم يتح لى أن أتجاوز المساحة الواقعة أمام الزنازين والممتدة لدورة المياه .. كانت العنابر المواجهة لصفنا خالية من المعتقلين فى ذلك الوقت ، ومع ذلك عرفت بعض الأخبار عن تعذيب تعرض له بعض المعتقلين ، كما علحت صدفة بوجود بعض الزملاء وكان منهم الزميل . والصديق المرحوم محمد فريد سيد أحمد وقد قبض عليه من وسط الحقول فى قريته التابعة لمركز السنبلوين ، ولفقت له قضية حيازة سلاح غير مرخص ، طوال فترة وجودى بالقلعة حرمت من الحمام ومن حلاقة الذقن ومن تغيير ملابسى فمكثت بالملابس التى قبض على بها ، ولكن الطعام لا بأس به ولم تكن هناك وسيلة لطلب شيء من الادارة سوى الطرق على باب الزنزانة ، والنداء على الشاويش ، كان مما يثير الازعاج طوال الليل حركة الحراس فوق السقف وطرقعة أسلحتهم وصيحاتهم (واحد تمام .. اثنين تمام) .

وفى لحظات سكون الليل القليلة كان يطرق أسماعنا من بعيد صرير عجلات الترام عند المنحنيات وغناء أم كلثوم أو عبد الوهاب من أجهزة راديو المقاهى السااهرة بحى القلعة والسيدة عائشة فتتهتز مشاعرنا لهذه الأصوات ويشدنا الحنين الى مظاهر النشاط هذه النابضة بالحياة والحركة وينسينا هذا الخيط من الحياة - لفترة - ما نعيشه من جمود وموات ، كنا نحيا فى خيالات الماضى الحية ما نتجاوز به مأساة خمول السجن ، وكان يقطع هذه الخيالات ويذكرنا قسوة السجن شعر مهران السيد الذى يطرق أسماعنا حين ينشده أحد المعتقلين من زنزانة قريبة يقول : أين المهرب .. ياعقرب .. يالصا أجرب .

كان بالزنزانة المجاورة زميل لم أكن أعرفه وهو : اكرام محارب ، حاول كل منا التعرف على الآخر والنسلى بالحديث معا من خلال فتحة ضيقة ليست مستقيمة على المثلث المشترك بين الركنين المتقابلين بين الزنزانتين ، لم يكن الواحد منا يستطيع رؤية أكثر من زاوية بسيطة من وجه الآخر ولكنه يستطيع ان يسمعه اذا اقتربا منها .. كنا أحيانا نتلکم ونتبادل ما قد سمعه أحدهما من نداءات أو اخبار أو قصص تعذيب قاسية تمت فى المباحث العامة بالضرب أو استعمال أدوات كهربائية أو كلاب بوليسية أو تغطيس فى مياه أو أصوات مزعجة أو اشعاعات مبهرة أو احراق بالسجائر .. الخ .

الحزن الخصب يدفع الانسان لأن يغنى للحياة .. هكذا تركت ساعات التأمل الطويلة فى الزنزانة العنان للذكريات وللخيال ، فانطلقت أقول شعرا وأكتبه بالحفر على جدران الزنزانة .. تذكرت الطالبة اليونانية التى أعجبت بمدرسها وترك الحاحها فى نفسه شيئا من الود والحنين رغم فارق السن فكتبت قصيدة عن فراق

الأحبة ولوعته وعن الصواريخ وسعينة الفضاء التي أطلقها الاتحاد
السوفيتي في ذلك الوقت مفتتحا آفاقا جديدة للعلم وللإنسان في
معرفة الكون المحيط بنا .

منذ قبض على وحنى نهاية فترة وجودي بالقلعة لم يحقق معي
ولم توجه الى أسئلة .

بعد ١٨ يوما في القلعة ، وفي المساء سمعت النداء بالاستعداد
للترحيل مع مجموعة من المعتقلين ، وفتحت الزنازين وخرجنا
لاستلام أماناتنا - لم تكن ساعتها نعرف الى أين الرحيل .

الفصل السادس

بداية التعذيب فى الفيوم

الترحيلة من القلعة للفيوم :

بعد تصفية الأمانات وفى منتصف الليل جلسنا فى صفوف متراصة فى ممر الدهليز العلوى ، ولساعات البرد تكاد تجمد أطرافنا ، ولم تكن ملابسنا الرقيقة بقادرة على حمايتنا منه والاحتفاظ بدفء أجسادنا .

كان الحراس يحيطون بنا ، والصمت يلف الجميع ، ولسان حال كل منا يتساءل .. الى أين ؟

ويقطع الصمت الرهيب ما هو أكثر رهبة وازعاجا ، سمعنا رنين الحجلات الثقيلة التى تشد العبيد بالوثاق ، وقيد كل اثنين فى كلابش داخل الحجلة التى تضم ثلاثين فردا ، وفى نهاية كل حجلة يربط عسكري بقفل ، وهذه المجموعة هى حمولة عربية من عربات السجون المغلقة .

ونسلمع صوتا من إحدى الزنازين يتناغم مع هذا الجو :

زقق الوابور على السفر .. أنا قلت رايحين فين

رايحين تغيبوا سنة .. والا تغيبوا اثنين !

وبدأنا نخرج من بوابة المعتقل كل مجموعة على حدة لنجد ضباطا وعساكر آخرين يتلقفوننا وترتفع أوامرهم وصرخاتهم المفتعلة ، وكل مجموعة تشحن فى عربة ، ونجد صعوبة شديدة حتى نتمكن من الجلوس داخل السيارة .

ومن خلال أوامر قائد الترحيلة عرفنا أننا ذاهبون الى معتقل عزب الفيوم ، وحذر القائد من أن أى تمرد سيواجه بضرب النار .

وتحركت قافلة العبيد يتقدمها ويسير وراءها رتل من اللوريان التى تحتشد بالحرس المسلح ، وفى المقدمة سيارات ضباط المباحث العامة وأيضا فى المؤخرة .. حالة طوارئ واستعدادات عسكرية كأننا مقدمون على معركة حربية ، لو تم مثلها فى المواجهة مع العدو الصهيونى لحققنا انتصارات متوالية على طول الخط ، ولكن الاستعدادات الخطيرة تلك قاصرة على أبناء الوطن الشرفاء ، وفى الطريق عند الجيزة وبعد الهرم وعلى مشارف الفيوم ترابط قوات أخرى ترافق الرحلة حتى تسلمها للقوة التالية ، بعد توقف لاعطاء التمام عن سير الركب .

هذه الترحيلة وان ذكرتنا بعمال التراحيل فى قرى مصر ، وهم يعانون الذل والسخرة مقابل قروش محدودة ، غير أنها تفوقها فى المهانة والاذلال والجهل بمداه . فترحيلة الفلاحين تمتد لشهرين أو ثلاثة ، أما ترحيلتنا هذه فلا أحد يعرف مداها ونهايتها ، ولا عجب فى ذلك فعناصر هذه الترحيلة يستشعرون ما يعانيه الفلاح والعامل الزراعى ، وكل ذنبهم . أنهم رصدوا حياتهم لتحرير الفلاح من السخرة والاستغلال ، وعتقه من ذل الرق وبؤس الترحيلة .. من هنا استحقوا من السادة أن تسلب حريتهم ويحرموا من الحياة ، وأن يصلبوا أو يقتلوا أو ينفوا من الأرض حتى تستمر معاناة الفلاح وتدوير قصة عمال التراحيل .

فى سرية تامة والناس نيام اخترقت القافلة شوارع القاهرة
الخالية الا من طراق الليل وبعض السابلة الذين يعودون الى بيوتهم
فى وهن من أعمالهم آخر الليل .

كانت الأضواء خافتة وسرعة السيارات تدفع لفحات الصقيع
لترتعش أجسامنا ، من يرفع يده ترتفع الأيدي كلها معه وتئن
السلسلة وتزجر ، واذا حرك أحدا يده بحركة لا ارادية التوى
معصبة وتورم وتورم معه معصم زميله وسرى الألم حتى يعجزا عن
الحركة .. حفر الانهاك بصماته على الوجوه الشاحبة الباهتة .

وكرد فعل للمقاومة والتماس الدفء ارتفعت الأصوات فى كل
العربات تغنى نشيد :

بلادى بلادى بلادى .. لك حبى وفؤادى

مصر يا أم البلاد .. أنت غايتى والمراد

ورغم صرخات وأوامر الحرس كانت الأصوات تزداد ارتفاعا .

بعد رحلة طويلة محاطة بالارهاب العملى والنفسى وصلنا مبكرا
الى معتقل العزب بالفيوم وانتظرنا فى العربات حوالى ثلاث ساعات ،
نعانى من ثقل الحجلة وضيق المكان وبرودة الفجر والخلاء والشعور
بالميل حتى حضر مع الصباح - فى الساعة الثامنة - ضباط
المعتقل .

نزلت كل مجموعة واصطففت على حدة ، وجدنا جوا يختلف
عن القلعة .. وجدنا وجوها متجهمة قاسية تعودت على الشتائم
والاهاانة ، قوبلنا بمعاملة قاسية وتحرش بالشتم والنسب ، ووزعنا
على العنابر .

فى معتقل العزب بالفيوم :

هذا المعسكر بناه الانجليز ليكون معتقلا للأسرى الايطاليين فى الحرب العالمية الثانية ، وهو أشبه بالمعتقلات النازية « أوشفيتز » و « بوخنوالد » التى أقامها النازى فى بولندا وألمانيا ، باستثناء غرف الغاز الشهيرة .

وفى عهد عبد الناصر تحول هذا المعسكر ليكون معتقلا لتجار المخدرات ، ثم أخلى منهم ليستقبل ما يقرب من الأربعمئة من الشيوعيين والديمقراطيين والاشتراكيين وأنصار السلام ، ومن أصحاب الراى والفكر الذين يختلفون مع راى الحكومة أو يؤيدونها من مواقف استقلالية بل وممن لا راى لهم .

المعسكر ذو طابع انجليزى يحيط به من كل جانب سوران من عروق الخشب الطويلة التى تملأ الأسلاك الشائكة فيما بينها ، وبين السورين منطقة محرمة تجوبها حراسة مسلحة يرتفع صراخها باستمرار ، واحد تمام .. اثنين تمام ، ويستمر النداء حتى آخر الحراس ليبدأ أولهم من جديد .

وعلقت على العروق الخشبية مصابيح كهربائية ذات أضواء شبحية تزيد من رهبة المكان ، وفى الأركان الأربعة وما بينها من السور ثبتت أبراج حراسة من عروق الخشب علقت عليها كشافات دائرية مبهرة تتحرك طول الليل لتكشف كل جزء داخل المعتقل من الأسوار والعنابر وما بينها ، وكذلك تكشف الأرض المحيطة بالمعسكر ، وبجانب كل كشاف جهاز مدفع رشاش سريع الطلقات معد للانطلاق فى أى لحظة ، وفى خارج المعسكر وعلى مسافة من بوابته توجد محطة حراسة أمامية تتحكم فى الطريق المؤدى اليه .

بوابة المعتقل من الأسلاك الشائكة ، وعلى يمين الداخل منها مباني الإدارة وحجرة السلاحيك وزنازين التأديب ، ثم أمام هذه المباني ما يشبه الفناء .

يلي ذلك صفان من العنابر تمتد بالعرض على الجانبين ، أربعة في الجهة اليمنى وأربعة في الجهة اليسرى يشكل كل منهما بلوكا مستقلا عن الآخر ، ثم يلي العنابر دورة مياه لها ثمانى فتحات بدون أبواب ، ويفصل بين البلوكين سوران من الأسلاك الشائكة بينهما منطقة حرام تجوبها الدوريات المسلحة لمنع اختلاط أو معاداة نزلاء أحد البلوكين للآخر .

والعنبر على شكل مستطيل بطول حوالى خمسين مترا وبعرض خمسة أمتار ، وسقف العنبر على شكل جمالون خشبى ، والحوائط بالطوب الأحمر الذى تغطيه الأملاح من الرطوبة والنشع وبكل عنبر عشرة شبابيك مسورة بأسياخ الحديد المتشابكة ، وليس بها زجاج ، وهى مفتوحة دائما ليل نهار شتاء وصيفا لتمكن الحراس من الخارج من مراقبة المعتقلين طوال الوقت .

رصت الأسرة داخل العنابر متلاصقة فى صفين متقابلين على امتداد الحوائط الطولية والسرير عبارة عن حمالتين (حمارين) من الحديد تعلوهما ثلاثة ألواح خشبية بالطول ، وعليها مرتبة من قش الارز الذى تجمد كالحجر .

باب كل عنبر يتوسط جداره المقابل لمبنى الإدارة ، ويوجد بجوار الباب جرادل البول ومياه الشرب .

عدد المعتقلين بالمعسكر ليس ثابتا حسب الوارد والرحل منه لذلك يتراوح سكان كل عنبر ما بين أربعين الى سبعين معتقلا .

ويغلق العنبر ثلاثا وعشرين ساعة فى اليوم مما ينتج عنه أن
تنفذ مياه الشرب ، وتمتلىء جرادل البول حتى تفيض على أرض
العنبر ، فتصبح رائحته بشعة لا تطاق .

لم تتغير ادارة المعسكر منذ أن كان يضم تجار الحشيش ،
وكانت الإدارة تستفيد منهم كثيرا كان الضباط لا يقل دخله اليومي
عن ثلاثين جنيها والعسكري العادي ثلاثة جنيها ، هذا خلاف
الهدايا والرواتب الشهرية ، وبذلك تحول وضعهم مع المعتقلين
إلى سياسيين الذين لا يملكون مالا - تحول الى كارثة أثارت الجحود
فى نفوسهم على هؤلاء السياسيين ، وزاد منه تعليمات المباحث
العامة بسوء المعاملة ، وتحريضها عليهم ، ومحاضراتها للضباط
والجنود ، ومزاعمها عن المعتقلين واتهامها لهم بالكفر و الإلحاد
وخيانة الوطن .

من هنا كان ابتداء المعسكر والإدارة للمعتقلين واستيلائهم على
أماناتهم وسرقة الطرود والغذاء بالاتفاق مع المتعهد .

وعرف من أسماء ادارة المعتقل قائده المقدم أحمد منير غالى
ويبدو أنه مرقى من تحت السلاح والملازم أول حمدى والملازم ثان
محمد حلمى العيسوى والصول همام والصول عبد العظيم والشاويش
ومحمد غيطاس .

اتسعت قوائم المنوعات فى المعتقل التى بدأت بالورقة والقلم
الذى يعد جرما كبيرا ، وامتدت الى حرية التنقل داخل العنبر
الواحد ، كان الملازم أول حمدي البدین يقول « كل واحد على
سريره » بمعنى أن ينام المعتقل ويجلس ويتحرك فى مساحة السرير
فقط ، والهمس بين زميلين ينالان على سريرين متجاورين مخالفة
جسيمة عقوبتها الجلب .

كان الجو في المعتقل متوترا بشكل دائم ، شتائم مفدعة من الضباط والعساكر الذين يتلصصون علينا من الشبايبك ويمنعون أى صوت أو حركة بالعنبر ، ويتصيدون بل يفتعلون أى شيء حتى يخرجوا عددا من المعتقلين لضربهم بالشوم وبالفلكة .

كما محرومين من المسحة ومن الشمس بل ومن الحركة ، وقد غبر فؤاد حداد الذي كان معتقلا معنا عن هذا الجو المأساوي فقال :

الصمت ينصت يا بوى للصمت بالساعات
ولا عمل للعيون واليد بالساعات
يارب يللى خلقت القمر والشمس
يارب طالب من الدنيا شوية شمس
يارب وسمعنى من البشائر همس
بالساعات .

كما يعبر عن الأمل في الحرية والانعقاد من اسار السجن في هذا اللحن الراقص :

يا سليمان يا قائم على أربع قوائم
اسمك من قوائم السجن انشطب
السجن انشطب

كما يعبر عن الحرمان والسخرية من غلو قيمة العمل اليدوى ، ويخس قيمة الشعر ليقول مطلقا على ما يحصل عليه الفنان زهدى من سجائر مقابل تماثيل يصنعها من لباب الخبز أو الجبس :

الله يلعن الشعر اللى ماله سعر فى العنبر
لو انحت جيس لاشرب بيبسى بالعنبر

لم يكن هذا الجو القائم هو الصورة الوحيدة ، بل كانت هناك صفحات من الصمود والمقاومة ونحدى هذا الارهاب ، كانت مباراه بين الادارة والمعتقلين الذين استطاعوا فى الفترة النى سبعت ترحيل لهذا المعتقل أن يكسروا حدة الارهاب ، فنظموا شبكة اتصال عبر النوافذ بين العنابر كلها ، وما يحدث فى عنبر من العنابر سريعا ما يعرفه سكان العنابر الثمانية فى نفس الليلة .. فرضوا حربة الحركة داخل العنابر كأمر واقع واستحضروا بعض الصحف والمجلات وبدأوا فى العنابر المختلفة تنظيم الجلسات والندوات الثقافية والترفيهية .. هذا يحكى بعضا من القصص العالمية والمصريه لهمنجواى ونولوخوف وجوركى وتشيكوف وتولستوى وطه حسين ونجيب محفوظ ... الخ وآخر يعرض مسرحيات لتوفيق الحكيم وبريخت وشكسبير ونعمان عاشور والريحاني وتشيكوف .. الخ وثالث يعرض بعضا من الأفلام وخامس وسادس يعرض كتباً لمفكرين عالميين واسلاميين كهيجل وماركس وانجلزولينين وفولتير والأفغانى ومحمد عبده والكواكبي وهناك من يغنى لعبده الحامولى وسيد درويش وعبد الوهاب ... الخ .

اتصلت المعارك مع الادارة ، فهى ان سككت يوما فاجأب المعتقلين بتصيد بعض الأسباب وافتعال أى مبرر لضرب هذا وجلد ذاك .. عثر أحد الضباط على بعض الأوراق فقام ومعه مجموعة من العساكر بضرب المهندس فوزى حبشى بالشوم وجريد النخل وجلدوه على العروسة حتى فقد الوعي ووصل الى حافة الموت ، وأحيانا تجمع الادارة مندوبى العنابر وتقوم بضربهم وجلدهم لتشجيع جو الارهاب ، حتى المرضى لم يسلّموا من الجلد والضرب بالشوم وجريد النخيل .

وأمام هذا الارهاب المتجدد استخدم المعتقلون من أساليب
الرفض والمقاومة الامتناع عن استلام الطعام .

فى يونيو ١٩٥٩ وأمام اصرار كل المعتقل على هذا الموقف
استغاث قائد المعسكر فى اليوم التالى بوكيل المحافظة ، فحضر معه
فرقة من العساكر ، وافتعلوا بعض الحركات والأوامر للارهاب
وفرض استلام الطعام ، واستخدموا كثيرا من وسائل الضغط
والتخويف دون جدوى ، وأمام الاصرار استجاب وكيل المحافظة
لبعض المطالب مثل تغيير المتعهد لتحسين الطعام واستلام الخطابات
وطرود الأغذية والأدوية من الأهالى ، ونقل الضابط حمدى والجاويش
عطاس من المعتقل وأوقف الضرب والجلد ، وحصل المعتقلون على
جزء كبير من المطالب الأخرى بالممارسة .. ورغم ذلك فقد كانت
هذه المطالب بين أخذ ورد ومد وجزر لم تنبت دائما على حال
واحدة .

حين وصلت الى الفيوم فى منتصف اكتوبر ١٩٥٩ كان جو
الارهاب قد خف نوعا ما ولم يحل بيننا وبين ندوات الحوار السياسى
والصراع الفكرى حول أزمة الحزب وما كان يعرف بالتكتل والانقسام
والموقف من الوحدة العربية ومن الطبيعة الطبقية للحكم ، وكما
نحتفل بالمناسبات المختلفة وننشد الأناشيد الجماعية الحماسية
والوطنية التى ترفع من معنوياتنا متحملين فى سبيل ذلك
ما قد ينجم من تكدير جماعى أو تعذيب فردى .

أحيانا كانت احتفالات العنابر الأخرى تصل إلينا ، كما كانت
بعض الأغاني تطرق أسماعنا من عنابر البلوك الآخر ، وفى سكون
الليل سمعت لحنا يمتزج فيه الشجن بالأمل فى غد يفيض بالحرية
والسعادة :

يا اىلى انب بينى وبينك سور . .

بكره العيون حتشوف النور

بكره يا روحى .. الهنا

حيفيضى على الدنيا

وقبل ما تفوت سنة

حعيش فى حرية

كانت خطابات أسرنا ممنوعة عنا والمسموح به فقط أن نكتب
فى الشهر مرة خطابا مفتوحا لا يتعدى القول بأننا بخير مع تحديد
مكان وجودنا ، وكانت هذه الخطابات تراقب بدقة حتى لا يخرج خبر
عما نعانيه من قسوة وحرمان وكانت الزيارة ممنوعة .

مكثت بالفيوم ما يقرب من الشهر تم فى يوم ٨ نوفمبر مساء
نودى علينا للاستعداد للرحيل ، ترددت فى العنابر أناشيد بلادى
بلادى بلادى لك حبى وفؤادى .

الفصل السابع

التعذيب والأشغال الشاقة بأبي زعبل

الترحيل من الفيوم والقشيفة على أبواب أوردى ليمان أبي زعبل :

فى معتقل العزب وفى الساعة الحادية عشرة من مساء
الامن من نوفمبر عام ١٩٥٩ نودى على أسماء الدفعة التى سترحل
كنا ١٤٥ معتقلا استعداد كل منا فارتدينا ملابسنا وأعدنا حقائبنا
بينما الأناشيد الوطنية والحماسية تتعالى فى كل العنابر ، ووقفنا
فى فناء المعتقل وقيد كل اثنين معًا كان معى فى كلبش واحد
المستشار سعيد الخيال ، وكل منا يحمل حقائبه ، وشحننا فى
اللوريات ووقف على الباب الخلفى لكل لورى عدد من الحراس
بأسلحتهم ، وبعد منتصف الليل تحركت الترحيلة يتقدمها ويسير
خلفها رتل من لوريات الحرس المسلح ومن سيارات النجدة
والاسعاف ويتم هذا تحت اشراف المباحث العامة .

وقد أخلى الطريق من المرور الا من قوات رابطة فى بعض
مواقعه لترافق الرحلة الغامضة الى حيث تسلمها للرباط التالى -
لم نكن نعرف الى أين تتجه بنا الترحيلة . . كنا نسر نحو المجهول

.. سارت الترحيلة فى انجاء القاهرة ولا أحد يعرف أنها متجهة الى
أوردى ليمان أبى زعبل الا عندما اقتربنا منه .

كانت السيارات مغطاة بكبوت من قماش تيل سميك .. كان
الهواء شديد البرودة وزاد من قسوته سرعة السيارات ودفعها
للكبوت فيصطك بحديد السيارة وتنصب كميات هائلة من هذا
الهواء البارد على أجسامنا الضعيفة التى لا تسترها ملابس ثقيلة
فتصيبنا بالارتعاش لم أستطع أن أتحمل قسوة البرد ، أحسست
بمغص فى جيبى وتملكتنى حالة قىء - أنا والكثيرون - طوال
الرحلة .

ومع الفجر وصلت بنا السيارات الى خلاء بالقرب من الأوردى
- الذى اعتقلت به فترة ٥٤ - ١٩٥٦ - كان هذا الخلاء يشبه ميدان
رماية لصرب النار ، أو ساحة اعدام .

أنزلنا - والقيود فى أيدينا - فى هذا الخلاء الذى تحيط به
بعض أكوام الطين والسباح والحجارة والزباله والذى تحاصره فرقة
من الجنود الشاهرى السلاح وجنازير تحمل المدافع الرشاشة وخيول
يمتطيها ضباط السجن ويختالون بها وفى أيديهم الكرابيج وكأنهم
فرسان فى ميدان حرب وأبطال مغاوير ! وعلى الأبراج رشاشات
مشهورة ، وعلى بعد دوريات متحركة ، كان الأمر مفاجئاً لنا ..
شلت عقولنا عن التفكير وتولت الغريزة مواجهة الموقف ، الأوامر
تتوالى بالجلوس القرفصاء وبخفض الرؤوس : اسكت يا ابن الكلب
.. وطى راسك فى الأرض يا ابن القحبة !!

ويعر عساكر وشاويشسية وصولات يأمرن وينهون مقونين
ذلك بالسباب والشتائم وضرب الشوم التى تقسم الظهور والأعناق

وبصيب الانسان بفقدان الوعي للحظات - استمر هذا العذاب عدة ساعات ، أحسبنا أننا مقدمون على مرحلة جديدة ومستقبل مجهول وغامض .

كنا في الفجر وكان البرد والصفيح يلفح وجوهنا ويجمد أطرافنا ، طالت علينا هذه الجلسة المرهقة فتملت أرجلنا وتململت أجسامنا .. تحركت في مكاني وبحركة تلقائية رفعت رأسي فوجدت بشومة تنزل على قفائي ففقدت الوعي وكدت أسقط مغشياً على ، وحين بدا مني ما يوحى بالتذمر تكالبت العصى على جسدي .

كان الجنود حولنا مدججين بكل أنواع الأسلحة والسجانة يحملون الشوم وعساكر الدرجة الثانية أو عساكر الكتيبة يحملون القوايش .

سمعت أصوات بروجي قذية لواء ، وبعدها ظهر كبسار الضباط ، لواءات وعمداء ورتب مختلفة بعضهم في الزي الرسمي وآخرون في زي مدني .

بدأوا أخذ التمام ، وبدأ ضابط يمر على المعتقلين لمعرفة ان كانوا يحملون أشياء ثمينة فيتناولها ويقوم كاتب بتسجيلها وتسجيل اسم صاحبها : ساعة يقال انها ماركة كذا .. قلم حبر يقال انه ماركة كذا نظارة يقال انها ماركة كذا ، دبلة يقال انها من الذهب .

كانت الشمس قد أشرقت وأرسلت بأشعتها الى المكان ، وبدأ يظهر لنا جزء من الطريق الصخري المترب الموصل الى باب الأوردي .

لم تكن نرى . ماذا أعد لنا أمام الباب لأننا كنا نجلس بعيدا بمحاذاة الجانب الشمالى من سور الأوردى ، وكانت الخطة تعتمد على المفاجآت فى كل خطوة بحيث لم تترك لنا الفرصة لتوقع ما هى المفاجأة التالية ، كانوا يسحبون اثنين اثنين ، وكان الباقيون لا يعرفون ولا يشاهدون ما حل بمن سحب ، فهناك منعطف فى الطريق الى بوابة السجن تنفصل بعده الرؤية عن بقية الفوج .

كنا لازلنا مقيدين ، كل معنقل مفيد مع زميله . بقيد حديدى ، وحين ينادى على كل اثنين معا يسحبان ، ويطلب منهما أن يحملتا حقائبهما - وهما مقيدان معا - ويجريا لمسافة حوالى كيلومتر ، ويتكرر النداء « اجر يا ابن الكلب !! » . نودى على وعلى الأستاذ سعيد الخيال وهو مقيد معى ، بدأنا السير ، كنت مقيدا بيد والآخرى نحمل حقيبتى ، وكان مع الأستاذ سعيد حقيبتين كبيرتين ، حاولت أن أساعده فى حمل واحدة منهما فرفض وحمل حقيبة فى يد وحمل الأخرى باليد المقيدة ، كان يتعثر فى الطريق بحقائبه وكنت معه أيضا . أتعثر بتعثره بالحمولة وبالقيد . . كان يجرى وراءنا عدد من العساكر يضربوننا بالشوم وكلما تعثرنا زاد الضرب ، كما كان يلاحقنا ضابط يركب فرسا يطاردنا ، وعندما يلحق بنا - وكثيرا ما يفعل - يضربنا بسوطه ويزحم علينا الطريق بخيله ، وأحيانا يقفز فوقنا - حين نتعثر - حتى كان يدهسنا ، وأحيانا يميل علينا فيدفعنا الى صعود أكوام السباح حتى نتفادى سنايك الخيل التى تكاد أن تنغرس فى أحشائنا ، وتتناثر حاجياتنا ونحاول أن نجتمعها ، بينما الضرب يتوالى وصراخ الجند والضباط وسبابهم لا يتوقف .

استمرت هذه المطاردة حتى وصلنا - ونحن نلهث - الى بوابة السجن ، وفوجئنا بفرقة أخرى من الجنود يحملون الشوم وعصى من جريد النخل ، البعض يفك القيد والبعض الآخر يلهبنا بالسياط

ونحن تنكسر العصي يجعل من يده الخشنة الثقيلة سيما يحز العنق ،
وهناك آخرون مشغولون مع الضرب بتجزيق ملابسنا الخارجية
والداخلية ، والنداء علينا بخلعها حتى أصبحنا عرايا كما ولدتنا
أمهاتنا ، لا ندرى كيف تم ذلك ، أمرونا مع الضرب بترك حقائبنا
والركوع أمام حلاق من المساجين الجنائيين الذى يجز الشعر بشكل
مشوه كما يجره للحمير - والضرب بالشوم لا يتوقف .

لم نكن هناك فرصة لالتقاط الأنفاس ورؤية ماذا سيحدث فى
الخطوة القادمة ، كل ما استطعت أن أراه خطفا مشهد عروسة
منصوبة على يمين البوابة وعددا من العسكريين على يسارها وعلى
رأسهم اللواء اسماعيل همت - وكنت قد رأيته قبل ذلك فى حملته
التتريية علينا عام ١٩٥٥ فى الأوردي ونحن مضربون عن الطعام
كان صوته يرتفع بالشتائم واصدار الأوامر بتشديد الضرب والتلذذ
من مشاهد العراة وتعليقات ساخرة ماحنة غاية فى الانحطاط ، كان
يقف بجانبه اسماعيل طلعت مدير اليمان وضابط المباحث العامة
صلاح طه ، وقائد المعتقل حسن منير كما عرفته فيما بعد ، وعدد من
الضباط ورجال المباحث وطبيب السجن .

كما كان هناك كاتب السجن يجلس الى منضدة ليسجل
الأسماء .

كان همت يتابع عمليات التعذيب ويشترك بانتقاء البعض
وجلدتهم على العروسة فيقيد الضحية عليها ويصبح ظهره أمام الجلاد
بدون مقاومة ، وكانت أداة الجلد عبارة عن يد خشب أو جلد بها
عدة ضفائر من الكتان المجدول والمغموس فى مياه مالحة جدا ، وكان
همت يضحك بصوت مسموع متلذذا من تعذيب الضحايا ولا يعف
عن تعليقاته الفاحشة عن أجساد العرايا .

بعد حفلة الخلافة قذف بى عريانا مصلوبا ملوى الذراعين بين
انين من العساكر الى بوابة السجن وأمامى وخلفى عساكر آخرون
يواصلون الضرب على الجسم العارى كيفما اتفق .

كان يقف على البوابة حيوان موحس ، انمجت من سلوكياته
أى ذرة من الانسانية وهو الضابط عبد اللطيف رشدى وقف بجسمه
الضخم وصوته المدوى يمارس الصرب وأقذع ألوان السب والشتيم
بلغة وثقة وحب فى التعذيب بتشكلى شاذ ليس له منيل ويشدد على
العساكر بمضاعفة الضرب كان ينافس الضباط الآخرين فى ابتكار
ألوان التعذيب وإطالة مدته لينبت لهمت ولأه وكفاءته البادرة
وليرضى ساديته المريضة .

وقف على باب الأوردي ومعه مجموعة من السجناء يواصلون
الضرب ، يطلب من كل معتقل أن يذكر اسمه مصحوبا بالشتائم المقذعة
واللكمات والصفعات ، وبعد أن يفعل يطالبه بالتكرار ويرفع صوته ،
ثم يطلب منه أن يقرن اسمه فى النهاية بكلمة « يا أفندم » وسواء
أصاب المعتقل فى ذكر اسمه وانهاؤه بكلمة « يا أفندم » أم أخطأ
أو لحن فعليه أن يعيد ذلك مرات وأن يرفع صوته لأن المطلوب هو
أن تطول حفلة التشريفه ويتضاعف العذاب والشتائم التى تتناول
الأم والأب والدين والأهل مما يندى له الجبين ، وفى حمى الضرب
وذكر الاسم على بوابة الأوردي كسرت نظارتى وتناثرت شظاياها
على الأرض .. غامت الدنيا أمام ناظرى ولم أتبين بوضوح
ما أمامى .

طلب منى أن أحمل نمرتى ، ورغم أننى دخلت السجن والمعتقل
قبل ذلك مرتين فلم أتبين المقصود لم أتعامل مع هذه المصطلحات
قبل ذلك .. كان المقصود بهذا المصطلح الغامض البرش الملفوف

أمامي وبداخله بطانية واحدة وملابس السجن وفروانة المنيوم ،
وتتكون الملابس من سروال وقميص أصفر ترابى يشبه الخيش
ومكتوب عليها نمرتى هذا بالاضافة الى دسكتة (برنيطة) للرأس
من نفس القماش واللون ووردروبة تشبه البردعة .

لم أكن أعرف أن الانسان فى هذا السجن - وقد انتزعوا منه
على البوابة اسمه - مطلوب منه أن ينسى هذا الاسم لأنه تحول الى
مجرد رقم من الأرقام .

فى أول يوم خرجنا فيه الى الجبل قال لنا عبد اللطيف
رشدى : منذ اللحظة عليكم نسيان أسمائكم ، أنتم هنا مجرد أرقام ،
أنتم الآن لا اسم لكم ثم رقموا ملابسنا .

ألغيت الأسماء الخاصة واندمج الجميع فى اسم واحد « كلب
ابن كلب ابن قحبة » !!

وحتى اكتشف المقصود بنمرى ، وأتبعناها أمامي بعد كسر
النظارة وزغلة العين ، وأحملها ، كان قد مر وقت نلقت فيه طريحة
مصاعفة من العصي والشوم والركلات والتستائم .

محمد السودانى عامل من ميت غمر لمح وهو يضرب دخانا
منصاعدا من مدخنة المغسلة فظن أن هناك أفرانا سيحرق فيها فخر
ساجدا ناطقا بالشهادتين ، فضربه عبد اللطيف رشدى بحذائه قائلا
له « قم يا ابن القحبة ، انت جاي تموت هنا » !!

كان استقبال الفرد الواحد يستغرق فترة من الضرب والتعذيب
وحين يحمل نمركه ويصبح داخل السجن لا يرى أحدا من الزملاء

الذين سبقوه ، ، وقد تصور بعض الزملاء أن هناك عمليات فعل
جثمانى .

لم تنته حفلة الاستقبال بحمل النمرة ، بل على المعتقل أن
يجرى الى العنبر المعين له ، وهو لا يدري أين يقع هذا العنبر ضمن
العنابر الستة التى يحتويها المعتقل ، وحتى يهتدى اليه يكون قد
نال طريحة أخرى من الشوم وجريد النخل من العساكر المنتشرين
بين العنابر ومن سجان العنبر الذى لا ينسى أن يضع بصمته على
الظهر الدامى .

استمرت حفلة الاستقبال حنى الساعة الثالثة بعد الظهر ،
ويتعجب الانسان كيف لم ينل التعب من هؤلاء وكأنهم كانوا فى
حفلة عرس يتلذذون بمشاهدها ومشاربها .

فى هذه الساعات الدامية لم يمتحن شرف وكرامة وأجساد
رجال هم من خبرة رجال هذا الوطن فحسب بل امتحن شرف مصر
الحديثة ، وسجل الجلادون بجريمتهم وصمة عار لطخوا بها تاريخ
مصر وحضارتها .

وصلت الى عنبر ثلاثة ، وحين دخلت تعثرت فى مصطبة الطريقة
فانكلمات على وجهى وجرحت ركبتىا ويدائى ووجهى وسقط البرش
وتناثر ما بداخله فنهضت وجمعت ما تناثر .

كان منظرا مضحكا مبكيا وشر البلية ما يضحك . . أتينا من
معتقل عزب الفيوم وكل منا يستر جسمه ويلبس بدلتة المدنية ،
فاذا بنا فى العنبر فى وضع آخر .

جسم عار بعوراته من أى ستر يستره ، يدخل العنبر فى حالة محمولة ، يراه من بالعنبر هكذا فيتملكهم الضحك ، وهو يراهم أشخاصا آخرين غير الذين كانوا معه قبل قليل ، يراهم مسخا من البشر ، لم أتعرف على أحد منهم ، فكلهم له نفس الوجه والملامح والملابس ، مجموعة من الجرحى تلتطخهم الدماء التى تسيل من الوجوه والأجساد يتلوون من كسور فى أطرافهم ، يلبسون بدلة السجن وهى هلاهيل بالية التصقت بالجسم الدامى عندما لامسته ، ليست على مقاس الواحد منهم ، فهى اما ضيقة محزقة واما فضفاضة واسعة يفرق فيها وهى اما طويلة طولا بينا أو قصيرة قصرا واضحا ، كأنها « شورت » يلبسون فوق بدلة السجن « وردروبة » تشبه البردعة للبحمار ويصعرون على رؤوسهم كاسكتة لها رفرف أمامى .

كانوا وقوفا ووجوههم الى الحائط ، لم أعرفهم فى البداية وظننت أنهم مسجونون جنائيون ولما حاولت أن أتفحص الوجوه التى أمامى ودققت النظر عثرت من بينهم على ملامح الفنان حسن فؤاد والفنان زهدى والشاعر فؤاد حداد .

... أسرع الى إربداء ملايس السجن التى حملها ، يساعديتى على محاولة التعرف على ارتدائها من سبقنى وارتيادها ، وانضمت اليهم فى تتبع كل من يدخل علينا بهذا المنظر الذى كنت عليه . أضحكنا وأبكتنا المأسى التى نراها .

فى عبر ٢ دخل الزميل منصور محرم بعد أن فقد نظارته ، فلما وجد الوجوه الغريبة ذهل من المنظر ، وظن من به مساجين جنائيين من عملاء الإدارة ، فأخذ يذكر لهم أن الحكومة تتحمل مسئولية وجودهم فى السجن وأن النظام الاجتماعى هو سبب نكبتهم ، وأنتا مناضلون ضد الاستعمار وندافع عن العمال ، وكان لأزال عاريا فقال له الزميل محمد فريد سيد أحمد : البس ملابسك يا منصور أنا محمد فريد ، فعرف أن من معه بالعنبر زملاء .

دخل « برق » العنبر وهو يصيح : هدمى .. أين هدمى ..
فقال له أحد زملاء : هدمك معك ، وأخذ يصرخ فى حالة ذهول :
هذه فاشية ولعن المتقفين والخط الوطنى .

لاحظنا أن أحدا لم يوزع على عنبر واحد ، ولم نعرف أن به
زملاء قضية د . فؤاد مرسى الا فى اليوم التالى وأنهم سبقونا الى
الأوردي بيومين - ٧ نوفمبر ١٩٥٩ - وواجهوا نفس الاستقبال
ولكن بشكل مخفف كثيرا .

كانت المعاملة الغالبة هى الشتائم والسباب .. انزل يا ولد -
اجر يا ولد ، اخلع ملابسك يا ابن الكلب .. ارم حاجتك يا ابن الكلب
.. اركز على ركبتيك يا ابن الكلب ، طأطا رأسك يا ابن الكلب ،
والعلاق يحز الشعر ، ثم أمام بوابة الأوردي ما اسمك يا ابن
الكلب .. ارفع صوتك يا ابن الكلب وخلعت ملابسهم حتى صاروا
عرايا .

حين لم يجدوا مقاومة نذكر للمهانة تحراوا وصعدوا التعذيب
فكل دفعة قالية كانت تلقى استقبالا أكثر شراسة وقسوة ودموية ،
حتى أنه أحيانا كان التصعيد يتم فى الدفعة الواحدة ، فأواخر الفوج
يعانى تعديبا أشد من بدايته حتى وصل التعذيب الى السحل
والقتل .

وهكذا تطورت جميع صور التعذيب وتضاعدت عملية التفتيش
داخل العنابر .. وفى طابور التمام .. طابور الرياضة .. العمل
فى الجبل .. طابور اليكم ، كل أشكال التعذيب تضاعدت .

ورغم أن دنيا السجون مقيتة فقد واجهنا حياة أشد مقنا
وبشاعة وأكثر سوادا ، بحيث تصبح دنيا السجون المعتادة نعيما
بالنسبة لما عانيناه .

فى الدفعة التى جاءت بعدنا من الفيوم بيومين ارنفعت جرعة تعذيبها فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل من يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٩ وصلت الدفعة الثانية والأخيرة من معتقل الفيوم وكانوا ثمانين معتقلا وضعوا جميعا فى عنبر واحد ، وفى الساعة الخامسة فبح عليهم باب العنبر ثم باب المعتقل وأخرجوا جميعا الى الساحة الخلاء لينالوا حقهم من تشريفة الاستقبال الذى فاق ما قبله حتى أصبحوا عاجزين عن الوقوف ، يعانون فقدان الوعي والانهاك البدنى وتجاوزت حالتهم كل احتمال .

كان التصعيد يعنى أن أحسن الأحوال هو ما مر ، أما الأسوأ فلم يحن ميعاده بعد .

كان العنبر كما تركناه فى يونيو عام ١٩٥٦ - وقد سبق وصفه - ونحن الآن فى نوفمبر ١٩٥٩ .

على المصاطب على جانبى العنبر كان كل منا يضع برشه ملفوفا وبداخله البطانية وعلى البرش توضع القروانة ، ويجلس على الأرض على حافة الطوار أمام نمرته فى المكان المحدد له بترتيب الأرقام كما هو بكشف العنبر دون أن يفرش البرش أو البطانية ، ويبقى البرش مطويا طوال النهار ولا يفرشه الا فى المساء .

هذه التعليمات ألقاها علينا أحد السجناء بعد أن تكامل دخولنا العنابر ، قال : بعد الخامسة مساء يفرد كل واحد نمرته والقروانة هى المخدة ، تحضرها معك لتتركها وتأخذ أخرى بها اليك وكذلك عند استلام يمك العشاء ، ومن يجلس على النمرة قبل الخامسة يعرض نفسه للضرب . مفهوم يا أولاد الكلاب ؟!

١٠ ومع ذلك فبعد الخامسة مساء في اليوم الأول - نظرا للمطرة الطويلة التي استغرقتها التشريفة - فتح باب العنبر ودخل الصول مطاوع ، نادى : انتباه ، ولم يتحرك أحد ، فتقدم خطوة داخل العنبر وقال : لما تسمعوا انتباه يقف الجميع بسرعة ، ومن لم ينفذ سيضرب بالفلكة والشومة ، وكرر النداء فوقف الجميع ، ودخل أربعة من السجناء العاديين يحملون جراكل اليكم للعشاء وصبوا لكل واحد نصيبه من اليكم في طبقه - وهذا اليكم هو سائل به بعض ثمار البطاطس بقشرها وقطعة من الجلد يقال انها لحمه ، ثم قالوا كل واحد له ثلاثة أرغفة في اليوم وألقوا بها على احدى مصاطب العنبر ، ثم قدم مسجون آخر طبقا صغيرا به قطعة من الجبن الأبيض محجرة كالجير للفقير في الصباح التالي .

في اليوم التالي فرضوا علينا نقل كميات من الحجر الجيري الوارد من محاجر ليمان طره وكانت ملقاة فوق شريط السكة الحديد حتى يفسحوا الطريق للناحية الأخرى من الجبل استعدادا لما كانوا يدبرونه لنا من أعمال شاقة في تقطيع البازلت في الجبل ، كان مطلوبا من البعض أن يحمل بعض الأحجار على كتفه ومن البعض الآخر أن يملأ مقاطف الكاوتش بالحجر الصغير ، وفي أثناء ذلك كانوا يتصيدون أي كلمة أو تصرف يصدر من زميل ليضربوه بالشوم ، طلب أحد المعتقلين من زميله أن يساعده في رفع المقطف فقال أربع شومات على كلمة « زميل » !!

كان للعنبر نوافذ مرتفعة عليها قضبان من الحديد ، وهي مفتوحة دائما وليس بها شيش أو زجاج وكان العنبر يضم ما يقرب من السبعين معتقلا . . كانت أعضاؤنا ترتجف من البرد القارص الذي يسرى من خلف هذه القضبان ، والذي قبع في الأرض الصلبة يتسلل الى أجسادنا من أقدامنا العارية اذا تحركنا ، ومن ظهورنا وجنوبنا اذا جلسنا أو استلقينا .

لم تكن المأساة في النوافذ والأرض الأسمنية فقط بل كانت أيضا في السقف الذي حللته الشمس والأمطار فأصبح كالغربال لا يصد مطرا ولا يعزل قيظا .

الهدف من التعذيب وخطته :

كان الهدف من التعذيب في أوردى ليمان أبى زعبل هو التصفية السياسية والفكرية والتنظيمية للشيوعيين ، وبشكل خاص تصفية أى شكل تنظيمى مستقل حتى ولو كان متجاوبا أو مؤيدا للحكومة لأن التسليم بحقه اليوم فى التأييد هو قبول بحقه مستقبلا فى الاختلاف فالمطلوب محو أى ارادة حاصه أو تنظيم خاص لا يكون من نبت وغرس الحكومة ، فهى تحتكر الفكر والسياسة والتنظيم ولا تقبل بغير الطاعة العمياء .

لقد دفع الغباء وعمى الألوان بالثورة الى هدم المعبد على نفسها فحطمت كل القوى التى تساندها والتى تعتبر رصيدها عند الأزمات ، وتصورت أنها وحدها التى تملك الحقيقة ، ورفضت أى حوار وأى اختلاف معها واحتكرت الحكمة وحدها ، جاهلة أنها بذلك تحفر قبرها بيدها وتسلم لأعدائها مصادر قوتها ، فهى فى انتصارها على الشيوعيين وكل القوى الوطنية والتقدمية والسلامية قد هزمت نفسها وكشفت ظهرها لعدوها ليتمكن منها ويصفى كل المكتسبات التى حققتها .

كانت مرحلة أبى زعبل هى قمة التصعيد فى حمى التعذيب ، فهى مرحلة التعذيب البدنى والنفسى الى أقصى الحدود ، مرحلة حياتك أو عقيدتك ، مرحلة القتل الفردى والجماعى ، مرحلة استرخى فيها الكابوس على صدر مصر ، فنشر الرعب والخوف

فى جميع أركان الوطن ، وقتل الروح النضالية عند كل مصرى ونشر السلبية واللامبالاة ، وذبح روح المبادرة والابداع ، وأجهر على كل رأى مستقل ، لقد اسود صبح النهار ونلطخ وجه التاريخ بالخزى والعار بارتكاب هذه المذابح الاجرامية فى أوردى أبى زعبل .

كان الارهاب المتواصل والانهاك البدنى والعزل الكامل وسائل اقتبسها المخططون للارهاب والجلادون من أساليب النازى لتحقيق التصفية السياسية .

يقول « كولن ولسن » فى وصف أسلوب رجال العاصفة الهتلرية فى معتقلات النازى : « فرض نظام سموه (لم يعد انسانا) فالانسان بالتعذيب والقهر المتواصل يتراجع عن انسانيته حتى حيوانيته أى الغريزة ، والغريزة هنا هى غريزة البقاء ، والتي تخنق ويمحو ما عداها من غرائز » .

أو كما ذكرت ملفات محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج : « تحويل الانسان الى كائن دون ارادة ، اذا ما كان قادرا على التحرك ، فهو يتحرك كآلة ، واذا ما عجز ليستقط فهو غير قادر على الاتيان بأى حركة أو انفعال ، يمكنك أن تطاء جسده فلا تهتز له شعرة لأن شيئا فى الحياة لم يعد له قيمة ، لا اعتراض .. لا صرخة .. لا ألم .. رجال دون انفعال أو فكر .. أجساد بدون أرواح » (١٠) .

ومن هذا المفهوم النازى الاستعمارى العنصرى تربى تلاميذ أغبياء وجلادون حمقى تجاهلوا أننا دولة نامية لازالت فى مرحلة

(١٠) الهام سيف النصر : فى معتقل أبو زعبل ، ص ١٨٦ .

البوره الوطنيه تكافح بقايا الاستعمار والاقطاع ، وتطورها رهن
بوحدها الوطنيه ، وتساند جميع قوى الشعب العامل لتحقيق تنميه
شامله تمحو بها الفقر والجهل والمرض ، وتنطلق الى رفع مستوى
الجماهر النى طال استعبادها وقهرها .

نسى هؤلاء الجالادون واقع وطننا وشربوا من آبار النازيه
فراحوا يفرقون الجماعه ويفتتون الوحده الوطنيه ويفككون النسيج
الوطنى ويطاردون الطليعه المناضله يؤدوبون بها الجماهير ، ويشيعون
فى صفوفها الرعب والفرع حى يكفر الجميع بأمانى الوطن فلا يفكر
أحد خارج حدود نفسه .

من هنا خططوا لأهدافهم ، وكلما فشلت مرحله لم يتملكهم
اليأس ، وانما واصلوا التخطيط لمرحلة أخرى مع ابتكار وسائل
جديدة . . اتنا لا نستطيع أن نبرى هؤلاء من علاقات مشبوهه
بقوى رجعيه فى الداخل واستعماريه فى الخارج ، وليس الهدف
ضرب القوى الوطنيه والتقدميه فى مصر فحسب بل محاصره وضرب
تلك القوى الوطنيه والتقدميه داخل الثوره نفسها .

كان التخطيط أن يشمل التعذيب البدن والنفس لانهاء
الانسان كإنسان والقضاء على المقاتل كإرادة .

فمن الناحية البدنيه كان الضرب والتجسيع والحرمان من
العلاج والانهاك البدنى بالعمل الشاق فى الجبل وطواير التمام
وما يسمى الرياضه واللف للتفتيش ، كما كان حسن منير يكلف
المعتقلين بأعمال مرهقه مذلله لنقل أحجار الجير الضخمه وكس مياه
الأمطار وتنظيف البكاپورتات وتنقيه رمال أرض المعتقل من الحصى
والحجارة ، وفى سخرية مخنثه يقول للمعتقلين : كل واحده من

هذه المهام يا أولاد صنعة سوف ننفعكم عندما تخرجون من السجن !

ومن الناحية النفسية :

١ - كانت المفاجأة التي تذهل العقل وتفقد القدرة على التفكير والمواجهة .

٢ - العزلة عن الأسرة والمجتمع وأحداثه والعالم وما يدور فيه ، فخطابات وزيارات الأهل ممنوعة والورقة والقلم والصحف والمجلات والاذاعة محرمة . . ويمند العزل الى النقابات والجمعيات والحزب والجمهير ، وهي الهيئات التي يستمد منها المناضل قوته والرثة التي يتنفس من خلالها ، بل يمتد العزل الى من يتواجد معه في المعتقل فممنوع عليه حتى أن يتحرك أو يحدث جاره في العنبر أو سجنه في المعتقل ، انهم يقتلون فيه الشاعر الوجدانية ويصيبونه بالجدب ويشعرونه بالنقص والتلاشي ، ويمحون عنه انسانيته وينمون فيه الجانب البهيمي لتشكيل هياكل فاقدة الارادة خاضعة ذليلة لكل ما تؤمر به .

٣ - المهانة والاذلال بالشتائم والسباب المقذع الذي يندى له الجبين .

٤ - التصعيد المتصل لكل صور التعذيب في الاستقبال والعنبر والفناء والجبل لزوع الاحساس بالتوتر الذي يفضي الى الاحباط والانهيار .

٥ - تحطيم القدوة باذلال وتحقير العناصر القيادية لنزع الهيبة عنها وافقادها القدرة على القيادة ، مما يسمح بتحليل النسبج التنظيمي وتحطيم روح المقاومة .

لقد خططوا لتصاعد التعذيب على ألا تتجاوز الجرعة الحد
الفاصل بين الحياة والموت مع الاستمرار أطول فترة ممكنة والحفاظ
على المعتقل في أسوأ حالة من الجوع والانهك .

كانوا يقدرّون أن يستمر الأوردي عدة سنوات كمعتقل
للتعذيب ، ولكن كانوا يقدرّون وتضحك الأقدار ، فلم يستطيعوا
الحفاظ على الشعرة التي تفصل الحياة عن الموت ، بل أغرتهم متعة
التعذيب فتجاوزوا الشعرة وقتلوا ، فكانت نهايتهم ومأساتهم !!

التعريف بجهاز التعذيب ومن لعبوا دور الجلادين :

كانت هناك جهات عديدة وعناصر مختلفة لعبت دورها ودفعها
الحقد والعداء للشيوعيين والاستراكية والديمقراطية ليس الى مجرد
القبض والتعذيب على من له صلة بهذه الاتجاهات ، بل التحول الى
عملية تأديب وتعذيب وقتل مستغلة في ذلك الظروف الهستيرية
والمناخ الذي صنعه الاستعمار والرجعية وعملاؤهما في اشاعة موجة
العداء للشيوعية وتحويل الخلاف الفرعي الى خلاف أساسي بين
الوطنيين .

كانت هناك عناصر في قمة السلطة كزكريا محي الدين
وعبد اللطيف بغدادى اشتركت في وضع الخطوط العامة لتعذيب
الشيوعيين يساعدهم بعض المستشارين من رجال المخابرات الأجنبية
الأمريكية « مالمزكوبلان » الذي عمل في فترة هذه السنوات
كمستشار لزكريا محي الدين للأمن الداخلي ومحاورة الفكر اليساري
وهناك آخرون كعبد الحميد السراج ، هؤلاء تقدموا بخبراتهم وحققهم
لدفع عجلة الانتقام .

كان زكريا محي الدين معاديا للديمقراطية والاشتراكية وممالئا
أبدا للغرب وأسلوب الحياة الأمريكية في عام ١٩٥٩ واتته الظروف
ليضرب اليسار ، وضرب معه القوى الديمقراطية كلها في مصر .

وفي عام ١٩٧٢ وقف ضد سيادة القانون وطالب بعودة وصاية
مجلس الثورة القديم وحل مؤسسات الشعب الدستورية ، ورسم
مشكلة مصر في بيان الجبهة الوطنية على أنها مشكلة الوجود
السوفيياتي ، وليس مشكلة الاحتلال الاسرائيلي لأرض مصر (١١) .

كانت هناك عناصر أخرى لعبت دورها في التخطيط والتنفيذ :
شمس بدران - صلاح نصر - حسن عليش - أحمد صالح - حسن
طلعت ، قائمة طويلة تجبرت وتصورت أن السلطة ستدوم لها
فانطلقت في أعمالها المخزية القذرة ، وهناك من وضعوا أنفسهم في
خدمة هذه المخططات بحماس زائد ، يدفعهم اليه نطاعاتهم غير
المشروعة في مناصب ومكاسب لا يستحقونها ، بعضهم اتخذ من
القانون رداء يبرر به قسوة مظالمهم ، وبعضهم هتك ستار القانون
متحصنا بقانون الغابة .. من هؤلاء : على نور الدين من النيابا
العامة وقد بدأ حياته في خدمة الملكية وفاروق ثم قدم نفسه في عها
الثورة خادما مطيعا ، حتى تم عزله لكثرة فضائحه .

ومنهم الفريق الدجوى رئيس المحكمة العسكرية الذي حك
بأحكام قاسية وغير عادلة ضد الشيوعيين ، هذا الدجوى انهار
وهاجم مصر عندما أسره اليهود أثناء عدوانهم وكان وقتها حاكما
لفزة .

(١١) الهام سيف النصر (في معتقل ابو زعبل ، ص ٤٥ .

وهناك الفريق هلال عبد الله هلال فائد المدفعية حاكم
الشيوعيين تم نسي أنه ضابط وقاض فترك المتهمين وهم على ذمته
فى أيدى المباحث ، يعلم ما يحدث لهم من تعذيب ويغمض عينيه
ويتهرب من رؤية زوجات المتهمين وأطفالهم وأهلهم وهم يستنجدون
بشرفه العسكرى وشرفه كقاض بعد أن حمل مسئولية القضاء ، ثم
حكم عليهم بأحكام قاسية تتنافى مع العدل والانصاف . . . ولكن
عدالة السماء كانت له بالمرصاد ، فلم تمض غير سنوات حتى عزل
من الجيش اثر نكسة ١٩٦٧ كأحد المسئولين عنها .

وهناك حمزة البسيونى فاد عمليات التعذيب فى السجن
الحربى ، ولكن جنبه وهروبه أمام العدوان الصهيونى قاده الى
السجن ولم تشفع له وحشيته وتاريخه الملوث بدماء الضحايا .

لقد اسأسد هؤلاء أمام الضحايا من أبناء وطنهم . . « أسد
على وفى الحروب نعمة » .

فليس غريبا أن يكون الجلادون جنباء أمام العدو المسلح
شجعانا والضحية مصرى أعزل وحيد أمام قطعان البربرية (١٢) .
لقد انكمش هؤلاء وكان مصيرهم مزبلة التاريخ .

واذا انتقلنا من التخطيط الى التنفيذ ، وبالتحديد الى المكان
الذى شهد اقصى ألوان التعذيب وحشية وبربرية ، وهو أوردى
ليمان أبى زعبل ، وقام بالاشراف عليه ضباط كانوا مؤهلين وعلى
استعداد كامل لتنفيذ المهمة - فاننا نستطيع أن نقول ان الأوردى

(١٢) الهام سيف النصر - فى معتقل أبو زعبل ، ص ٣٠ ، ١٣٠ .

يتبع مصلحة السجون من الناحية الادارية ، ولذا كان يجب أن تطبق فيه لوائح السجون التي تحدد حقوق وواجبات نزلائها .

وحيث أن مثل هذه الأوضاع القانونية في النظم الشمولية لا تحترم ، لذا وضع الأوردي تحت متابعة وإشراف المباحث العامة من خلال ضباط كانوا مستعدين ومؤهلين لأن يضعوا أنفسهم في خدمة أجهزة القمع والإرهاب ، ضاربين بلوائح السجون عرض الحائط .

ولقد وجدت المباحث العامة ضالتها في هذه المجموعة من ضباط السجون التي نفذت عمليات التعذيب بحماسة فاقت المخططين لها ، حتى تفوقوا في بعض الأمور على أساتذة النازي في معتقلات دخاد وبوخنوالد وأشفيتز .

ولا عجب في ذلك فقد استمر هؤلاء ثمانية أشهر متصلة يعذبون المعتقلين في أوردي أبي زعبل طوال الأربع والعشرين ساعة ، ويمارسون أساليب وحشية لم تخطر لأحد على بال ، يحدث هذا في داخل العنابر وفي طوابير ما يسمى بالرياضة ، في فناء السجن وحول العنابر وفي الجبل .. في الذهاب لاستلام اليك أو العودة منه .. حين يشكو أحدهم من مرض .. صورة بشعة لا يمكن أن يتصورها عاقل ، وقاموا بهذه الأعمال الإجرامية دون أن تنبض لهم ذرة من إنسانية ، بل ودون أن يملوا هذه القسوة أو تكل أجسادهم فكان كل منهم قد قد من حجر .

طبيعة شاذة لا يمكن أن تصدر إلا من شواذ انعدمت منهم القيم ومات فيهم الضمير وسيطرت عليهم حالات هستيرية من السادية والتلذذ بآلام البشر .

١ - كان المخطط والمفكر الأول وواضع خطط التعذيب والمشرف على تنفيذها هو اللواء حسن المصيلحي خدام في المباحث العامة منذ أن كان ملازما حتى رتبة اللواء ، فهو الوحيد الذي قضى خدمته كلها في جهاز حساس من طبيعته تغيير الضباط اذا ما تغير نظام الحكم أو اختلفت الظروف السياسية ولكنه عاصر الملكية وخدم في قسم مكافحة الشيوعية بالقلم المخصوص وتعلم على ابراهيم امام الذي أقام البوليس السياسى ، والجزار وتوفيق السعيد وخدام الملكية ، ثم استمر وتدرج في وظائف المباحث العامة بعد الثورة وزامل أحمد صالح داود وعشوب حتى وصل الى رتبة اللواء والمدير لإدارة مكافحة الشيوعية ثم المدير العام للمباحث العامة وفى نفس الوقت المستشار للأمن الداخلى .

رجل داهية ثعبانى قدير على حبك المؤامرات ، يبدو سلسا مرنا هادئا لكن فى مكرودهاء صوته منخفض وكلامه ناعم وحديثه مبتسم ، شخصية جذابة ، يصر على أن يقدم لك فنجان قهوة وسيجارة وفى عزمه أن يلقى لك التهمة التى تبرر الحكم عليك بالأشغال الشاقة ، فهو يقتل بقفاز حريرى ، يدعى أنه غير مسئول عن أعمال القمع والتعذيب وأنه ضد القسوة ، بينما يكلف غيره بهذه المهمة حتى يتجنب أن يضع أصابعه فى دماء الضحايا فلا تصبح مسئوليته مباشرة تخصص فى مكافحة الشيوعية وخدم أكثر من سيد ، ويبرر ذلك بأن عداءه للشيوعية عداء فكرى ، وهو مغرور يتفاخر بأنه لو كان فى كوبا لما كان هناك كاسترو ، ولما وجد حزب شيوعى ، ولو كان فى فيتنام لما شهدت حزبا كحزب هوشى منه ، ولما شهد جنوب شرق آسيا انتشار الفكر الشيوعى ، يزعم أنه يعرف معظم الشيوعيين المصريين بالأسماء والملامح معرفة تكاد تكون هواية وأنه راقبهم بنفسه ، وكان مرشدوه على صلة شخصية به فقط .

ارتبط اسمه بالتعذيب والالاحاح على استكتاب الاسننكاراات وخارب وتآمر حتى آخر لحظة ليؤخر الافراج عن المعتقلين والمسجونين الشيوعيين ، ودفعه غروره والقوى الداخلية والخارجية النى تسانده لان يتحدى السلطة التى خدمها ، ورغم حذره لم يستطع أن يبقى بعيدا عن عمليات التعذيب التى كان يأمر بها حتى انتهى به المطاف الى النقل لمصلحة الجوازات عقابا له على تحديه لأوامر عبد الناصر بالافراج عن المعتقلين ومحاولة التهرب من تنفيذها ، ثم هرب الى جنيف بسويسرا ليعين فى منصب كبير بشركة أجنبية كبرى ومشبوهة يصعب أن يناله مصرى لا يتقن اللغات الأجنبية ولا يعرف شيئا فى الصناعة أو التجارة .

٢ - كان على رأس الجلادين أيضا اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون ، وهو الذى أشار الى اختيار الأوردي وصلاحيته لتصفية الشيوعيين .

واذا تعرفنا على ملامح شخصيته فلن نعجب من شذوذ أعماله ، فهو طموح ولكنه يريد أن يحقق طموحاته لأعلى المناصب لا عن طريق الترقى العادى بل بالطرق غير الشرعية ، واختار أقدرها وهو أن يصبح جلادا للمعتقلين السياسيين ، وهو شخصية محدودة الأفق مجنون بالمظاهر ، لا يعرف الثقافة ولا يحبها ، وحفل تاريخه بعمليات غير نظيفة ، فقد أحرق كتب المسجونين السياسيين بسجن جناح بالوحدات الخارجة قبل نقلهم للسجن الجديد بالمحاريق ، كما أحرق خيامهم وملابسهم واعتدى عليهم بالضرب ، وقبل ذلك قاد حملة تترية على المعتقلين بأوردي ليمان أبى زعبل فى يوليو عام ١٩٥٥ واعتدى عليهم بالضرب ، وكنا مضربين عن الطعام فى اليوم التاسع ودمر حاجياتنا وسمح للعساكر بنهب ملابسنا وبطاطينا ونظاراتنا وبقية حاجياتنا ، وجلد الكثيرين منا - وكنت واحدا منهم - وتكسرت

عظام بعضنا وتلطخت أجسامنا بالدماء ، وشحن المضربين عن الطعام الى زنازين التأديب بالليمان ، كطاقم بحملات التعذيب الوحشية والمتعددة بأوردي ليमान أبى زعبل وليمان طره وسجن الواحات الخارجة بالمحاريق أعوام ٥٩ - ١٩٦٠ .

وهو شخص ناعم الصوت رفيق الجسد أحمر الوجنت تركى الملامح والجذور ، شديد القسوة في معاملته للرجال ، وكان بينه وبينهم نار ، ولديه ولع مجنون بتعذيب من يتوسم فيهم رجولة مكتملة ثم الإصرار على أن يقول الواحد منهم بأنه امرأة . . حكايات تروى عنه بانتماؤه الى الجنس الثالث الذى هو ليس بين الرجال أو بين النساء .

وهناك نظرية عن التفسير السيكولوجى للتشخصية النازية تقول : ان مثل هؤلاء غالبا ما يعانون من سُذُوذ جنسى يؤدى بهم الى كراهية عميقة لأنفسهم وللناس وللحياة ويعيشون دائما فى حالة انتقام .

يكاد الدم يتفجر من خدود همت الحمراء المكتنزة ، وهو يضحك بينما جسده كله يهتز ونحن نخلع كل ملابسنا لنقف عراة أمامه .

كان الدكتور محمود القويسنى ضابطا فى سلاح الفرسان حتى سنة ١٩٥٤ ، وكان اسماعيل همت أيامها قد فصل من الجيش لمسائل أخلاقية فى بداية ثورة ١٩٥٢ ثم أعيد ضابطا فى مصلحة السجون وكان الدكتور الويسنى يعرفه جيدا ويعرف نقاط ضعفه ، وطالما تذلل اليه همت لبتوسط له لاعادته الى الخدمة (١٣) .

(١٣) د . فتحى عبد الفتاح شيوعيون وناصريون . ص ٨٦ - ٩٩ .

أراد أن يحقق طموحاته بعذيب الشيوخ ، ولكن انتهى أمره الى الاستيذاء بعد استشهاد شهدي عطية .

٣ - **الرائد حسن هنير :** مأمور الأوردي أنيق المظهر وجهه أبيض سمين ، ممتعض لا يبتسم ، ينظر الى الدنيا باستعلاء ، يلبس بنطلونات محدقة ونظارة سوداء على عينيه ، ويستقر الكاب النازي على رأسه ، صوته ثعباني ناعم ، لكن في أعماقه وحشا ساديا ، مجنونا ، مخنث ، يحمل كل جنون وذكاء القاتل المريض نفسيا ، يأمر ويتابع عمليات تعذيبنا الوحشية دون أن تختلج له عضلة ، يقتل ويتهم القتل بأنه هو القاتل ، كان المنفذ المخلص لخطط التعذيب .

بعد مقتل شهدي وأثناء التحقيق حاول أن يتهرب من مسئولية القتل والتعذيب ، فدخل الى الحمام ونزل بآلة ثقيلة على ذراعه فأحدث بها كسرا وقام بتضميد ذراعه ودخل الى المحقق وذراعه معلقة الى رقبته ، يدعى أن شهدي اعتدى عليه وأحدث بذراعه كسرا فاضطر العساكر الى الدفاع عن مأمورهم ، وفي معركة الدفاع هذه قتل شهدي دون تحديد من القاتل من بين هؤلاء العساكر ، وانتهى التحقيق بنقله الى مصلحة الحدود .

٤ - **الرائد عبد اللطيف وشدي :** وكيل السجن طويل ضخيم الجثة وحشى المعاملة بارد النظرات ، لا يبتسم ، تصدر الأوامر من يده أكثر من فمه ، فارس ماهر لا يأبه بحرقه الشمس ، يستطيع أن يظل على جواده عدة ساعات ، ينفذ ما يطلب منه بصرامة وقسوة دون انفعال وهو رجل التعذيب الأول ، الحراس يخشونه ، ومجرد وجوده يضاعف التعذيب ، لم أتمن شيئا كما تمنيت - ونحن في قمة التعذيب - أن أضع رأسه في الأرض وأسحقها حتى يسكن

للأبد . . أثناء التحقيق فى مقتل شهدى بدت عليه علامات الانكسار وضاعت سطوته ، حاول التقرب من المعتقلين محاولا تبرير اجرامه بأنه كان ينفذ تعليمات ولكنهم أعرضوا عنه .

بعد التحقيق نقل مأمورا لأحد مراكر أسيوط ، وحاول هناك أن يمارس أسلوبه الوحشى فى المعاملة الذى لم يختلف عن سلوكه وهو ضابط سجون فلقى هناك مصرعه على يد أبناء المركز فقد ضرب رجلا - له مكانته - على رجليه أمام قريته ، فدبرت له القرية هجوما على المركز الذى يسكن فوقه بعد منتصف الليل ، وصعدوا الى مسكنه وقتلوه وقيدت الحادثة ضد مجهول .

٥ - النقيب مرجان اسحق : صوته ناعم رفيع وحركاته ملساء مؤنثة . . شعره طويل مجعد بقصة ، أظافره لامعة . . وجهه يخلو من شعر الذقن وشعر الشارب ، جسده مسترخ دائما حتى وهو على جواده يهتز وكأنه يركب جملا . . ملابسه أنيقة غارقة بروائح الكولونيا يلبس دائما بيرييه كاكى ، خجول يخفى خجله بصراخ حاد وأوامر متشنجة بالضرب والعنف المستمرين ، لا يهابه السجناء ، ولكن غضبه مفاجئ ، وأوامره عنيفة ، اشترك مع زملائه فى عمليات التعذيب والقتل دون أن يشعر بالندم .

٦ - الملازم أول يونس مرعى : نحيل وطويل يبتسم ويضحك ويقهقه ويصرخ فى نفس الوقت فى صوت هستيرى وكلمات نابية ، مستهتر سبق ضبطه فى غرزة حشيش ، يحقد على كل من يحمل شهادة علمية ، كان لاعبا بالفريق القومى لكرة القدم وهو الذى قام بضرب الدكتور فريد حداد حتى الموت .

٧ - السيد منصور : ضابط فى سن الثلاثين ذو جسم قوى رياضى أسمر خمرى يلبس فى رسميه جلدا مطعما بالحديد النيكل

الأبيض اللامع ، لم يوجه اليه أحد اتهاماً أثناء تحقيقات النيابة في مقتل شهدي ، سماه البعض واحة الديمقراطية ، لعدم تورطه في الحماس للتعذيب ، ونحويله الى اجراء شكلي حين ينفرد بقيادة المعتقل أو الجبل . . كان أسلوبه الهادئ العاقل شذوذاً في هذا الجو الوحشي المجنون وقد فسر البعض سلوكه بأنه مجرد غطاء يخفي العفن أو أسلوب أمريكياني في تقسيم العمل ، شخص يعذب وآخر يتبرم ويتأفف من التعذيب .

أما السجانة فابهم يختارون ممن لهم ملفات مليئة بتهم وجنح وجبايات الاعتداء على المسجونين حتى يتعادوا خطر التآثر بالمعتقلين . فهم يختارون من أسوأ السجانة شراسة وخلقا وجهلا وانحرافا . وأغلبهم من مدمني المخدرات .

ومن أجل ضمان استجابتهم لأوامر التعذيب أقيمت لهم مدرسة وأعدت لهم المحاضرات ، واستغل جهلهم لحشو عقولهم بأن هؤلاء المعتقلين خونة وملحدون وكفرة ويهود وليسوا مصريين ، قدمهم حلال .

وبسبب تعبئتهم وتحريضهم وبسبب الخوف من المأمور والضباط والصول استجاب السجانة لأوامر التعذيب ، فشارك بعضهم فيه بحماس ، بينما كان القليلون يتحينون الفرص للمشاركة الشككية .

كان الصول مطاوع من أكثرهم حماسا للقسوة ، ويحمل ملفه عدة جرائم خطيرة أساسها الرشوة والشذوذ الجنسي وادمان الأفيون .

بعد جرائمه العديدة فى أبى زعبل واستشهاده شهدى نفل بعد فترة الى الواحات وهناك قاطعه الزملاء ، مما كان له أثر رهيب على نفسيته ، ثم أصيب بانفجار فى الزائدة الدودية وأصبح فى حالة خطرة لا تتحمل نقله الى المستشفى ، ولم ينقذه من الموت سوى زميلنا الدكتور حمزة البسيونى فقد أجرى له جراحة عاجلة فى بطنه بأدوات بدائية دون بنج ، وخاط بطنه بإبرة وخيط عاديين ، ولكن الزملاء واصلوا مقاطعته ، فلم يحتمل ، وطلب من المأمور نقله الى سجن آخر وقام بإجازة مرضية ثم خرج الى المعاش وتوفى بعد ذلك بمدة قليلة .

وكان العساكر عبد السلام المتريس - عبد الصادق المجنون - الجاويش عبد الحليم عوكل والأمباشى عبد اللطيف والأمباشى حسن عليوه ، ومن العساكر أيضا : عايد عبد الله - أبو الوفا دنجل والعسكري دومة .

لم يكن الضباط والسجانة من الأسوياء ، انما كانوا مجموعة من الشواذ تتسلط عليهم السادية ، وتناثرت قصص شذوذهم بين الجنود .

لم يكن من المعقول أن يفهم بمثل هذا التعذيب انسان طبيعى .

كان يحلو للبعض منهم أن يمر على العنبر ويطلب من الجميع الوقوف ووجوههم الى الحائط ، ثم يقف وراء كل واحد ويسأله عن اسمه ومنصبه فان وجده ذا شأن شتمه وضربه على رأسه متباهيا بذلك بل وأمره ببعض الأعمال الشاقة .

فى أحد الأيام مر يونس مرعى على عنبرنا - عنبر ٣ - وأخذ يسأل حتى وصل للدكتور لويس عوض فسأله عن اسمه فقال له :
دكتور لويس عوض فعقب يونس مرعى : « دكتور ايه يا ابن القحبة »
ثم سأله عن وظيفته ، فقال له : مستشار بوزارة الثقافة • فضربه
وطلب منه أن يأخذ جردلا ويمسح العنبر •

صور من التعذيب فى يوم كامل

التفتيش داخل العنابر وكيف تطور :

إذا كان اليوم يبدأ رسميا فى الأوردي بالنسبة للإدارة فى
السابعة صباحا حينما يفتح باب العنبر ويصرخ الشاويش
« دوغرى » ، فهو بالنسبة للمعتقلين يبدأ قبل ذلك بساعات مليئة
بالقلق والتوتر مع اشاعات الفجر الأولى ، بل هو يبدأ عند البعض
قبل ذلك متوغلا فى ساعات الليل السابقة حين يجفون النوم عيونهم
من شدة الجوع والبرد ، ويصبح الليل طويلا مشحونا بالخوف
مما سيأتى به النهار •

الفجر بالأوردي همجية غادرة تبحث عن صيد خلف القضبان،
موت متحضر بالبواب ، مجهول كالغول ينشب أنيابه فى الأبدان ،
الفجر هناك بلا تفاؤل ، الفجر تساؤل : الام يدوم الحال ؟
وما المال ؟!

لكن الجميع لابد أن يستيقظوا مبكرين من نومهم المكدود ،
لابد أن يكونوا على أتم استعداد لطريقة التفتيش والضرب ، فينهض
كل فرد بما يلزمه ، وينهض العنبر كله بأعداده وتنظيفه حسب

التعليمات . . . لذا ينزاحم سبعون معتفلا بالعنبر على مرحاضين ليقتضوا حاجتهم بسرعة ويغتسلوا دون صابون أو مناشف وقد يقل الماء أو ينعدم - أما عن الفطور فالكثيرون لا يجدونه لأنهم تناولوا طعام اليوم كله مرة واحدة بالأمس - وأنا واحد منهم - وعليهم أن يتضوروا جوعا حتى ميعاد حضور الغذاء ، ولا يوجد سوى أفراد قليلين أسرع كل منهم الى قضم كسرة خبز وبقية من لحسة غسل مشربة بالفنيك أو قطعة جبن عطنة أخفاها في بطانيته من اليوم السابق يخطف ذلك خطفا .

وعلى من بالعنبر أن يسرعوا في جمع الأطباق وغسلها وكنس العنبر ورشه بالماء ، ثم يلف كل معتقل برشه ويدخله يطبق بطانيته وفوقهما يضع قروانته وطبقه مفسولين ويرص كل ذلك بنظام أمام نمرته ثم يجلس أمامها على طوار الرصيف حتى يسمع صرير بوابة الأوردي وهي تفتح في السابعة ، ونداءات التمام تتوالى عالية كنصيق البوم ، في هذا السكون ، معلنة يوما جديدا كثيبا من الآلام لا يعرف أحد من سيكون من ضحاياها .

الكل ينتظر في توتر ، يفتح باب العنبر . . . يزعم الشاويش « دوغري » ، فيقف الجميع كل أمام نمرته ووجهه الى الحائط ، وفي لحظة ينسحب الى داخل العنبر عدد كثيف أكثر من عشرين مهاجما هم خفر الليل وحراس النهار والسجانة والصنول والضابط النوبتجي ، وهم يحملون العصي والشوم وجريد النخل وأحيانا يصاحب المأمور هذا الحشد فيتضاعف الضرب .

لقد تطورت عملية التفتيش داخل العنابر من تفتيش الفراش الى إثارة الفوضى في كل شيء ثم التفتيش مع الضرب ، ثم التفتيش الذاتي مع خلع الطاقة وفتح الفم ثم التفتيش مع الانحناء نحو الحائط

ليكون الظهر والرأس والقفأ جاهزا للضرب بالشوم والقوايش ،
ثم الانحناء واللف للتفتيش ، ثم اللف والدوران السريع المتصل مع
الضرب فى أى موضع بطريقة عشوائية والشتائم والسباب البذئ ،
ثم نسمع « انتباه - قف » فيتوقف التفتيش .

وفبل أن تصبح هذه التعاليم المتطورة روتيننا يوميا فوجئنا فى
أحد الأيام بدخول الصول مطاوع العنبر ومعه مجموعة من الحراس
والسجانة يعلمنا مراسم التفتيش داخل العنبر وينذرنا بأن من
لم ينفذ هذه التعاليم سيجلد على العروسة .

صاح للخلف در ، وهنا انهال العساكر الذين انتشروا فى كل
العنبر بالضربات بالجريد والشوم والآكف والأحذية الغليظة على
كل جزء من أجسامنا وهم يصرخون : اسمع كلام حضرة الصول
يا ابن الكلب .

ثم أوقف الضرب لينادى : لما أقول تفك الحزام تفك حزام
بنطلونك فورا ، وتقف على كعب قدمك اليمنى ، ثم تركع وعند
سماع نداء لف للتفتيش تلف وانت راكع على كعب رجلك بأقصى
سرعة ممكنة ، وأوما للسجانة فانهالت عمليات الضرب من جديد ،
ثم أوقف الضرب ليكرر التجربة وعد حتى ثلاثة فبدأت عملية اللف
للتفتيش مع الضرب على القفأ والرءوس والظهور والكل يمسك
بدكة سرواله ، وتصادمت الرءوس وداخ البعض فارتدى على الأرض
وسقطت بعض السراويل وانكشفت العورات بين ضحكات وقهقهات
المأمور وضباطه ، ويعجب المأمور بالمشهد فيأمر مطاوع أن يعيد
التجربة لأن بعض المساجين لم يتقن التمرين !!؟ ويتصاعد الضرب
وتتضاعف معدلاته ولا يتوقف الا عندما تسمع « انتباه - قف » .

ولكن هناك جرعات اضافية لاي عنبر ضبط متلبسا بجريمة الحديث أو الضحك ليلا فينكل به لأنه مارس الخلاعة وانتهك هيبة الأوردي ، وينتهي الحصاد بجروح وكسور ولكن دون علاج .

وامعانا في الارهاب والتعذيب يحاول الضابط أن يلتقط شخصا أو أكثر بأي حجة يفتعلها ليضربه بالفلكة أو يخرج من العنبر ليتكفل به بعض الجنود لكديره ، وإذا صرخ يزيد له الصرب ليرهب به الآخرين ، أما إذا صبر ونحمل تركه حتى لا يصبح قدوة يثير روح التمرد داخل المعتقل .

وبعد أن نتم هذه الحلقة الصباحية يقومون بحصر عدد المعتقلين ثم يخرجون ويغلقون العنبر .

طابور التمام والتهاف :

بعد التفتيش والضرب داخل العنابر في وجبة الصباح نخرج الى فناء السجن بين صفين من الجنود حراس الليل وجنود النهار يطاردوننا بالضرب والسباب ، وهم مزودون بالشوم والقوايش وقحوف النخيل وسيور السيارات حتى نصطف على شكل مربع في فناء السجن وكل سجان أمام عنبره ، ويقف قائد المعتقل وضباطه في وسط المربع لتلقى تمام الصباح ثم يبدأ التهاف للجمهورية .

ثم يعود المعتقلون الى عنابرهم جريا بين نفس الصفين من السجانة يتلقون نفس التحية ، وتنتهى بذلك مهمة حراس الليل ، فيذهبون الى عزبة السجانة ولا يبقى في الفناء سوى عنبر واحد وهو الذي عليه الدور في طابور الصباح .

أحيانا كان العنبر لا يأخذ مكانه فى مربع طابور التمام الا بعد أن يطاردونه بعد خروجه من العنبر فى الفناء وفى طرقات المعتقل بين العنابر ، يلفون به المعتقل كله وينهال عليه العساكر بالشتائم والسباب والضرب العشوائي بكل ما فى أيديهم وفى كل اتجاه ، ثم يستقرون به فى طابور التمام بعد أن يكون العساكر قد اتعبوا أنفسهم من الضرب وأصيب الكثير من المعتقلين بالجروح والكسور ولطخت أجسامهم بالدماء .

لم يعترض أحد من المعتقلين على الهتاف للجمهورية ولكن كانت المشكلة فى الهتاف لعبد الناصر وفى نشيد الله أكبر .

امتنع د . اسماعيل صبرى عن النشيد فضرب فأثار هذا بلبلة واسعة وتمردا فى صفوف الحزب الشيوعى المصرى (ع . ف والراية) هل يهتفون أم يمتنعون أم يتمتمون (يظهرون الهتاف ولا يهتفون) أم تهتف الصفوف الأولى وتمتنع الصفوف الخلفية !!؟؟ أم تترك الحرية لكل فرد يتصرف حسب ما يراه ؟

واتخذ قرار من القيادة بالرأى الأخير فأثار اعتراضات فصدر قرار بأن يهتف من بالصفوف الأولى ويصمت من بالصفوف الخلفية فرفضه البعض فعادوا للقرار الأول .

ثم تخلت الادارة عن النشيد والهتاف لعبد الناصر واستمر الهتاف للجمهورية .

طابور ما يسمى بالرياضة :

كان الهدف دائما فى كل حركة هو الانتهاك والتعذيب حتى الرياضة التى تعمل على تقوية الجسم وتحسين صحة الانسان ،

أساءوا اليها وحولوها الى ارهاق وآلام متصلة خاصة مع حالة التجويع التي عشناها ، فقد سرت اليها خطة تصعيد التعذيب من الخطوة السريعة الى الجرى الى تمرينات رياضية عسيرة ومرهقة ، الى تصعيد الضرب أثناء تلك التمرينات .

وبسرعة تركز طابور الرياضة على التمرينات المرهقة ، فهي تبدأ بتمرين الضغط الذي يعنى الانبطاح على الأرض والارتكاز على اليدين وأمشاط الرجلين ثم ضغط الصدر هبوطا وصعودا في حركة متوالية مستمرة لا تتوقف حتى يأمر الصول بالتوقف وأحيانا يأمر بعدم التوقف حتى يأتي الضابط ، عملية تعجيز تنتهى بسقوط الكثيرين اعياء حيث لا يستطيعون رفع أجسادهم من على الأرض ، وهنا يأمر الضابط السجانة بأن يسيروا بأحذيتهم الفليضة على ظهورهم ويضغطوا بها على رؤوس المعتقلين ليمرغوا أتوفهم في التراب حتى تمتلىء أفواههم به ، وأحيانا يستخدمون الجريد في ضرب المعتقلين وهم منبطحون على الأرض ، وسموا هذا بلعبة « البيانو » واذا أصيب البعض بالاغماء تضاعف ضربه حتى يفيق .

وتتوالى التمرينات : ما سمي بتمرين « شادية » وهو النوم على الظهر مع رفع الساقين فتحا وغلقا ، ثم تمرين الحجل على رجل واحدة مع وضع اليدين في الوسط والجرى مع الدوران في حلقة ضيقة حتى تتقطع الأنفاس ، ثم تمرين جلوس القرفصاء فوق أمشاط الأقدام مع رفع الذراعين الى أعلى والسير مع الحفاظ على هذا الوضع ويضرب من يمس كعب قدمه الأرض ، ويسمى هذا التمرين « بمشية الأوزة » أو « الزحف المقدس » ويتجه هذا الزحف بهذا الشكل الى العنبر ، وقبل بابه بمسافة يقف صفان من السجانة يتناولون المعتقلين وهم في طريقهم اليه بالشوم وجريد النخل ليضعوا على ظهورهم البصمات الأخيرة لطابور الصباح .

العمل فى الجبل أشغال شاقة :

بعد طابور الرياضة وغلق الأبواب ، ينادى الصول مطاوع على العاملين فى الخدمات بالمعتقل : المغسل والترميم .. الخ للخروج من العنابر الى أعمالهم داخل أسوار المعتقل وهم المصابون بعاهات قاثلا : الأولاد الداميين فى المغسل دوغرى .. الأولاد العاملين فى الترميم دوغرى .. الأولاد العاملين فى البيضاى والمحارة دوغرى ..

فاذا انتهى من ذلك ينادى على الباقين فى العنابر للخروج للأشغال الشاقة بالجبل ، فرضوا علينا الأشغال الشاقة فى تكسير حجارة البازلت ستة أيام فى الأسبوع ونحن حفاة الأقدام حتى تيبس بطن أقدامنا فأصبح مثل خف الجمل .

بدأ العمل فى الجبل فى الأسبوع الثانى من نوفمبر عام ١٩٥٩ ، وحتى لا تحدث معارضة أو تمرد فقد بدأ بحفلة مضاعفة من الضرب فى العنابر ، ثم أمر بالخروج فى صفوف ، اجتزنا بوابة الأوردي أمرنا بالجلوس القرفصاء ووجهنا الى الأرض دون حركة فى صفوف متراصة كل صف مكون من أربعة ، وكل عنبر على حدة وأمامه سجنائه ، وشكلت العنابر الستة ست مجموعات .

فى هذه الجلسة تمت عملية التمام ، ثم ارتفع نداء الصول مطاوع « دوغرى » فوقفنا وسرنا نحو الجبل كان أول الطابور عند السكة الحديد وآخره عند باب الأوردي ، وكان المشى للجبل يستغرق نصف ساعة تقطع خلالها مسافة ١٥٠٠ متر .

كان يشرف على الطابور ضابطان يركب كل منهما فرسه وأحيانا كان يصاحبهما حسن منير قائد المعتقل راكباً صهوة جواده .

كان الطريق الى الجبل متخفا بحراسة مكثفة من العساكر المدججين بمختلف الأسلحة والعصى والشوم فعلى جانبي الطريق جنزيران من عساكر الكتيبة : الاول الملاصق لنا مسلح بالشوم والآخر الذى يقع على بعد منه يحمل البنادق المسلحة ، ثم توجد وراءهم وعلى بعد منهم نقاط ثابتة مسلحة بالمدافع الرشاشة سريعة الطلقات فى مواقع يمكنها من التحكم والسيطرة النامة على مجمل المنطقة .

وعلى طول الطريق لا يخلو الأمر من ضرب بالعصى أو بالأيدي أو ركل بالأرجل مع الشتم والسب وإعلان يتكرر من الضباط أو الصول بأن أى محاولة للهرب تعنى الضرب بالنار فورا فى المليون .

كان شريط السكة الحديد يتقاطع مع طريقنا للجبل وأحيانا نرى القطار من بعيد مقبلا ، فنؤمر بالوقوف وإعطاء ظهورنا للقطار ، ولكن منظر العبيد وأسرى الحرب الذين يرتدون هلاهيل ممزقة ويسرون حفاة الأقدام ، فى جو قارص البرودة ، يتساندون على بعضهم ، وفيهم من يمشى متوس الظهر أو محمولا على الأعناق للكسور والجروح التى أثمرتها حفلات التفتيش وطواير السام والهتاف والرياضة الصباحية ... كان هذا المنظر الذى ينتمى للعصور الوسطى المظلمة لابد وأن يلفت أنظار ركاب القطار ، كانت أعناقهم تشرئب من النوافذ وأبواب القطار ، وكان سائقو القطارات يقللون من السرعة حتى يتأملوا طابور السخرة هذا .

كان المشهد يحتوى على تناقض صارخ بين جموع منهكة ترتعش من شدة البرد والجوع وبين ضباط فى أبهة فوق جياذ مطهمة ووجوههم تطفح حمرة وحبوية ، يلبسون ملابس ثقيلة تقيهم زمهرير الشتاء ، وحتى السجناء كان كل منهم يرتدى معطفا طويلا

ثقيلا ، وفوق رأسه طربوش عليه غطاء برغرف أمامي وذيل طويل ينساب على الظهر ، وكل منهم يمسك بشومته أو خيزرانه .

بستائف الطابور سيره - بعد مرور القطار - وقبل موقع العمل ينحدر الطريق ثم ينحني لندخل بطن الجبل .

سبقتنا مجموعة من الجند يقودها الصول الى موقع العمل وأخذت في تفتيشه بحثا عن أسلحة أو رسائل مهربة ، انهم وهم في موقع القوة يخافون أن تكون هناك خطة للانقضاض عليهم .

موقع العمل في بطن الجبل عبارة عن حفرة واسعة في شكل اسطوانة تكونت من عمليات التفجير والتكسير ونقل الأحجار ، وتمتد لعدة كيلو مترات وهي محاطة بالتلال التي ترتفع امتاراً عديدة ، وفوق هذه التلال يربط جند الكتيبة بالسلاح ، وهؤلاء عندما يشهد الضرب تسرى اليهم الصلوى فيجرون ويصرخون بأصوات مسعورة ويشتركون في السب والشتم وقذف الأحجار على المعتقلين من أعلى الجبل .

على يمين هذه الحفرة حفرة مماثلة هي مكان عمل المسجونين الجنائيين الذين يلبسون ملابس زرقاء ويعملون على آلات تكسير حديثة .

نزلنا الحفرة من فتحة فيها .

لم يحدث ضرب يذكر في اليوم الأول ولم توقع عقوبة على المقصرين رغم أنهم في البداية بالغوا في تقدير المقطوعية ، طلبوا ستة غلقان من البازلت فلم نورد الا ثلاثة ، ونزلنا بمقطوعية التراب الى عشرين غلقا وكان المطلوب الضعف .

بعد اليوم الأول بدأ التصاعد في الضرب والتعذيب ، فحمل
التراب بالخطوة السريعة وصف من العساكر للضرب ، ومن نفذ
المقطوعة لا يتوقف عن العمل بل يجلس في الدائرة يكسر .
وعندما يخفت صوت التكسير يصرخ الضابط متسائلا : ان كان
المساجين قد ناموا ، وتكون هذه اشارة لينقض العساكر علينا
بالشوم . . كان الضباط يتابعوننا من أعلى الجبل بمدسات مكبرة
ويصرخ الضباط في العساكر لرفع حمية الضرب والتعذيب .

بعد ذلك تصاعد الضرب في كل خطوة بل ومن أول خطوة
نخطوها في بطن الجبل حيث نتلقى عشرات الشوم والعصى التي
تنهال علينا من الحرس الخارجى لليمان ، ثم تدوى صفارة لتتجمع
ونجلس القرفصاء ثم تتكرر عملية المطاردة والتجميع ثم يقوم
السجان بالتميم على عنبره ليبلغه للصول وهذا يبلغه للضابط
الذى يبلغه لقائد المعتقل ان وجد .

بعد ذلك يأخذ كل معتقل غلقا وكاسورا صغيرا أو شاقوفا
كبيرا لمن يعملون في تكسير القطع الكبيرة ، ويجلس كل عنبر في
شكل دائرة ليكسر البازلت وينفذ كل فرد المقطوعة المقررة وهي
ثلاثة غلقان مليئة .

كل زميل يضع أمامه كتلة من البازلت يكسر عليها مقطوعيته ،
وعليه أن يحمل كتلا من البازلت تسمى التماسيح ويضعها أمامه
ليكسرها الى قطع صغيرة لا تزيد عن خمسة سنتيمترات ثم يضع
ما يكسره في غلقه فاذا امتلأ حمله الى سجان العنبر ليسجل في
كشف العنبر أمام رقمه نقطة ثم عليه أن يذهب بالغلق مسافة تزيد
عن المائتى متر في نهاية الحفرة لموضع التشوين ليفرغ الغلق في
المصطبة التي يحددها الصول ثم يعود الزميل الى الدائرة لاستكمال
المقطوعة بهذا الشكل .

وعملية تكسير البازلت في الجبل لها خطوات يبدأ بالعمله
التي تفصل الكتل الضخمة من البازلت ، وهذه مهمة فنية يقوم
بها المسجونون الجنائيون ، ثم تقوم فرقة من المعتقلين بحفر ثقب
بعمق ٧٠ سم في تلك الكتل باستخدام الدبوزة لحشو هذه الصخور
بالديناميت لتفجيرها حتى تنشطر إلى كل أصغر تسمى التماسيح ،
ثم تقوم العنابر في دوائرها بتكسيرها إلى قطع صغيرة وتقوم بالمهمة
الأولى فرقة من كل عنبر مكونة من أربعة أفراد أقوياء الجسم
يختارهم سجان العنبر وتسمى فرقة الحجارة ، وهذه تقوم بتكسير
الكتل الناتجة عن التفجير بواسطة الشاقوف .

وبقية العنبر هم فريق الكسارة .

وعملية الحفر في كتل البازلت عملية شاقة وخطرة وتحتاج
لوقت طويل ، فالدق يقوم به زميل بواسطة مرزبة من الحديد
الصلب تزيد عن أكثر من خمسة كيلو جرام على رأس عتلة من
الحديد طولها ١١٠ سم يمسك بها زميل آخر ، وإذا أفلتت المرزبة
إلى يد الزميل فلا بد أن تحدث له عاهة مستديمة في يده ، وقد
حدث هذا فصلا معي وأصيب فيها الزميل عبد العزيز الصباغ
وأحدثت له هذه العاهة ، وحدث هذا مع آخرين ولم تعط إدارة
المعتقل اهتماما لعلاج هذه الحالات .

لم تكن لنا خبرة سابقة ولم ترشدنا إدارة السجن إلى
الصواب في عملية التكسير ، فتناثر البازلت شظايا حادة وسامة
أدمت وجوهنا وأيدينا وأرجلنا وأقدامنا الحافية ، واستمرت
القروح شهورا دون علاج ، فكل إنسان اعتمد على مقاومته الذاتية ،
وبالتجربة والخطأ تعلمنا كيف نقلل الخسائر .

رغم ذلك فقد كانت المعاناة من الصخر أقل هولا وإيلاما من قسوة ادارة المعتقل فقد كان الضرب والتنكيل والسب والتستم من عساكر الكتيبة ومن السجانة يصاحب كل حركة داخل الجبل ، تضرب ونحن نتجه الى موقع الكتل البازلتية لنحمل منها ما نكسره قطعاً صغيرة ، وتضرب ونحن نحمل الغلق لاثبات مقطوعينا عند شوايش العنبر ، تضرب ونحن نتجه للتشوين لافراغها ، تضرب ونحن عائدون لدائرة العنبر .

وفي نقل التراب كانت المطاردة بالضرب ونحن نملأ الغلقان بالتراب ثم ونحن نحملها على أكتافنا ممثلة ونجرى بها مئات الأمتار لنفرغها في طرف حفرة الجبل بعد أن يكون جزء كبير من هذا التراب قد تساقط على أجسامنا وملابسنا من ثقوب الغلقان ، وفي العودة يحدث نفس الشيء ، وأحيانا كان يطلب منا أن نعيد التراب مرة أخرى الى مكانه الأول فالهدف هو الضرب والانهاك وتحطيم الروح المعنوية وتسفيه قيمة الرجال . وعلى طول طريق الذهاب والعودة يقف صفان طويلان من الحراس يضربون أجسادنا بهراواتهم وشومهم والضباط يطاردوننا بخيولهم ، بينما تسيل الدماء من أقدامنا الخافية من وخز شظايا البازلت الحادة والسامة ، والويل لمن يتعثر في الطريق فسوف تتكالب عليه الذئاب المفترسة ، ويمد في الفلكة ويضرب بالشوم على رجليه حتى يتورما .

ومن يعجز عن اتمام المقطوعية يعاقب بالضرب بالفلكة وبركلات الخيل وأحذية الضباط وبالحرمان من جزء من جراحة الخبز .

لقد كان أمرا مفزعا أن نرى دماءنا تسيل وتلطخ كل مكان في موقع العمل بالجبل .

وهناك تعذيب آخر وهو التعذيب بالعطش ، فالجهد المضني والحرارة في الصيف يدفعان الى الظمأ ، وقد كنا نحمل جرادل المياه معنا الى الجبل حتى نرتوى منها رغم ما فيها من شوائب حيث لا نجد غيرها ، ومبالغة في ايدائنا كان بعض الضباط أو السجّانة يعمدون الى هذه الجرادل فيضربونها بأرجلهم ويفرغونها على الأرض ، وأحيانا مع حرارة الشمس الشديدة كانوا يأمرونا بخلع الطواقى حتى نصاب بضربة شمس .

كان منظرنا فرجة تسر كبار المسؤولين الذين كانوا يزورون الجبل وتلتقط لنا الصور التذكارية التي تؤكد قدرتهم على تنفيذ مخطط الانهاك والابادة ، وكانت حفلات التعذيب تتضاعف في مثل هذه المناسبات ، كانت الصور تلتقط لنا ونحن في الطابور الى الجبل نحمل كتل الحجر الجيرى التي جلبت من محاجر ليمان طره الى أبى زعبل ، نحملها من حول خط السكة الحديد ونمشي بها حتى بطن الجبل لبناء حجرات هناك لضباط الحراسة لايهامنا أن الحبسة ستطول عدة سنوات ، كما كانت تلتقط الصور ونحن نكسر البازلت في بطن الجبل وسط حملات الضرب المسعورة .

يأتى العسكري الجديد وهو يحمل لنا مهابة واحتراما تكفه عن الاقدام على ايدائنا لأنه يعلم أن كثيرا من المعتقلين أساتذة جامعات ومثقفون وكتاب وزعماء نقابات واتحادات طلاب ، ولكن سريعا ما يتبدد هذا الاحترام عندما ينهره الضابط ويأمره بالضرب ويهدده بالعقاب ، وعندما يرى زملاءه القدامى قد اعتادوا على الضرب وأصبحت ممارسته شيئا عاديا ، وقد عبر أحد الصباكر عن هذا حين أخذ يشتم فينا ويقول ان الضرب أصبح عادة يلازمه حتى في نومه فهو يحلم بأنه يضرب واذا به يضرب زوجته أو ابنه وهو نائم بجواره .

من الأيام التي بضاعف فيها التعذيب يوم ١٦ فبراير ١٩٦٠
وسمى يوم الأربعاء الدامي لقسوة التعذيب كما كثر عدد من شملهم
الضرب على الأقدام بالفلكة ، وحدث حوار حاد بين د. اسماعيل
صبري والضابط عبد اللطيف رشدي ولم يصب الارهاق المعتقلين
فحسب بل أصاب السجانة أنفسهم للجهد الكبير الذي بذلوه في
الضرب حتى أن السجان عبد الصادق الذي لقب بنحاس الصبيد ،
لأنه كان أشد السجانة قسوة أصابته أزمة قلبية ، فقد أصيب
بحالة اختناق وتصيب جبينه عرقا فذهب الى حجرة الملاحظة
بالأوردي وما أن رأى ضحاياه من المصابين الذين نكسروا من ضرباته
يتجهون الى هذه الحجرة حتى أخذ يصرخ ويوجه شتائمهم اليهم
« يا أولاد الكلاب يا اللي ما فيش في قلوبكم رحمة » !!

في أحد الأيام ضرب الدكتور لويس عوض في الجبل ضربا
شديدا وأراد الأستاذ حسن فؤاد أن يسرى عنه ويخفف عنه آلامه
فقال له معلش يا دكتور « النهارده علس » لأن العلس كان أهم
وجبة اذا قيست بغيرها ، فقد كان الطعام سيئا للغاية .

بعد الأربعاء الدامي بيومين وكان الضرب قد خف نوعا
ما سأل أحد المعتقلين الشاويش عبد الحليم « عوكل » الضرب خفيف
النهارده ليه يا شاويش ؟ ! قال : والله احنا زهقنا من الضرب ومن
وجودكم هنا ، كنا مرتاحين ونسينا حكاية الضرب دي ، وصلتم
لنا ، واحنا بنفذ الأوامر ، قلت له ولكنك تنفذ الأوامر بشدة .
فقال : مش انتسم عاوزين تبقوا حكومة ؟ اخرج من هنا وهات
في حسن منير وأنا أضربه لك ، بل هات هنا جمال عبد الناصر
نفسه ، وقل لي أضربه ، أضربه ، أنا هنا أنفذ كلام الحكومة ،
ومن قبل الثورة وأنا هنا أعمل في هذا السجن ، وبما ورد علينا
قبلكم ، وبما حيورد بعدكم ، والي يجوز أمي أقول له يا عمي .

هذا الحوار يوضح حالة الطاعة العمياء وانعدام الوعي الكامل
بوظيفة السجن ، وعدم وجود حدود أو التزام بلوائح أو حقوق
للمسجون أو المعتقل ، إنما هي الأوامر والطاعة الصماء التي تقود
هذه الآلة الجهنمية الى ارتكاب الجرائم والقتل دون خوف من رادع
قانوني .

لم يمنعنا هذا التعذيب الاجرامى والملاحقة التي لا سوانى من
أن نفكر فى السياسة ونتبادل الحوار خطفا حول ما يصلنا من أخبار
نادرة عما يدور فى الوطن أو العالم من أحداث .

وصلنا خبر تأميم بنك مصر ، فأثار حوارا حادا داخل العنابر
وفى الجبل ، كان الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) يرى فى هذا
الاجراء ما يؤكد خطه فى وطنية النظام وتقدميته ، بينما ترى
« الراية » أنه ضرب للرأسمالية الكبيرة ولكن تنقصه الديمقراطية ،
أما (ع . ف) فتراه لصالح بنك مصر نفسه ، فهو لصالح الرأسمالية
الكبيرة الاحتكارية ، ويرفعون شعار اسقاط النظام ، ويهاجمون من
يؤيدون مثل هذه الاجراءات الوطنية ويصفونهم بلاعقى أحذية
البورجوازية .

فى الجبل يؤخذ التمام على المعتقلين ثلاث مرات خوفا من أن
يكون أحد قد تمكن من الهرب المرة الأولى عندما نصل فى الصباح
الى بطن الجبل ، والثانية حين ترتفع صفارة الصول فى الساعة
الثانية عشرة ، وتتجمع كل العنابر ونجلس القرفصاء ووجوهنا الى
الأرض وتتم عملية الحصر ، ثم دوغرى وننصرف الى العمل ، ثم
فى الساعة الثانية والنصف تجمع عدة العمل فى أماكنها ويؤخذ
التمام للمرة الثالثة استعدادا للعودة الى الأوردي .

كان مشهد الطابور العائد فى حالة يرثى لها مما ينير الأسى
والحزن ، الأقدام كسيحة وقد تهشمت ضلوع وأطراف ..

الجميع جريح ، والجراح بعضها سبيل منه الدماء والبعض الآخر
قد تقيح ، الشفاء جفت من العطش ، والبطون جائعة نتلوى .. بعض
الطابور محمول لأنه يتعذر عليه أن يحمل نفسه ، والبعض يسير
متكئا على آخرين .. كثيرا ما تعود حاملين جرحانا الذين ضربوا
بالفلكة وتورمت أقدامهم ، أو جرحوا جروحا تعوقهم عن المشى ،
ولا زلت أتذكر مشهد الأستاذ محمود أمين العالم وقد حمله الزملاء
على أعناقهم لعجزه عن المشى بعد ضربه بالفلكة ضربا مبرحا فى
الجبل لاحتجاجه أمام الادارة عن التعذيب الذى نعانيه .

وأمام الأوردي يجلس الجميع القرفصاء ، ليعاقب المقصرون
عن تنفيذ المقطوعة بملهم على الفلكة وضربهم أربع شومات على
أرجلهم ، ثم يؤخذ التمام مرة أخرى ، ثم يسرع الجميع ركضا الى
العنابر لتغلق عليهم بين ضجيج من الضحكات الساخرة التى ترحب
بالزنزانة وتجد فى جدرانها أمانا من المهانة والتعذيب ولأول مرة
لا تشرب الزنازين الضجر بل يكون صوت المفاح فى الأبواب كنعيق
الغريبان .

وخوفا من طلوع الفجر وفتح الزنزانة وبداية يوم جديد من
التعذيب يصرخ فؤاد حداد :

مش عايز الفجر يطلع .. مش عايزه يطلع يا عالم
دا كل ما الفجر يطلع .. أنا أنا البنى آدم
بيضربونى فى ابويا ويضربونى فى أمى
ما طرح ما بسنى ابويا وما طرح ما بستنى أمى
والضرب زى الشتيمة على حشاكى الأليمة
كان ليه تشيلينى فى حشاك وتضرعيني عشاك
كان ليه بتنهيلي باسمى بيندهولى بنمرة

مكتوبة فوق الطاوية والنبرش والبطانية
كان ليه يا أمي بنقرأ .. كان ليه أروح المدارس
وانعلم الابجدية ..

كان ليه الكتب والفهارس والامتحان والعديّة
كان ليه يا أمي امارس مبدأ من الانسانية
قولي لأبويا اللي غارس أكثر من العلم فيه
عبد اللطيف رشدي وارث ابنك في جملة عبيده
عبد اللطيف رشدي سيده
عبد اللطيف رشدي فارس راكب حصان الحكومة
راسم على وشه بومة

تمشي وراء الكوارث وتمشي قدامه شومة
حلفت بالشومة دية .. ويدم شهلي عطية
حلفت بأنم يجرى على « حنان » الصبية
انا طالب دم سفاحي .. انا طالب دمه صباحي
علنا مشهور على سلاحى ، حرما والمالك يسبح
يا راسم للجبل صورة انا قاعد عيني مكسورة
فيه شرخ فى قلبى والصورة .

ولكن سريعا وبعد ربع ساعة يعود النعيق فيفتح باب العنبر
الذى عليه الدور فى الاستحمام ، حيث ينادى الشاويش « دوغرى
الحمام » حتى الحمام صار هو الآخر جرعة تعذيب .

وفى نبرة حزينة يعاتب الشاعر « فؤاد حداد » الحكومة على
التعذيب فى الجبل الذى لا مبرر له فمواقفنا السياسية كانت
مساندة لمواقف الثورة الايجابية .. يقول :

ليه يا حكومة جعلت على الجبل شومة
كان منا المودة وليه منك الخصومة

لم يكن التعذيب فى الأوردى قاصرا على التعذيب البدنى بالأشغال الشاقة ، بل كان أيضا تعذيبا نفسيا ، فقد وضعونا فى جب وعزلونا عزلا تاما عن العالم فلا جرائد ولا أقلام ولا ورق ولا اذاعة ، ولا مراسلات مع أهالىنا الذين لا يعلمون أين نكون .

كانت هذه جزءا من الحرب النفسية التى شنوها علينا وخططوا لها ، كما يذكر صلاح نصر مدير المخابرات العامة فى كتابه عن الحرب النفسية .

لم تكن نشعر بآدميتنا ، أو بأننا كائنات حية تعيش فى هذا العالم ، كنا كائنات تهيم على وجهها ، تعذب وتهان فى كل لحظة من لحظات حياتها ، تصاحبها اللعنات والضربات فى كل أوقاتها صباحا ومساء .. ظهرا وعصرا .

فى أحد الأيام وأثناء تكسيرنا للحجارة بالجبل تسلمت بعيدا بجوار حائط الجحره المرتفع اقضى حاجتى فى العراء فاطاحت الريح بورقة من جريدة وجدتها أمامى ، ولتبد ما كانت سعادتى حين شاهدت الكلمة المطبوعة التى تحمل رائحة الحضارة .. هنا أحسست بآدميتى رغم أننى أقضى حاجتى كما كان يفعلها الإنسان البدائى فى الصحراء أو الأحراش منذ آلاف السنين .. طبعاً لم أستطع أن أحمل هذه الورقة معى ، حتى يشعر من يراها بآدميته كما شعرت - لأنهم لو ضبطوها منى - وكنا دائما فى حالة تفتيش مستمر - لكانت جريمة نكراء أغضب عليها حتى الموت .

لقد كان شيئا غريبا أن تتعامل الثورة مع أخلص أبناء الوطن بهذه الوحشية التى لا مثيل لها .. لقد ساهم هؤلاء فى قيام الثورة وفى التجهيد لها وساندوها - بعد أن قامت - فى كل أعمالها الإيجابية ، وهم وان اختلفوا معها فى أساليبها الدكتاتورية ،

واسنثتارها بالقرار ورفضها مساركة أى جماعة أو فئة من السعبد
فى تقرير مصيره ، فقد كانوا مخلصين للوطن وللثورة فى نوجهااتهم .
لقد أرادوا حماية الثورة من شططها ، ولكن رجال الثورة ركذوا
رءوسهم ، وأصروا على تصفية كل من لم يذعن لهم ويطيعهم طاعه
عمياء ، فكان أن حفروا قبورهم بأيديهم ، وهدموا بحدنهم ما بدوه
بضحياتهم ومغامراتهم .

وبداية من عام ١٩٥٩ استمرت آلة التعذيب فى السجون
والمعتقلات ، وتركز بشكل أكثر قسوة ووحشية بأوردى ليمان
أبى زعبل ، ولم يتوقف التعذيب الا عندما حدثت جريمة كبرى
وهى استشهاد البطل المناضل شهدى عطية الشافعى أحد المناضلين
القدامى وأكثر المثقفين المصريين موسوعية فى ١٥ يونيو عام ١٩٦٠
ـ كما سنوضح ذلك فيما بعد ـ

كان الأوردى والأنغال الشاقة تنتظر دماء شهدى حتى يتوقف
التعذيب ؟!

طابور الاستحمام :

بعد العودة من الجبل بربع ساعة يفتح العنبر الذى عليه
الدور فى الاستحمام وينادى الشاويش « دوغرى .. الحمام ،
ولا يخلو الأمر هنا أيضا من ركل وشتم وبصمات عصى الجربد
على الأجسام .

يذهب العنبر ويقف أمام الحمام ليخلع كل معتقل ملابسه ،
ويقف طابور من العرايا ليسلم ~~تحت~~ ^{بمخلوعة} ، بينما تيارات
الهواء تعصف بأجسامهم ، ثم يقفوا أمام حلاق يخلق شعر الرأس
والحاجب والذقن والشارب وتحت الأبط والعانة ، ويتم هذا أمام
الجميع العرايا فى موقف حيوانى لا يمت بصلة الى الانسانية ولا الى
المدنية والتحضر ، ثم يدخلون الحمام وبه أربعون دشنا أغلبها
معطل ، فيضطر المعتقلون الى أن يتجمع كل خمسة أو ستة تحت

صنبور واحد والأدشاش مفقودة والمياه تنصب من ماسورة سيّدة السخونة الى درجة البخار تحرق الأجسام عندما تلامسها ، وعندما يحتج المعتقلون يتوقف التسخين وتنزل المياه سيّدة البرودة ، وحين يتكرر الاحتجاج تعود المياه سيّدة السخونة ، ويصبح الحمام بدلا من أن يكون عملية نظافة محببة ينحول الى طابور من العقاب والعذاب مثل باقى أنشطة الحياة فى السجن .

ونتم عملية الاستحمام دون صابون أو أى نوع من المنظفات ودون فوط للتنشيف فى نفس الوقت الذى يطارد فيه السجنان المعتقلين بالضرب ، يستعجلهم أن ينتهوا من الحمام .

يخرج الجميع من الحمام والهواء الساخن عرايا الى الخارج حيث يتعرضون لتيارات باردة تعرضهم لمختلف الأمراض ، ثم يتسلمون ملابس نظيفة ولكنها مبتلة عطنة لم تجف بعد . فهى ملابس العنبر السابق استخامه فى اليوم السابق . وغسلت ملابسه وسرت اليوم ووضعت لفائف على الأرض بجوار الجدار ليقوم كل معتقل باستلام لفته حسب دوره وحسب ما يتفق له . . قد تكون ضيقة أو واسعة قصيرة أم طويلة . . لا يهم ، فكل ونصيبة ، ثم يعودون الى العنبر ليقصوا أظافر الأيدي والأقدام جلوسا على رصيفى العنبر بمقص سلمه لهم السجنان ليسترداه بعد قليل .

طابور اليك :

بعد العود من الحمام يفتح السجنان باب العنبر ومعه أحد المسجونين الجنائيين لاستلام القروان ملته باليك ، وبعد قليل يعود السجنان فيفتح الباب ويزعق : « دوعزى اليك » فيخرج كل عنبر على حدة بين صفين من الجنود يتناوبوننا واحدا واحدا بالشوم .

وعصى الجريد في الذهاب والعودة ، وأمام القروان يصطف العنبر
طابور وعلى كل واحد أن يخفض رأسه (ينكسها) نحو الأرض ،
فإن رفع رأسه أو أتى بأي حركة داخل الطابور نهشته عصى
السجانة ، ثم أمر بأن ينقدم كل معتقل حسب دوره في الطابور
فيخطف قروانته بالترتيب ويسرع بالجري الى عنبره .

في أحد الأيام كنت واقفا في آخر الطابور . وكان حسن
منير قائد المعتقل واقفا أمامه مشرفا على توزيع اليمك ، لمحني رافعا
رأسى ، فارتفع نداؤه الأنشوي على أحد السجانة : الواد اللي في آخر
الطابور رافع رأسه ، ففوجئت بمجموعة من الصساكر تهجم على
وتجذبني بين الضرب بالشوم والركل بالأرجل ، وأوقعوني أرضا
ورفعوا رجلي وعلقوهما في الفلكة ، واستمروا في ضربني بالشوم
على بطن قدمي حتى انتهت الطوابير من خطف القروان والجري الى
العنابر ، وكتمت أنفاسي حتى لا يصدر عني ما ينبئ عن الألم
فيسعدوا ، ولما تعبوا من الضرب وخلت الساحة من العنابر تنبه
القائد فأمر بوقف الضرب ففكوا الفلكة وطلبوا مني الجري وأخذوا
يطاردونني بالضرب حتى دخلت العنبر ، كانت رجلي قد تورمت
وفقدت الاحساس بها من شدة الضرب ، وطلب مني الزملاء الاستمرار
في الجري في طريقة العنبر حتى لا تتجمد الدماء في رجلي ، فأخذت
أزرع الطريقة جيئة وذهابا مرات عديدة ، ولم يملك الزملاء أنفسهم
من الضحك - وشر البلية ما يضحك - ومع ذلك استمر الألم
شديدا فوضع الزملاء عليها عجينة من لبابة الخبز حتى تمتص بعض
الألم ، وعشت عدة أيام في آلام مبرحة .

في الساعة الرابعة بعد الظهر تقوم إدارة السجن بتفتيش
عنبرين غير عنبري الصباح وتكرر نفس عملية الضرب واللف
للتفتيش ، وما يصاحب ذلك من ضرب عشوائي ، وتنتهي الأسباب
لمضاعفة التعذيب الفردي والجماعي .

بعد هذا التفتيش يكون الوقت قد حل لاسنلام باقى الطعام مصحوبا بالضرب والسباب كما هو معتاد .

كانت كمية الطعام قليلة جدا ونوعينه رديئة لاغيا به . .
أحيانا نجد العدس مخلوطا بالتراب ونشسم فى العسل رائحة الفنيك ، والجبنه محجرة عطنة والفلول عبارة عن سوس به بعض بقايا الفول ، واللحمة كاوتش وشغت ، وما يسمى بالخضار لا يؤكل بالمره ، هذا طعام ليس للأدميين بل ان الحيوانات لتعافه .

كنت وكثير غيرى نتناول الثلاث وجبات - رغم سوئها - مرة واحدة ، ومع ذلك أشعر بعدها أننى جائع وأمكت هكذا اليوم كله جائعا حتى يأتى ميعاد استلام الطعام فى اليوم التالى وكثيرا ما كنت نرى البعض منا يمرون على بقية الزملاء - خاصة من كانت شهيتهم ضعيفة - يسألون عن كسرة خبز .

كان ينسام الى جوارى الأستاذ محمد عفيفى وهو محام من طنطا وكنا نأكل معا ، ووجدته يحضر لنا بعض القروان وبها بقايا أكل من خضار وجلد لحم وعظم ودهن وشغت ، كنا نلتهم كل ما نجده بسبب الجوع ، واكتشفت أن بعض الزملاء محدودى الشهية يعطونه فضلاتهم ، كما كان يذهب الى مجمع القروان فى نهاية الجنبير ليجمع منها ما فيها من بواقي ، عرفت ذلك فيما بعد ولكن شدة الجوع كانت تقنعنى بالتغاضى عن ذلك وتناسيه ، كنت مضطرا للاستمرار معه فى تناول ما يجمعه من فضلات .

لم يكن مسموحا لنا بشراء أى شىء من الكانتين ، وممنوع أن يصرف لنا أى نوع من الترفيه الذى يصرف فى المناسبات داخل السجون ، كانت مجاعة حقيقية ومستمرة .

كانت أسعد الليالى ، تلك التي يحلم الانسان فيها بأنه
يجلس على مفهى ويناول كوبا من الشاي ، أو يلبس حذاء أو بيجامة
حتى ولو من الدمور .

وفي الساعة الخامسة مساء بعد أخذ النمام تغلق العنابر ،
ويصبح للمعتقل الحق فى أن يفرش برشه وبطانيته ليجلس عليها
أو ينام ويستخدم القروانة كوسادة .

ولا يعنى ذلك أنه أصبح حر الحركة داخل العنبر ، بل نلاحظه
ادارة السجن باللصص والنتجسس من خلال النوافذ المفتوحة
ونظارة الباب ، وعليه أن يلتزم بالتعليمات التى تحرم الكلام والحركة
ومغادرة المكان المخصص له فى العنبر ، ومن يخالف هذه التعليمات
يعرض نفسه ويعرض عنبره لعقاب مضاعف أثناء تفتيش الصباح ،
لذلك ينام هؤلاء الأسرى يحرس عيونهم الحنين الى الحرية وحين
ينامون يحلمون بكل شئ طيب .

فى المساء يعود بكل انسان الى نفسه يراجع حسابات اليوم
وبصماته المؤلمة فى جسمه ونفسه وكثيرا ما يذهب به خياله بعيدا
خارج القضبان ، حيث يتأمل ويفكر فى أسرته ، أمه - أبوه - زوجته
وأولاده ، اخوته وأخواته ، وماذا حل بهم وأثر اعتقاله عليهم ،
أحيانا يحاول الهرب من هذه الهموم . . فيتذكر انتصار الانسان
فى كثير من بقاع الأرض على الظلم والطغيان ، فيعزيه هذا عن
آلامه ، ويستمد منه القوة والعزم والاصرار ، يبتسم ويضحك وكثيرا
ما هزمت البسمة قهقهة الجبان .

البعض يظل قلقا يتأمل شريط الذكريات ، والبعض يتغلب
عليه تعبته فينام مكدودا ، ولكن أنينه لا يتوقف رغم نسكون
الأجسام ، ويضاعف هذا الانين قلق المتوتر الذى لم ينم .

وحى لا نفرق فى طوفان اليأس والاحباط ، كان اخيرا فانا
لسنتار المحرمات والمنوعات والتحايل عليها حتى نجعل من فترات
المساء جرعات ثقافية وترفيهية تقوى فينا روح الصمود والتصدى
ومقاومة عواصف الانهيار والتحلل .

فى ١٩٥٩/١٢/٣١ ليلة رأس السنة ، أغلقت العنابر علينا
بلا طعام ، فقد تأخر طعام العشاء الذى يجلب لنا من اليمان لسدة
المطر ، وبتنا ليلة شديدة البرودة يتساقط علينا المطر من خلال
ثقوب سقف العنبر الذى تحلل من الحرارة والأمطار فامتلات الطريقة
وفاضت على المصاطب وهجم علينا البرد القارس من النوافذ
المفتوحة .. كانت البطون الخاوية تشعرننا أكثر بالبرودة ..
وقفنا على أطراف أصابعنا بجوار الحائط .. انكمشنا وارتعشنا ..
استعنا بالبطاطين كمظلات تقينا من المطر ، شيدناها فوق رؤوسنا
فى وضع مائل حتى ينساب المطر المتساقط عليها نحو الطريقة .

قضينا الليلة هكذا فى حالة حصار وجوع وبرودة وانعدام
النوم ، وحين حل بنا صباح اليوم التالى ، لم يعفنا هذا العذاب من
عذاب اليوم الجديد ، وتواصل التنكيل والانهاك .



هذا البرنامج اليومى للعذاب لم يكن بكاف لاشباع النزوات
السريرة عند هذه المجموعة الشاذة التى أوكل اليها مهمة التعذيب
بأوردى ليمان أبى زعبل ، بل كان يحلو لبعض الضباط أن يشغل
نبطشيته أو فراغه بالتسلى وامتناع شهوته بمضاعفة التعذيب لنا .

فى أى وقت - وعلاوة على البرنامج اليومى الثابت - كنا
نفاجأ بحملة من العساكر والضباط تدخل علينا العنبر بالضرب
والشتائم وتطلب منا الخروج فى صفوف يحيط بنا العساكر

بالهوى والتسوم وسسيور القوايتس ، يلقون بنا فناء السجن وفى
الطرقات بين العنابر ثم يعيدوننا الى العنبر بعد ان يكونوا قد
أتعبوا أنفسهم من ضربنا ، وبكررون ذلك عدة مرات فى اليوم وفى
أيام آخر .

فى احدى الليالى وفى الساعة الثانية ليلا فتحت العنابر
وفوجئنا بهجوم من الحرس والسجانة ينزلون علينا ضربا لأنهم
اكتشفوا مجلة هوائية فى أحد العنابر تذيع بعض الأخبار
والتحليلات السياسية وقاد الهجوم الملازم يونس مرعى .

فى احدى المرات طلبوا منا نقل الجير الحى من مجيرة خارج
الأوردي الى داخله ، وأصيب البعض بخروم فى أقدامهم التى غاصت
فى الجير ، وفى رقابهم التى تساقط الجير عليها من المقاطف
المثقوبة ، كما التهبت العيون والأنوف من ذرات الجير المتطاير .

ومرات أخرى أجبرونا على حمل الأسمنت ونقله من خارج
الأوردي الى داخله مع السباب والضرب .

هذا فضلا عن أنهم كانوا يفرضون علينا بعد العودة من
الأشغال الشاقة بالجبل - أن نقوم بتفريغ القطارات المحملة
بالأحجار الجيرية المنقولة من ليمان طره وتشوينها بعيدا عن خط
السكة الحديد .

فى بعض الأحيان كانوا يجبرون أحد العنابر بتمهيد الطريق
أمام مكاتب الضباط خارج السجن وحمل الرمال الملونة لتجميل
المكان وزخرفته ، رغم أننا كنا حفاة وكانت الرمال تحتوى على
العقارب السامة .

وأحيانا يخرجون أحد العنابر في أيام المطر والبرد الشديد
لتسليك البلاعات وتنظيف البكا بورتات ونزح مياه الأمطار من
الطريق بكوز من الصفيح ليصب في التربة المجاورة ويعلق حسن
مدير بنعومة مخنثة وسخرية خبيثة - موجها كلامه لمعتقلين فيهم
أستاذ الجامعة والصحفي والكاتب المفكر والأديب والشاعر والقائد
العمالي أو الطلابي - « يا أولاد كل واحدة من هذه الأعمال صنعة
نفيدكم عندما تخرجون من هنا » !!

لم تترك هذه المجموعة من الضباط فرصة للتعذيب والتنكيل
والقتل الا وارتكبتها .. كانت على نفس الدرجة من الحماسة مع
مخططى التعذيب والابادة ، حتى صار الأوردي وصية عار في تاريخ
مصر الحديث .

في أحد الأيام زارنا مدير عام السجون - فتحت العنابر
واحدا بعد الآخر .. دخل ومعه عدد من كبار الضباط ، كان
الاقدام على الشكوى دونه خرط القتاد .. حين دخل عنبرنا -
عنبر ٣ - تقدمت اليه - نيابة عن زملائي - أشكو من سوء المعاملة
وأطلب تحسين أوضاعنا ووقف التعذيب الذى نعانيه ، وفى نفس
اليوم تقدم اليه فى عنبر ٤ زميلى وبلدياتى فتحنى مجاهد بنفس
الشكوى وأيضا فعل محمد الامام زميلى وبلدياتى فى عنبر ٥ حتى
هتف فؤاد حداد مفتخرا فقال : اليوم يوم ميت الحلوج (بلدى) .

كان عدد المعتقلين من قرى ثمانية أربعة منهم فى الأوردي
وهم أنا وأحمد عبد الرازق وفتحنى مجاهد ومحمد الامام وأربعة
آخرون فى سجون أخرى هم أحمد أحمد يوسف (أخى) وعبد الحميد
عبد الرازق فى سجن المنصورة فالقناطر فالفيوم فالحرى ،
وعبد السلام خشان فى القناطر ثم الواحات وأحمد العدل فى

الفيوم ، كما خمسة من الأزهر ودار العلوم ثلاثة نخرجوا أحدهم أنا من دار العلوم والثاني أحمد عبد الرازق من كلية اللغة العربية والثالث عبد السلام خشان من كلية أصول الدين والرابع فتحى مجاهد طالب بكلية دار العلوم والخامس أحمد العدل طالب بكلية اللغة العربية أما السادس فهو محمد الامام مدرس ابتدائى وبطالِب بكلية الآداب والسابع تاجر خردوات وهو أحمد يوسف (أخى) والثامن ترزى وهو عبد الحميد عبد الرازق . . مع أن فريتنا فى ذلك الوقت لم يتعد تعدادها ثلاثة آلاف نسمة .

فى بداية التعذيب لم ننصوّر أن بإمكاننا أن نصد أكبر من أسبوع أو أسبوعين ، وأن مآلنا هو الموت لا محالة لو استمرت هذه المعاملة أكبر من ذلك .

كان التعذيب أكبر من قدرة أى انسان على وصفه ، كما نعتقد أنه يصعب على أى شخص مهما بلغت قدرته فى التعبير - أن يصور بدقة ما حدث بالكلمات - كان الأمر يحتاج الى تصوير سينمائى من واقع الأحداث لنقل الصورة كاملة .

لكن ارادة التحدى كانت أقوى من آلة التعذيب ، فقد استنفر الجهاز العصبى وتضاعفت قدرته على التحمل ، واكتسبنا القدرة الكامنة فى الانسان والتي مكنته من التغلب على هذه المحنة وتجاوزها .

تحملنا جحيم الصيف وليالى الشتاء عرايا . . حالات الذكام والسعال والحرارة والضغط والصداع اختفت .

كان هناك بعض المرضى الذين انحنت ظهورهم بسبب أمراض فى فقراتهم ، وكان هناك مريض لا تفارقهم الأجهزة التى تساعدهم على حسن التنفس . . لقد أنساهم التعذيب أمراضهم وكان صحنهم

قد عاد اليهم وأصبحوا معافين من المرض يحضرون في هذا منظر
الزميل ياسين رئيس نقابة عمال الأحذية الذي كان يمني محنيا
ظهره لا يستطيع أن ينهض مستقيما ، كذلك الأستاذ حسن فؤاد
كان يعالج قبل الاعتقال في مناطق روسيا الجافة من حالة الربو
التي كان يعانيها وكان جهاز التنفس يلزمه . . اخفت حالة الربو
مع علم وجود جهاز التنفس معه طوال فترة الاعتقال التي اقتربت
من خمس سنوات .

كان السمومة كانت دواء أشفت المريض فجعلت العليل بالربو
يجرى كالحصان والمرهل الجسد يتخلص من سمته ويركض
كالغزال ، كما صيرت الدائع مكوكا يلف للفتيش .

كانت ارادة التحدي ومقاومة حملات التعذيب هي السبب في
ذلك .

أذكر أن الأستاذ أحمد عبد الرازق كان وزنه أكثر من مائة
كيلو جرام فانخفض في المعتقل الى حوالي النصف ، وكان يقول
بفكاهيته المعهودة « أنا خسيت جوزيف » مشيرا الى زميل كان
يلزمه في عنبره واسمه جوزيف كان ضعيفا قليل الحجم .

كانت قوة تحملنا تفوق الخيال ، صمدت الأجساد بالغريزة
من أجل البقاء ، أعضاء في جسد الانسان لاءمت نفسها مع الظروف
القاهرة ، فالعضلات تنمو وتتركز في أماكن الضرب - الظهر -
القدم - الأكتاف - تحمي مواطن الخطر وهي الرأس ، الأذن
مرهفة تتحسس وقع أقدام السجانة . . الجلادون يتحملون جزءا
من نتائج التعذيب . . ولن نموت قبل أن يموت السجانة من مجهود
الضرب .

كانت ارادة التحدى تدفعنا الى مفاومة حملات التعذيب بالضحك والغناء ، كما كنا نبتسم ساخرين فى وجه الجلادين - كانت المفاجأة العجيبة أنه عندما توقف التعذيب سقط العديد منا مرضى - زال الخطر الخارجى عن الجسم وتوقفت حالة التعبئة التى أعلنها عندئذ عاودت الجسم أمراضه الداخلية فأخذت تهاجمه .

استشهاد د. فريد حداد :

ونحن على هذه الحال كنا بين الوقت والآخر نسمع بإيراد جديد ، معقل واحد أو عدد من المعتقلين يواجهون بمثل حقله الاستقبال التى استقبلنا بها بل وأشد قسوة ، فقد كانت هذه الحفلات تتصاعد فى قسوتها يوما بعد يوم ، وفى مثل هذه الحفلات قتل الدكتور فريد حداد من الضرب .

حضر الى الأوردي فى ٢٨ نوفمبر ١٩٥٩ فى فوج مكون من سبعة رفاق منهم المرحوم الأستاذ عبد الله الزغبى المحامى ، فاستقبلوا بالتشريفه المعهودة من الضرب والسب . سأل الضابط يونس مرعى : اسمك ايه يا ولد ؟ أجاب : الدكتور فريد حداد - قال يونس مرعى : دكتور ايه يا ابن القحبة . اديله يا عسكرى . . أنت شيعوى يا ولد ؟ أنا مصرى أو من بالاشتراكية - يعنى شيعوى مصنوع فى روسيا .

أجاب فريد حداد : أنا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمال والفلاحين .

- بترد على يا ولد يا ابن الوسخة .

انهال عليه يونس مرعى ومجموعة من السجانة بالعصى ودبشك البندقية يحطمون رأسه وجسده ، - وصاح فريد حداد فى وجه يونس مرعى : أنت كلب فاشستى وبصق فى وجهه .

بوالى الضرب عليه فى كل موقع من جسمه أصابنه شومه
فوى رأسه فكسرت الجمجمة فسقط على الأرض فاقد الوعي - صرخ
يونس مرعى : اقتلوا ابن القحبة هذا ، وتصاعد الجنود والدماء
تسيل من رأسه ، أفاق للحظة واستمر الضرب فسقط للمرة
الثانية ، أدخلوه مع ثلاثة من زملائه احدى زنازين التأديب ، كاتوا
يثنون من الألم وفجأة توقف فريد حداد عن الأنين ، عمل له زملاؤه
تنفسا صناعيا ودلكوا قلبه دون جدوى فقد مات .

جره السجانة من قدميه الى خارج الزنازة وانهالوا عليه
بالضرب لينطق ، اكتشفوا موته ، فتوقف الضرب وتظاهر زملاؤه
بأنهم لا يعرفون بموته حتى لا يجهزوا عليهم باعتبارهم شهود عيان
على مقتله .

بهذا الاستهتار المجنون ضاعت حياة فريد حداد الطبيب
الباطنى المشهور والذى جعل من عيادته فى أول شارع شبرا مشابة
للفقراء يعالجون عنده مجانا ، بل ويصرف لبعضهم الدواء مما أكسبه
احترام وحب أهل الحي ، هذا علاوة على ما عرف عنه من دماثة
الخلق والرفقة الشديدة .

لوث طبيب الليمان الدكتور كمال شرف مهنته فتجاهل الرأس
المشجوج المفتوح والنخاع الذى سال مع دماثة ليكتب أن الوفاة
طبيعية اثر هبوط فى القلب !

لم يكن التعذيب قاصرا على الدكتور فريد حداد ، بل يشمل
رفاقه الآخرين الذين هشمت عظامهم وكسرت أطرافهم . . كانت
أصابتهم بخطر حتى أن عبد الله الزغبى . كانت عظام رجلية مهددة
بالفرغرينة ، واستمرت حالته سيئة لعدة شهور .

استشهاد شهيد عطية انشافى :

فى ١٤ يونيو ١٩٦٠ ظهرت بوادر استعدادات لنسريه كبرى
تمثلت فى زيادة جرعة الارهاب فجاء ، وتسخير بعض العنابر فى
تمهيد الطريق الفرعى الموصل لبوابة الأوردى وتحديد معالمه بالجبر
الأبيض .

ومن الحسود التى أحسستنا بخركتها خارج المعتقل ثم من
عدم النزول للجبل صباح يوم ١٥ يونيو ١٩٦٠ وتوزيع عنبر ٢
على بقية العنابر ، ثم الأمر بوقوفنا فى العنابر ووجهنا الى الحائط
أدركنا أهمية الدفعة القادمة ، ومن خلال نداءات الأسماء التى
سمعتها ، عرفنا أن هذا الاستعداد لاستقبال رفاق قضية شهيدى
الذين انتهت محاكمتهم بالاسكندرية وكان عددهم ٤٨ رفيقا ثم
رحل منهم بعد يومين خمسة وأربعون زميلا الى أوردى ليمن أبى
زعبل ليلاقوا عذابا مضاعفا - فوجئوا به ولم يكن متوقعا ، لم تكن
نفسياتهم مهيأة له فلم يكونوا على علم بما يجرى فى الأوردى - وكان
هذا الاستقبال عقابا لهم على تأييدهم للثورة ودفاعهم عن الوحدة
الوطنية وشجبتهم لشعار معاداة الشيوعية وفضحتهم لدعاته واثبات
أنهم أعداء للثورة ، ويريدون بها سوءا لصالح قوى الاستعمار
والرجعية .

كان هؤلاء قد تمكنوا من التسلل الى كثير من أجهزة الدولة
الحساسة يعملون على الانتكاس بالثورة وضرب مكاسبها ، ويرون
فى الخط السياسى لهذه المجموعة التى تمثل الحزب الشيوعى
المصرى (حدتو) خطرا على مخططاتهم يهدد بأفشالها والعودة بمسار
الثورة الى أحضان الشعب وأهدافه الوطنية والاجتماعية .

ولقد صرح عبد الناصر بذلك بعد انفصال سوريا عندما
ذكر أن الرجعية قد سيطرت على الاتحاد القومى وسنال لعابها

لاملاك المؤسسات الأجنبية التي نصرت بعد العدوان البلاني
ووقفت موقف العداء من المؤسسة الاقتصادية التي كانت نواه
للقطاع العام .

من هنا كان التركيز الشديد على هذه المجموعة بهدف مل
قادتها واشاعة روح اليأس في نفوسهم ، ودفعهم الى انهاج موحى
يسارى يسهل عزله وضربه وتصفيته .

أشرف على هذه الحملة اللواء اسماعيل همت والعميد الحلواني
مأمور سجن الحضرة بالاسكندرية ، والمباحث العامة ، ونفذها حسن
منير وضباطه .

أشار همت بتركيز الضرب على البعض وبالذات شهدى ،
لذلك كان استقبال هذه المجموعة أشد ضراوة وقسوة من الدفعات
السابقة .

يؤكد ذلك مبارك عبده فضل فيقول : « أعنقد أن مجموعا
كانت أكبر مجموعة تعرضت للتعذيب قبل دخولها الأوردي ، كما
نسجل حتى العنبر ، ولا أذكر أنى قد سرت على قدمى ، فاما أنهم
كانوا يجروننى أرضا أو أننى كنت أزحف زحفا ، وفى اعتقادى أن
ما حدث لنا لابد كان نتيجة توصيات بسبب المحاكمة » .

واستطرد واصفا كيف استقبلوا فى الأوردي فذكر أنهم
غادروا الاسكندرية فى الساعة الثالثة والنصف فجرا ووصلوا الى
الأوردي فى الساعة صباحا ، وظلوا جالسين القرفصاء فى مكان
خلوى كل أربعة فى صف حوالى ثلاث ساعات فبدأ الزملاء يتململون،
وكل حركة يأتياها زميل يضرب بسببها « كنت وقتها سميئا للغاية » .

وكانت مثل هذه الجلسة عسيرة على لا أنحملها ، ولذا تحركت كثيرا ونلت كمية فظيعة من العصي والشوم على رأسي ، كان مفروضا ألا تنظر حولك أو أمامك ، وأخذوا أربعين بين صفين من الجنود وصف من الفرسان خلفهم يضربون من يلحقون به « ان توقفت ضربوك » أتذكر أنني وقعت أكثر من مرة ، عندما وصلت الى باب الأوردي كنت قد انتهيت تماما ، فأصبت بالاغماء أكثر من مرة ، غمروني بالماء حتى أفيق : حلقوا ملابتي ، لا أدري كيف ، كان هناك جلوس مياه وأشجار ، حلقوا شعري ودخلت ، أذكر أنني كنت أصاب بالاغماء وأن هنالك من كان يحملني اثنين من اليدين واثنين من الرجلين ، وكان هنالك من يضربني على ظهري وبطني ، كانوا يقلبونني وأنا عريان منك للغاية ، أصاب بالاغماء فأعاد الى وعي كي أضرب من جديد ، عندما وصلت الى باب العنبر كنت أزحف على رجلي عاجزا عن المشي ، دخلته وفقدت الادراك بكل ما حولي ، أصابني حالة من الاغماء المصل ، كنت أفيق لحظات فأطلب ماء وأشرب فتزيد حالتي سوءا ، أحسست أنني أموت ، وأن موضوع العمر قد غدا دقائق معدودة أحسست بتمورجي السجن يغرس في جسدي حقنة كورامين ، وربما تكون تلك الحقنة هي ما أنقذ الموقف - عرفت بهذا فيما بعد - فانهم عندما مات شهدي وعرفوا أن هنالك آخرين متعبين في العنبر فزعوا وجاءوا لاعطاء الحقن - بعد أخذ الحقنة وبعد أن أفقت قليلا نقلت الى حجرة ووجدت معي فيها جمال غالي ونور سليمان ومحمد عباس فهمي وعادل حسين . . قال الطبيب اننا مضايون بضربة عضبية وكنت أنا أسوأهم حالا قال الطبيب انه لابد من عدم الحركة وعدم شرب المياه مدة ٢٤ ساعة ، كانت تلك هي مرحلة الخطر التي لم أجتازها عشتا . .

ويصف حال الزملاء بعد حوالى عشرة أيام عندما بقلوا لسجن القباطر « كل الناس مضروبة والملابس منكصقة بالأبدان وزفعها عندها مؤلم أشد الألم » .

ويصف محمد يوسف الجندي التعذيب فى أبى زعبل : « كما نسمع أن هناك تعذيباً دون تفاصيل أو تأكيد ، لم تكن نعرف بمقتل فريد حداد - عندما وصلنا كان الضباط فى انتظارنا وبدأوا أشياء من قبيل « انزل يا بن الكلب » « انزل يا ولد » ، اقعد على قرافيصك ، كانت هنالك خيل وقوات ، لم يفلت أحد من الضرب » .

ثم أخذ يتحدث عن مراحل التشريفة المخلفة : وأثناء ذلك ينوال الضرب القاتل فى كل مكان : على الرقبة على الرأس دون تمييز ، ثم يحضرون لكل منا - وقد غدا عارياً وحليقاً - برشاً وبطانية وعليه أن ينام بطوره على الأرض ، وقد وضع البطانية والبرش على بطنه وبمسك أحدهم باحدى رجلك من ناحية ويمسك آخر بالأخرى ويبدأ السجل حتى العنبر .

كان عبد اللطيف رشدى يسأل : أنت شيعوى يا ابن الكلب ؟ قل أنا امرأة ، والضرب يشتد حتى العنبر .

لقد سجلنا جميعاً ما عدا عبد الحميد السحرتى وصنع الله ابراهيم وسعد بهجت وابراهيم المانسترلى كان عليهم توصيات جعلوهم يخلعون ملابسهم وأعطوهم الأبراش والنمر وأجلسوهم القرفصاء ليروا تعذيب كل الآخرين ، كنا جميعاً مصابين وكانت هناك أهرامات فى رأس ابراهيم عبد الحليم من ضرب التهم عليها ، (١٤) .

(١٤) د . لطفى لبيب . الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٥ .

قلنا ان اسماعيل همت أوصى بتركيز الضرب على البعض وبالذات شهدي عطية ولا يتركونه حتى يقول أنا مرة .. وهنا سأل أحد الضباط : أين شهدي عطية ؟ فقال شهدي أنا هو - فانهالوا عليه ضربا بطريقة مجنونة ، كانوا يفرقونه في ترعة بجوار الطريق الموازي للسجن ثم يخرجونه من الترعة ليضربوه ، ثم يعيدون اغراقه في الترعة ثم اخراجه وضربه من جديد .

وتوالى عليه الضباط بالضرب ، بادره حسن منير عندما رآه :
انت بقى شهدي عطية عملي علم ، انت شيوعي يا وله ، قول
أنا مرة .

فقال شهدي : عيب أسلوبك هذا ، فأنت تسيء الى النظام بهذا التصرف ، نحن قوى وطنية ليست ضد الحكومة ، وحتى لو كنا ضد الحكومة فليس من حقك أن تسلك هذا السلوك الوحشي ، فنحن أصحاب رأى ونحن من أنصار الثورة ، والرئيس جمال نفسه يعلم ذلك .

ولم يطق اللواء همت ورجاله هذا الحوار فأمر همت بصلب شهدي على العروسة ، وتم جلده جلدا وحشيا على غير العادة .

كما أمر حسن منير أن يقلب على ظهره ويضرب على بطنه بشدة ، ويبدو أن شهدي قد انفردوا به في نهاية الترحيلة .

ثم تسلمه عبد اللطيف رشدي على بوابة الأوردي بعد أن أنهكوه بالضرب والاغراق وتمزيق ملابسه حتى أصبح عاريا تماما .

- سأل عبد اللطيف رشدي والضرب مستمر : ما اسمك
يا ولد .

— أنا مش ولد .

— اسمك ايه .

— شهدى عطيه .

قال عبد اللطيف رشدى : ارفع صوتك ، فلم يرفع صوته
وكرره بنفس النبرة ، وعاد السؤال مرة أخرى ، اسمك ايه ؟
وأجاب شهدى : انت عارف أنا مين .

قال له : انت شيعى ؟ قال شهدى : أنا شيعى وانت عارف
يا عبد اللطيف رشدى أنا مين . قال له : كده يا ابن الكلب ،
اضربوه ، قول أنا مره وقال شهدى : أنا شهدى عطيه وانت عارف .

قال عبد اللطيف رشدى للعساكر : اضربوه على بطنه على ظهره
على جنبه ، علمه ، نقرزه ، شوف يأكل ايه ، وصمد شهدى لكل هذا
العذاب فلم يصرخ ولم يتأوه ، ودفعوه ليلف حول العنابر حتى كان
فى الطريقة بين عنبري ٢ ، ٣ أمام نافذة الجدار الذى أقف وراءه
داخل عنبر ٣ ، وهنا سمعت صوت جسم يرتطم بالأرض لا يفصل
بينى وبينه سوى الجدار . . قال أحد الجنود لزميله شيله ، فرد
عليه ، لا . شيله انت فى التمورجى ثم سمعنا صوت : راح فى
التمورجى ابن الكلب ، ثم صوت أقدام تجرى لاحضار التمورجى
ثم صوت التمورجى أمين وهو يخط على جسمه ويقول : قوم
يا وله ، خليك جدع يا وله ، قوم يا وله . . ثم سمعناه يقول يظهر
أنه خلاص خلص .

جاء مرجان قال للشاويش هوه ماله ؟ اديله حقنه كورامين . .
بعد فترة صمت قال التمورجى : أعطيته يا أفندم كورامين لكن
مافيش فائدة .

وسمعنا بعض العساكر يقولون انه قد قطع النفس ، وحدث
جري وهرج ومرج وسمعنا صوت البروجي الذي يعنى ان هرب
قد انصرف ، فتسلى بعض الزملاء من عنبر ٢ النوافذ واخذوا
يسبون العسكر : يا قتلة يا مجرمين وسارك عبر ٤ فى ذلك ،
وأخذوا يصرخون : النيابة النيابة زميلنا قتل يا نيابة .

بدأنا الاتصال بعنبر ٢ من النافذة المجاورة لدورة المياه فى
نهاية عنبر ٣ - فارتفع دورة المياه نسهل الاتصال عبر هذه
النافذة . عرفنا ان خمسة من الزملاء سحبوا من العنبر لحالتهم
الخطرة وأن شهدى هو الوحيد الذى لم يدخل العنبر ، فأدركنا
أنه قتل ، وكان القتلة الضابط عبد اللطيف رشدى والصول مطاوع
والسجان عبد السلام .

من خلال النافذة المذكورة شاهدت آثار التعذيب على أجساد
الزملاء فقد كشف لى المرحوم الأستاذ سعد عبد اللطيف المحامى
والأستاذ محمد عمارة (الدكتور فيما بعد) عن ظهورهما كان
لونهما بنى داكن كأنهما قطعة من انكبد من ضربات الشوم والجلد
والسحل على الظهر .

مات شهدى ميتة الأبطال ليكون دمه ثمنا لوقف التعذيب ،
ولينقذ الأوردى من خطة الإبادة ، وليثبت أن طريق الخلاص مخرج
بالدماء وصدق أحمد شوقى حين قال :

وللحرية الحمراء ياب بكل يد مزرجة يلق

نقل الجثمان الى احدى الزنازين وعلق عليها حسن مير
لافتة مستشفى ، وكتب طبيب الليمان أيضا - ملوثا شرف مهنته -
أنه مات ميتة طبيعية من هبوط فى القلب .

عرف خبر استشهاد شهدي خارج السجن في نفس اليوم ،
فقد تابعت زوجته بسيارتها الخاصة برحيل القضية من الاسكندرية
الى الأوردي ، كان حارسها ينوقع سيئا غير طبيعي ، وانظرت عند
مدخل الليمان الرئيسي لكي مطمئن على زوجها ورفاقه . ووجدت
ضباط السجن يغادرون المكان ، ولاحظت حركة غير عادية ، وبدأت
نساء من يمر بها من الجنود حتى أجابها أحدهم وهو يجهل
شخصيتها ، أن أحد المعتقلين واسمه شهدي قتل من الضرب . .
تأكلت من الخبر وأخبرت الأسرة وأصدقاء شهدي في مصر
وخارجها ، وطارت برقيات الاحتجاج عبد الناصر في الخارج . .
أرسل اليه والد شهدي برقية وكان بيوغسلافيا .

كان عبد الناصر في بريوني يشهد مع تينو جلسة لمجلس
النواب اليوغسلافى ، وفوجئ بالمجلس يقف حداد على استشهاد
شهدي عطيه الشافعى . . أخرج عبد الناصر وهو يتلقى احتجاجا
من بعض النواب خاصة وأنه كان يعلن لهم أن مصر في سبيل
تحقيق العدالة الاجتماعية سستنجه الى نوع من الاشتراكية
الديمقراطية ، فقالوا له كيف تحدث عن الاشتراكية وأنتم تقتلون
قادة الاشتراكية في مصر ؟ فرد الرئيس لم نقتل أحدا ، لم نقتل
أحدا ، ومن يخرج على النظام يقدم للقضاء العادل ، فتقدم اليه
أحدهم بالبرقية القادمة من مصر والتي تعلن موت شهدي من جراء
التعذيب على باب أوردي لسان أبى زعبل بعد محاكمته بيومين .

أرسل عبد الناصر برقية عاجلة لوزير الداخلية بوقف
التعذيب في الأوردي ونرحيل المعتقلين الى مكان آخر أكثر أمنا ،
مع اجراء تحقيق عاجل في الحادث .

خيم الصمت على المعتقل وتوقف الخروج الى الجبل ، وأعلنت
الأسرة عزاء فى الصحف بداته بهذه الأبيات التى تصور بطولة
شهيدى وتدين جلاديه وهى لأبى تمام : فى رثاء أبى حميد الطوسى :

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة
تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سـيـفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

ترى ثياب الموت حمرا فمادجالها
الليل الا وهى من سننن خضر

وأعلنت أكثر اذاعات العالم نبأ استشهاد شهيدى ، وأثار مقتله
ضجة فى الراى العام العالمى لما لشهيدى من سمعة واسعة كمناضل
شوعى وكاتب مصرى تقدمى .

نزف شهيدى دمه وقلم حياته ليفدى بها جميع المعتقلين
والمسجونين فى جميع سجون مصر ومعتقلاتها كما نزف المسيح حياته
قطرة قطرة ليفدى بها البشرية وكما ظل آل ياسر وبلال يتحملون
عذاب الصلب وثقل الحجارة فوق أجسامهم وضربات الشياطين فى
بطحاء مكة دفاعا عن الدين الجديد الذى آمنوا به ، وكما صمد
سبارتاكوس فى مواجهة الموت ، والأعداء يدقون جسدته بالمسامير
فى شجرة على الطريق الرومانى المعروف بطريق الصليبان دفاعا عن
قضية تحرير العبيد ، وكما استشهاد محمد كريم دفاعا عن مصر .

المسيح . آل ياسر . بلال . سبارتاكوس . محمد كريم .
شهيدى عطيه . . كلهم حلموا بالعدالة وبالخير والمساواة للبشرية ،

وان كانوا قد فقدوا أجسامهم فقد عاشت أرواحهم وانتشرت مبادئهم
واصبحوا في ذاكرة البشرية أعلاما خالدة لا تموت أبدا .

وقد سجل الشاعر فؤاد حداد - وكان معتقلا معنا بالأوردي ،
ملحمة استشهاد شهدي وملحمة التعذيب الذي عانىناه ، وبلغت هذه
الملحمة أربعة آلاف بيت كان يحفظها وكان يلقيها شفاهة ، ولم يكن
هناك ورق ليسجلها وكان بعض المعتقلين يحفظون أجزاء منها ،
ولا أعرف هل سجلها بعد ذلك كتابة أم ضاع كثير منها .

وقد بدأها بهذه الآيات :

١٥ من شهر يونيه سنة ستين ميلادية

كان فجر مش فجر كانت ليلة مقضية

متقدة بالسنين مش مغلقة

من الهموم هم الا ومبيتاه ليه

اتلظمت كل أيامي ولياليه

والقيمة بتعنى لا غاية ولا غيه

مقدرتش استحمل القيمة المعدية

ما أعرفش هيه حياتي والامش هيه

تشبه طيور الحنين أعناقها ملوبة

وأنا عنقي ملوى بفكر فى الحياة ديه

واسترجع الماضى وإيامه الرمادية

والدنيا ساكنة كان الدنيا مطفية

وفى المساء بعد أن أغلقت العنابر انعقدت جلسات تأبين
للشهيد تبارى فيها الزملاء خاصة من عرفوا فضله وزاملوه فى

البعثة الى انجلترا وفي نضاله الطويل في مصر كرائد في الحركة الشيوعية ومناضل صلب من أجل الاشتراكية ، وكان من الأوائل الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة سبع سنوات عام ١٩٥٠ قضاها كلها مقيدا بالأغلال الحديدية قبل أن يصدر الأمر بالغائها .

وهو من ألمع المثقفين المصريين الذين ناضلوا بالنشاط وبالفكر هجوماً على الاستعمار والاقطاع ودفاعاً عن الطبقات الشعبية ، مطالباً بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية . . كان يحاضر في دار الأبحاث العلمية ثلاثة أيام في الأسبوع منذ عام ١٩٤٦ ولم تنوقف محاضراته حتى قبض عليه ، وقد عمل رئيساً لتحرير مجلة « الجماهير » التي أغلقها الدكتاتور اسماعيل صدقي عام ١٩٤٨ وله عدة مؤلفات من أهمها تاريخ الحركة الوطنية المصرية ، وقد مهد النضال الذي شارك فيه لقيام ثورة ١٩٥٢ .

وقد دعا وناضل من أجل الوحدة الوطنية ومواصلة الثورة لطريقها لاستكمال أهدافها الوطنية والاجتماعية ، وحتى عندما قدم للمحاكمة قدم دفاعاً سياسياً يؤكد استمرارية هذا النهج ويحذر من قوى الرجعية والاستعمار التي تعمل على تفتيت الوحدة الوطنية والعودة بالبلاد الى سيادة الاستعمار والرجعية تحت سنار معاداة الشيوعية .

ولقد كان لشهدى بصمات مضيئة حتى وهو مقيد بالأغلال ، فقد كان له الفضل في موافقة مصلحة السجون على حق الطالب المسجون في المذاكرة ودخول الامتحانات أثناء تنفيذ العقوبة للحصول على مؤهلات جامعية مثل الطالب العادي ، وكان سبباً في ادخال الكهرباء لاضاءة الزنازين والعنابر في كل سجون مصر ، وهو الذي قام باصدار مجلة السجون التي لا زالت تصدر حتى اليوم .

كان شهدي يجيد اللغة الانجليزية كأحد أبنائها - بشهادة
الدكتور لويس عوض في حفل تأبينه بعنبر ٣ ، ولذا فقد كان أول
مفتش مصرى للغة الانجليزية فى المدارس المصرية ، وكان الانجليز
قبل ذلك يحتكرون هذه الوظيفة ، ولاتقانه للغة الانجليزية اتسع
نشاط دار الترجمة التى أنشأها بالزمالك .

كان شهدي فارح الطول وذا عظم عريض ، سامخ الرأس ،
تدل ملامحه على الثقة بالنفس وقوة الاعتزاز بها .

مات متأثرا بضربات فى الجمجمة وتمزيق لعدد كبير من أعضاء
الجسم الداخلية .

وفى رثاء الدكتور عبد العظيم أنيس لشهدي نورد هذه
الآبيات :

صورتك على عيني .. عين ثانية بشوف بيها

الجن والسجان واياهم بأسيا

وكل شومة فى ايد سجان ألقيا

اهم وأجرى ورا السجان استفسر

عن دم واقف على شومته يقول باصرار

شيوعى ؟ طبعا شيوعى

ورثاه الدكتور رؤوف نظمي ومن هذا الرثاء هذه الآبيات :

المكان اوردى الليمان بين المزارع والصخور

والزمن لحظة محن الشمس خايقة تشع نور

والبطل آه على البطل له فى البطولة تمللى دور

دخل البطل ولا فيش بطل زيك يا شهدي في ده النهار
فوق الخشب صلبك عجب والجلد فوق اللحم نار
ولا قلش آه

زق اللوا انطق ولد او تنجلد او نبعتك
تلحق فريد ترقد معاه

ومحسن الخياط وهو بالواحات حين سمع بموت شهدي ارنجل
هذه القصيدة :

مستقتلين ولا عمرنا نرعى السلاح من يدنا
مستهوتين ، نصحك لايم الجراح اللي اوتوت من دمننا
واحنا كده .. ان صنع اوجاع البجاء المحرومين من شعبنا
واحنا كده من صنع احوال النضال عد السنين من عمرنا
نبدر حياتنا على الطريق
ترويا ايام الضنا
تطرح هنا .. لا جلادين .. ولا سفاحين
حيثيروا طعم الكفاح من بقنا
طعمه جميل .. زيك يا نيل
والشمس رامية شعرها وراء ضهرها
زى الغدير اللي انسكب منه الذهب
وانت تسيل ، وانت يا نيل
تاخذ وتدي ارضنا (١٥)

(١٥) د. فتحي عبد الفتاح : شيوعيون وثاصريون ، ص ١٢١ .

الأوردي بعد مقتل شهدي :

أبلغت أسرة شهدي أكثر من نيابة لمباشرة التحقيق في الحادث وقبل مرور ٢٤ ساعة كانت عدة نيابات قد حضرت للأوردي وتوقف التعذيب .

حاولت ادارة المعتقل التعتيم على حضور النيابة ومنع المعتقلين من الحديث معها والادلاء بأقوالهم .. كان ضباط السجن يحاولون تضليل الزائرين حتى لا يعثروا على من يدلهم على الحقيقة ويرشدهم الى زملاء الشهيد شهدي الذين حضروا وعذبوا معه .

ولكننا بعد يوم من الحادث ، ولم تكن قد خرجنا الى الجبل لليوم الثاني أحسنا بحركة غير عادية في السجن ، فقد فوجئنا بصوت خارج العنبر يقول : فيه ايه هنا ؟ واجابة : ما فيش حاجة يا بيه ، ثم صوت يقول : وهوه وقع فين ؟ والاجابة وقع هنا يا بيه .

وهنا تنبهنا وأخذنا ندق على باب عنبر ٣ ونصيح : هنا مذبحة .. هنا جريمة هنا قتل شهدي عطيه ، وتسلق الزميل صبحي رياض عضو الحزب الشيوعي المصري (حدتو) نافذة عنبر ٣ المظلة على عنبر ٤ والطريق الممتد أمامهما حيث كانت النيابة تسأل ، شعر بحيرة الزائرين ومحاولة التضليل من ادارة السجن حتى لا يعثروا على أحد وصرخ : هنا قتل شهدي عطيه وبقية زملائه في عنبر ٢ كلهم مصابون ومخرجون بدمائهم وفي حالة خطرة ، ولدينا كلام نريد الادلاء به لصالح التحقيق ، ونحن مستعدون للشهادة وبدأ عنبر ٤ بخبط هو أيضا على الباب .

سمعنا صوتا يقول : افتح هنا ، وفتح باب عنبر ٣ ليسأل نفس الصوت : مين كان بيتكلم هنا ؟ كان صاحب الصوت هو رئيس النيابة المكلف بالتحقيق طبقا لأوامر جمال عبد الناصر في مقتل

شهدى عطيه - بدم صبحى رياض ، وكما - عدد من زملاء - معه ؛
قلنا ان هناك فى عنبر ٢ المجاور لنا مباشرة معملين هم زملاء شهدى
عطيه والذين حصرنا معه وعذبوا بسما قتل شهدى ، ونحن
مستعدون لسهادة .

ذهب رئيس النيابة وسعه عدد آخر وأمر بفتح عنبر ٢ ، وعندما
فسح هاله ما رأى لقد رأى أجسادا هدها التعذيب وأقعدتها عن الحركة
تنزف جراحها وتئن من الألم ، كشفوا عن ظهورهم فاذا هى قاتمة
الحمرة تتقاطع عليها ضربات الشوم وسياط الجلد وسرك بصماتها
المتورمة والملونة بلون الكبد ورأى الرؤوس والأذرع والأرجل وقد
حدثت بها الكسور ، والكدمات ، كان المنظر مبكيا يثير الآسى ويشد
التعاطف .

كان الزائرون رؤساء ووكلاء نيابة حضروا للتحقيق .

وهنا بدأ المحقق يصادع وأودعوا الجرحى المستشفيات ،
وبدأت النهم تلنف حول مجرمى التعذيب ومحترفيه ، وبدأت
المواجهات والاعترافات وتوجيه الاتهامات ، وتحول الذين استأسدوا
علينا الى بغات [طائر هزيل ضعيف] وبعد أن كان البغات بأرضنا
يستنسر عادوا الى أصولهم الدنيئة يرمون بالتهمة على أوامر
رؤسائهم وساداتهم أو يكسرون سواعدهم ويضمدونها ويدعون أمام
النيابة أن شهدى اعتدى عليهم ومات فى المعركة التى اصطنعها ،
ودافعنا عنها عن أنفسنا كما فعل حسن منير قائد المعتقل .

ويصف الأستاذ محمد يوسف الجندى ما حدث :

فى اليوم التالى (للمذبحة) فتسح العنبر فجأة ، ودخل من
يسأل : « من فيكم كان مع شهدى فى عربة الترحيلة » كان السائل
هو رئيس النيابة ، لم أسنطع تبينه جيدا ، كنت قد فقدت نظارتى

أثناء الجرى والسحل ، ولم أعد أرى جيدا ، وكان رئيس النيابة
كما عرست فيما بعد هو زوج أختي ، هو عرفني ، لكنني لم أتبينه
أو أتعرف عليه .

قلنا - ردا على سؤاله - كلنا كنا معه ، في هذه اللحظة تأكدنا
أن شهادتي قد مات .

بدا تحقيق النيابة ، وكان الضابط يوس مرعي ما يزال
يدخل العنبر وينادي « يا ولد » ، حاول عندما بدأت النيابة عملية
عرض للضباط الذين ساركو في هذا التعذيب ان يدفع الزملاء
الذين لم يضربوا الى الشهادة بأقوال مخالفة ، الا أنهم قالوا نفس
الكلام الذي قلناه ، قلنا كل شيء ، واخرجنا الضباط في عملية
العرض القانونيه ونعرفنا عليهم ، ظللنا في « أبو زعبل » أسبوعا ،
ثم نقلنا الى سجن القناطر رجال (١٦) .

طلبت النيابة رؤية الذين سمعوا عبد اللطيف رشدي وهو
يعطى أوامره بالجرى وضرب شهادتي ، وتم عرض قانوني لعشره
أشخاص من بينهم عبد اللطيف رشدي يرددون نفس الكلام ، وكان
وكيل النيابة يسأل الشاهد عن صاحب الصوت الذي كان يصدر
الأوامر ، وتعرف الزملاء في كل مرة على عبد اللطيف رشدي الذي
حاول مرارا التقرب من بعض المعتقلين وتبرير سلوكه الاجرامي
بهدف الافلات من قبضة العدالة .

أما حسن منير فانه عندما أحس بأن الخناق يضيق عليه عمد
الى تحطيم ساعده بآلة نفلة وضمده ساعده بالجبس مسعيا أن
شهادتي حاول الاعتداء عليه وأنه اضطر للدفاع عن نفسه فسقط
شهادتي قتيلًا خلال المعركة التي تمرد فيها .

(١٦) د . فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٤٢٦ .

توقف التحقيق وصمتت النيابة وأحيل همت الى المعاش
ونقل حسن منير لمصلحة الحدود وعبد اللطيف رشدي للصعيد ،
وهناك قتل وقيدت حادثة قتله ضد مجهول ، وتوفي الصول
مطاول مصلولا ، وقتل ابن الشاويش عبد السلام ووحيدته في
حادث سيارة .

وعندما صدر قرار الطفو الشامل من عبد الناصر ثار
المصيلحي فنقل بعيدا عن المباحث العامة .

توقف التعذيب في الأوردي ، ولكن الثمن كان غاليا - لقد
مات شهدي ففدى بموته مئات بل آلاف المعتقلين من محنة التعذيب
في كل سجون مصر ومعتقلاتها . . كانت الفضيحة عالمية .

بعد موت شهدي بدأت مراسم التعذيب تتفكك ، فالنمر
لا تلف في الصباح كما كان يحدث بل تركنا محتوياتها متناثرة ،
ورفضنا أن تلف للتفتيش - عندما طلبوا منا ذلك - ووقفنا أمام
السجانة والضباط وجها لوجه في تحد ، والخروج من المنبر
لا يتم جريا مثلما كان ، وفي الطوابير لا نتحرك فلا نستجيب للنداء
عندما يعلو « يمين در شمال در » ، كنا نتحدث معا ونتلفت حولنا ،
وفي الجبل لم ننفذ المقطوعة ، كنا نسير اليه في مشية حزينة ،
تحلل الضبط والربط ، أدركت الإدارة أن الأمر قد خرج من يدها .

كان عبد اللطيف رشدي يشعر بالحرج والعجز فيتصعب
عرقا محاولا تفادي حرجه بالانشغال عنا بأي شيء ، لذلك ألغيت
الطوابير ، ولم يبق سوى طابور اليكم .

وأوقف التعذيب ، ولم يعد نزول الجبل تكديرا .

بعد أسبوع من استنهاد شهدى اى فى يوم ٢٢ يونيو ١٩٦٠
زارنا مدير اليمان وفى يده خيزرانة وقال : أنتم رجال ، لقد
أثبتتم أنكم شجعان ما فات مات ، نحن أبناء اليوم ومنذ اليوم أمرت
بألا يكون هناك ضرب ، طلباتكم سوف تجاب مطلباً مطلباً ، وكسر
الخيزرانة على رجله ثم قال : من اليوم لا ضرب ولا شتيمة .

وجاء مدير مصلحة السجون ووكيلها وصرح بالتعامل مع
الكاننين فى حدود جنيهين للفرد ، ونقل طاقم السجن ، وجاءت
الأوراق والأقلام مع الادارة الجديدة ، واستمر الجبل فترة دون
تكسير ، ثم أوقف الخروج اليه .

الصمود :

تمثل الصمود أساساً فى قوة التحمل والصبر على آلام
العذيب وروح التحدى التى أطلقت فى الانسان المناضل قواه
الكامنة الهائلة التى تغلبت على العذاب والأمراض والجوع والعمل
الشاق المضنى .. كانت مقاومة فردية أغلبها سلبى ، وكل من
احتج بالكلام ضوعف له التعذيب .. ومن ماثورات حسن منير
قائه المعتقل أننا سنضربكم ، ان نفذتم التعليمات ضربناكم ، وان
لم تنفذوها ضربناكم .

وقال حسن منير لعبد المنعم شتلة حين احتج على الضرب :
« انت بتحتج على الضرب يا شتلة ؟ احنا بنشغلكم علشان نضربكم ،
الهدف مش الشغل يا شتلة .. الهدف هو الضرب .. ولن نوقف
الضرب .. لسه برضه بتحتج يا شتلة ؟ فقال : نعم مازلت أحتج ،
فضربوه على رجله خمسين شومة .

ولكن كانت هناك بعض صور المقاومة الجماعية انبى سم
فى العنابر ليلا بعيدا عن عين الادارة لرفع معنويات الزملاء ، كان
هناك الحد الأدنى من العمل التنظيمى الذى يحافظ على تماسك
الأعضاء داخل كل عنبر على حدة وبين العنابر فى لقاءات خاطفة فى
الجبل ، فرغم الضرب المتواصل والجو العصيب كنا ننتهز الفرص
فى الجبل لتبادل مع زملائنا فى العنابر الأخرى الأخبار
والتعليمات ، ونتسقط المعلومات وشده من أزر بعضنا ، وفى
العنابر كان هناك العمل السياسى والثقافى الذى اتخذ صورة مجله
هوائية أو الاستماع للأخبار النادرة التى نلتقطها من هنا أو هناك
من الايراد الجديد أو من بعض العساكر أو مقال أو محاضره
أو اجتماع أو حكاية قصة أو مسرحية أو ندوة ثقافية أو حفله
ترفيهية ، حتى الضحك والسخرية كن نوعا من المقاومة ، كما
كان هناك حوار فكرى بين التنظيمات المخلفة حول الرؤى السياسية
المتباينة وكان هناك صراع فكرى داخل التنظيم الواحد ، كما حدث
بين ع . ف والراية فى تنظيمهم .

حين صدر فى فبراير ١٩٦٠ تأميم بنك مصر بصاعد الصراع
بين الخطوط السياسية المختلفة .

كان هذا النشاط يرفع من وعى المعتقلين ويقوى معنوياتهم
ويمتن الروابط بين الاعضاء فى التنظيم الواحد ، ونعلو به على
المحنة ونجتاز الغمة .. كانت مواقف الصمود من البعض منا تشد
العزائم وتقوى روح المقاومة والتحدى .

كان ضباط السجن يحلو لهم من خلال تعذيبهم لبعض الضعاف
أن يسمعوا صرخات الاستغاثة ، وكان هذا الضعف يشجعهم على
المزيد من التعذيب ، كان الضعيف أحق التصرف لأن ضعفه يزيده

بعدياً حتى يروعون به ويخيفون سواء ، غير أن صمود البعض وتحمله للتعذيب يضايغهم ويدفعهم الى تقصير مداه حتى لا يشيع به روح العصيان والمقاومة فيكفون عنه ، ضربوا الدكتور عبد العظيم أنيس على رجله في فناء السجن أمام المعتقلين في طابور الصباح وعبروا عن سئاسهم في ضربه فرد عليهم بقوله « الى يلعب الدح ما يقولش أح » فأدركوا أن صموده قد يشجع غيره فتركوه .

كان المعتقل يصم بوعيات مختلفة من المعتقلين ، فهناك مستقلون لم يرتبطوا بأى تنظيم ، وهناك متعاطفون مع هذا التنظيم أو ذاك ، ثم هناك أعضاء منظّمون داخل الحزب الشيوعى المصرى (حدثوا) وكان هؤلاء يمثلون أقلية بين المنظمين ، ولم تكن قيادتهم المركزية أو أى فرد منها موجودة بالأوردي قبل مجئ قضية شهندي عطية ، بينما كانت غالبية المنظمين ينتمون للحزب الشيوعى المصرى (ع . ف - والراية وبقية الموحد) وكانت لجنّتهم المركزية ومكتبهم السياسى وأغلب كوادرهم موجودين بالأوردي .

كانوا يطلقون علينا المنقسمين ، وكنا نصفهم بالتكتل .

كانت أى مقاومة جادة منوطة بقرار قيادة المجموعة الأخيرة باعتبارها الأغلبية ، ولكنها تقاعست عن المقاومة ، وبررت ذلك برغبتها فى عدم تعريض الزملاء لمستوى من التعذيب الجسمانى قد يؤدى الى انهيارهم ، أى عدم المغامرة التى يمكن أن تؤدى الى الموت .

لقد افتتح الأوردي بهذه القيادة التى جرب عليها التعذيب واستقبلوها استقبالا حافلا فى ٨ نوفمبر ١٩٥٩ ونجحت التجربة ولم تواجه بمقاومة ، مما أغرى الجلادين على استمرار التعذيب وتصعيدة .

كما أن هذه القيادة - وقد جربت الاستقبال الحافل بالمعابة وكانت لديها فرصة للتفكير والتدبير في خطط مواجهة التعذيب - لم يرتفع لها صوت واحد بالاحتجاج على ما جرى للرفاق الذين وصلوا من الفيوم بعد ذلك بسومين ، ووقع الاعتداء البشع عليهم .

يقول نبيل صبحي : « لم تستجب القيادة للأسف الشديد لأي مطلب ، بل رفضت رفضا صريحا أي موقف بحجة أن الظرف غير مناسب ، وأن حركة تمرد يمكن أن تؤدي إلى مجزرة تذهب ضحيتها خيرة عناصر الحزب ، وحيث أن الكوادر الأساسية معتقلة فإن ذلك سوف يؤثر على مسار الحزب لسنوات طويلة .

ولم يصدر عن القيادة الحزبية أي احتجاج في مواجهة السخرة أو التعذيب أو التنكيل أو مقتل فريد حداد . . ثم تصاعد الارهاب » .

لقد سيطر الخوف على هذه القيادة فكان أن سرى الخوف إلى المعتقل كله .

وحاول حلمي ياسين أن يبرر تقاعس القيادة عن مساندة دفعات الفيوم بقوله : لماذا لم يرتفع صوت واحد ممن حضروا من الفيوم بالاحتجاج على ما جرى لهم ؟ حقيقة كانت القيادة خائفة ، إلا أنه يجب أن نعرف أنها كانت حالة عامة سادت المعتقل كله .

كان طبيعيا وقد تقاعست القيادة أن يضعف الالتزام بالتساند في مواجهة الارهاب رغم التكليف الحزبي ، ففي يوم الأربعاء الدامي تعرض عنبر واحد لتعذيب مضاعف فطلب من بقية العنابر مساندته بأخذ موقف احتجاج ، ولكنهم ردوا بأن أخذ أي موقف سوف يكون أعلى من مستوى العنبر لأنها عنابر مختلطة يصعب الزامها بأي موقف ، فشددوا حيلكم يا زملاء (١٧) !

(١٧) د. فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،

ويلجأ الدكتور فؤاد مرسى، أيضا الى تبرير ضعف موقف القيادة (الراية و ع . ف) وكان هو المسئول الأول فيها فيقول :

« استولى على أن هذا المعسكر انما هو معسكر تعذيب ، مثل أى معسكر تعذيب وجد فى ظل النازى ، وأن الغرض منه الا يخرج الشيوخ من أحياء سالمين ، وكان تفكيرى هو كيف أخرج هؤلاء الكوادر أحياء الى مصر ، وبالتالي استقر عندى أن نقبل قدرا معيننا من التعامل مع هؤلاء الناس ، ولا نجابه بالرفض الكامل الذى كان يعنى الاستمرار فى التعذيب حتى يسقط الناس الواحد بعد الآخر موتى أمامنا ، نقبل قدرا معيننا ونرفض قدرا آخر لكن لا آخذ موقف الرفض الكامل الذى يمكن أن يؤدى الى ابادة عدد كبير خاصة وأن المجموعة التى كانت معى هى المكتب السياسى واللجنة المركزية والكوادر الأساسية ، وهم قضية ال ٦٤ من هنا يمكن الحكم على هذه الفلسفة ذاتها لا فى تفاصيلها ، » .

ويعترف الدكتور فؤاد مرسى بأن الخط لم يكن خط مقاومة ، بل تكتيكات متنوعة الغرض منها ألا تحل بالمعسكر خسائر فادحة فى أرواح الناس ، مع محاولة تخير معارك معينة تؤدى فيها الدور الذى يرفع الروح المعنوية ويعوض الجزء الذى حدث فيه تنازل ، لكن أن يكون خط مقاومة فان ذلك كان خاطئا .

وأضاف الدكتور فؤاد نقطة أخرى كان لها أثرها من وجهة نظره فى عدم اتخاذ خط مقاومة وهى مسألة العزلة عن الخارج فيقول :

كنت أشعر أننا مقطوعون عن العالم ، وهذه نقطة أساسية ، مقطوعون حتى عن زيارة الأهل ، الزيارة التى تمت لى كانت استثناء بسبب وجود اشاعة فى العالم أننى قد مت أو أصبت

بالعمى ، هنا فكرة أن يكون هنالك صدى لما نفعله فى الخارج ، وان
ما فى الخارج يمكن أن ينعكس علينا ، وأنه يمكننا ابلاغ الخارج
بما يحدث لنا ، كل ذلك لم يكن موجودا ، وكان ذلك أمرا سيئا ،
كنا نحس العزلة وأنه يمكن إبادة كل الناس دون أن يرفع أحد
فى القاهرة أو الاسكندرية أصبعه احتجاجا على ما تم . . أقول لك
اننى لم أكن أتبين نهاية لهذا الذى يجرى . . . لم يكن هنالك من
يعلم عنا شيئا . . لقد القوا بنا فى جب ، ولم يعد أحد يعلم عنا
شيئا » (١٨) .

لكننا نستطيع أن نعرف : لقد كانت هناك فرص لكى يعرف
العالم ماذا يحدث من تعذيب فى أوردى ليمن أبى زعبل ، ولكنها
لم تستغل ، لقد تمت زيارة للدكتور فؤاد مرسى من أهله وكذلك
للدكتور اسماعيل صبرى ، وكان ذلك قبل استشهاد شهدى .

لذلك لم يكن غريبا أن يتساءل فاروق ثابت - وقد وصل الى
الأوردى مع مجموعة من الرفاق بعد مقتل شهدى يقول بعد أن
وزعت مجموعته على المنابر : « بدأنا نسمع العجب العجيب ، كنت
أفترج على الزملاء وأتساءل فى دهشة ، كيف احتملوا كل ذلك
الذى وقع عليهم ، كان شيئا فظيلا ، فظيلا للغاية ، والناس ما زالت
تضحك وتتكلم . . لقد نجحوا فى فرض عزلة شديدة على الزملاء ،
حتى أن الذين نالوا فرصة الزيارة ، لم يستطيعوا من الرعب أن
يقصوا على أهلهم ، ماذا كان يجرى فى الأوردى » .

ليس صحيحا ما يقوله الدكتور فؤاد مرسى « بأننا وقفنا
الوقفة الكبرى باستشهاد شهدى عطية وأنهم بعد موت شهدى قد

(١٨) د. فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ٩٧ ، ١٠٠ -

قرروا المقاومة الانتحارية أو المستميتة ، والى يقول ليكن ما يكون ونجحت .

يؤكد ذلك ما ذكره نبيل صبحي : « صدرت التعليمات من القيادة الحزبية بالمقاومة ، تقدمنا نحن من عنبر ٣ وكذا تقدم عنبر ٥ وهو عنبر عمالي باقتراح الامتناع عن استلام الطعام ، ورفض الخروج من العنابر ، رفضت القيادة الحزبية المركزية هذه المقترحات ، طلبت تأجيلها ، وقيل ان الموقف هو المقاومة السلبية ، بمعنى التباطؤ في الطوابير والعمل ، وعدم الهتاف بصوت مرتفع ، والحقيقة أن كل ذلك كان أضعف الايمان » (١٩) .

لقد تصاعد التعذيب في الأوردي الى درجة التوحس وتحول الضباط والسجانة الى حيوانات مفترسة ، انمحت آدميتها وانسانيتها ، وكان على الأوردي أن ينتظر لكي يتوقف التعذيب فيه الى فداء الدم ، الى تضحية في حجم تضحية شهدي ، والى ضجة عالمية واحتجاج غاضب يهز أركان الأوردي ويقتلع وحشيته ودمويته .

كان الفداء هو شهدي ، كان هو الركن الدافئ لصدودنا وشاطئ الأمان الذي أوقف التعذيب وأنقذ المئات من المعتقلين من التنكيل والابادة والموت البطيء .

اننا مدينون له بانقاذ حياتنا ، فقد استشهد لنعيش .

لذلك كان لابد من تصفية أوردي ليمن أبي زعبل ، ولم ينقض عام ١٩٦٠ الا وكان كل المعتقلين في الأوردي قد رحلوا الى الواحات ، ولم يبق فيه الا قضية الدكتور فؤاد مرسى لانتظار صدور الأحكام فيها .

(١٩) د. فخرى لبيب الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

الفصل الثامن

التعذيب والنفي بالسواجات

الترحيل الى اللوحات :

كانت أول دفعة ترحل للوحات في ١٥ يوليو عام ١٩٦٠ وكانت ضمن هذه الدفعة وبعدها بأسبوع واحد رحلت الدفعة الثانية .

قيدت أيدينا في الحجلات ، كل اثنين معا ، كنا نرتدي ملابس السجن . البيضاء ونحصل حقائبنا التي استلمنا بقاياها من الأمانات بعد أن أتت الفئران على أكثرها شخنا في السيارات ليلا حتى محطة الجيزة ، وقد أخلوها من الناس ، وفرضوا عليها حصارا محكما ، حتى لا يختلط أحد بنا أو يعلم عنا شيئا . . . كانت عملية ترحيلنا كأنها عملية تهريب تتم في سرية تامة بعيدا عن رؤية الجمهور . . . جاء قطار الصعيد في الساعة العاشرة مساء وبه ثلاث عربات خالية ، وهي من العربات المخصصة لنقل المواشي ، وبها مخلفات حديثة من روث البهائم . . . جلسنا على أرضية العربة بعد أن أزعجنا عنها ما أمكن من هذا الروث ، وتخلص بعض الزملاء ذوى الأيدي النحيفة من ملابس الحجلة . . . من شدة الإرهاق نام البعض منا مستندا على اكتاف أو أرجل أو ظهور البعض الآخر ،

نستنشق هواء ملوثا برائحة كريهة ، ونعاني من مطبات السكك الحديدية حيث تخلو العربات من الست ، كما يعاني من بقيت أيديهم في الحجلات - وكنت منهم - من تورم معاصمهم واحتقانها .

ورغم ذلك فقد كان يخفف من هذه الآلام تلك الرياح المنعسة التي كانت تتسلل إلينا وتحمل إلى أنوفنا عطر المزارع والحقول الطيبة التي تحيط بنا .

بعد رحلة طويلة استمرت عدة ساعات وضع الزملاء الذين تخلصوا من الحجلة أيديهم فيها مرة أخرى ثم نزلنا في محطة المواصلات التي تقع بعد سوهاج بعشرات الكيلو مترات ، وسط حصار منكم من المباحث والجنود المسلحين ، وانتظرنا هناك ساعة .

كانت القطارات القادمة من أسوان أو الداهية إليها تتوقف عند المواصلات ، ويشير منظرنا الرث وكثافة الحرس والحصار المضروب حولنا انتباه ركاب هذه القطارات ، كنت أأمل انفعالاتهم حين تفاجئهم الترحيلة ، كانت الدهشة والتساؤل يرتسم على وجوههم حين تصطدم عيونهم بنا ، كان بعضهم يشيرون والبعض يتهايمسون وآخرون في حالة غيبوبة .

ذكرتنا محطة المواصلات ، وتحرك القطارات منها بما حدث في يونيو عام ١٩٥٩ من مأساة حين رحلت الدفعة الأولى من معتقل عزب الفيوم إلى الواحات الخارجة ، كان عندها ٥٩ معتقلا شحنوا إلى بنى سويف مقيدين بالحجلات ، وفي بنى سويف ركبوا في عربة السجن الملحقة بقطار الصعيد وحين وصلوا إلى محطة المواصلات بدأوا في النزول من القطار ، نزلت مجموعة ومازالت أخرى داخل

القطار والكل مربوط بالحجلة ، وبدأ القطار يسحرك ، من في القطار تشبث بموقعه ومن على الأرض أخذ القطار يشدهم على الرصيف ثم الفلنسات والزلط ، وارتفع الصراخ ، ومع تزايد سرعة القطار تزايد خطر أن يشدهم القطار جميعا تحت عجلاته بمن فيهم من كانوا داخله كان منهم عبد الستار الطويلة وعزب شطا وشحاتة النشار وأبو ضيف عبد الجليل وشعبان الحدق وإبراهيم مرسى والدكتور رزق عبد المسيح وآخرون .

كان إبراهيم مرسى وأبو ضيف عبد الجليل في أول الطاير وأول من دخل عربة السجن في القطار ، وكان آخر من في السلسلة عبد الستار الطويلة وشعبان الحدق وهم أول من في السلسلة عند النزول .

أسرع المخبرون الذين احتشدوا في المحطة يشدون الزملاء حتى لا ينحشروا في الرصيف ويهرسوا بينه وبين القطار ، إلا أن البعض كسرت أيديهم وأرجلهم وهشمت ضلوعهم .

حكى عبد الستار الطويلة ، وكان أقرب المجموعة الى العجلة :

« كانت رأسي تدور بنفس السرعة التي تدور بها عجلة القطار كان مصري ومصري الأربعين الآخرين الذين يرتبطون بالسلسلة الواحدة يتوقف على مدى قدرتي في الابتعاد عن عجلة الموت ، وكنت قد سمعت ورأيت في الأفلام أنواع التعذيب في القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح الى ذيل حصان جامع أو عربة تجرها مجموعة من الخيول ، ولكن في هذه المرة كان قطارا جامعا .. صورة كلما تخيلتها حتى هذه اللحظة أغمضت عيني ، وزعدة شاملة تجتاح كل جسدي . »

ولقد تدخلت الصلصة تماما منلما فى الأفلام المصرية لكى لا تضى المأساة الى النهاية ، فقد تنبه حقير فى المزارع المجاورة لما يحدث وأطلق عدة أعيرة نارية ، مرت جواز السائق جعلته ينظر الى الخلف ليرى المأساة وليوقف القطار (٢٠) .

وهناك رواية أخرى تقول ان ضابط الترحيلة « على بلال » أطلق نار مسلسلته فتوقفت السائق ، وبدأت الترحيلة طريقها الى منفى المحاريق بالواحات .

بعد هذا الاستطراد نعود لترحيلتنا حيث وصلنا الى محطة المواصلات وانتظرنا هناك ساعة ثم ركبنا قطارا صغيرا من نوع قطار الدلتا مكونا من عدة عربات يجرها وابور ، كانت شبايك القطار محطمة .. هذا القطار هو الذى سينقلنا الى اعماق الصحراء الغربية .. الى الواحات الخارجة على بعد مائتين وخمسين كيلو مترا من وادي النيل ، حيث استقبلت لأول مرة معتقلين شيوعيين عام ١٩٤٧ من ضباط وصلوات سلاح الطيران ومنهم سيد سليمان رفاعى وفؤاد حبشى ويوسف مصطفى ومنذ ذلك التاريخ صارت منفى للسياسيين .

عندما نحرك القطار أخرج بعض الزملاء أيديهم من الحجلة مرة أخرى .. كان الحراس مطمئنين الى أنه وسط هذه الصحراء الشاسعة التى يضل فيها السارى لن يجرؤ أحد على الهرب .

القطار يسير بطيئا كالسلحفاة ويتوقف بعد كل مسيافة ، مما أعطى لنا فرصة لأن نتأمل .. من خلال النوافذ المحطة - مناطق من أرض مصر لم نرها من قبل وهى الصحراء الغربية .

(٢٠) د . فتى عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ٧١ .

ترك القطار الوادى الأخضر بعد عدة كيلومترات من محطة
المواصلة وبدأ يتوغل داخل الصحراء بين كثبان من الرمال
والهضاب .. تتحراء مقفرة من الحياة سوى الشجيرات والحيات
والذئاب والضباع وقد تناثرت هنا وهناك بعض الهياكل العظمية
لحيوانات الصحراء ، كما أخذت تفرع وتفر حيوانات أخرى أمام
صفارة القطار وحركته .

هذا القطار كان يهتز ويتراقص وينفث دخانا أسود يصب
فى عرباته مع ذرات الرمال فتكسو وجوه الرفاق بالوان قاتمة .

صحراء خالية من الزرع ، وان وجد بها واد يشتمى بوادى
البطيخ ، فليس الاسم على حقيقته ، بل البطيخ عبارة عن حجارة من
حوان صلب مستدير الشكل غامق اللون مستقر هناك منذ ملايين
السنين .

خلاء واسع موحش وبحار من الرمال وسكون يشبه العدم
وأحسست بالضالة التى تعيشها مصر ، وبقرمية المساحة التى
يتزاحم عليها شعبها ، أدركت سبب ما يعانى من فقر وضيق فى
العيش ، وتجاهل حكاه مع تغاقب الزمن للتفكير فى مستقبله
وتوسيع وتنويع مجالات الحياة أمامه .

أحسست أمام هذا السكون الغامض بالوحشة والخوف
والافلاس وعدمية الحياة ، ورأيت هذا الاحساس مرتسما فى عيون
الرفاق - التى بدا عليها الارهاق - وفى وجوههم التى كستها
الرمال بلونها الأصفر ، وفى السننم التى مكنت عن الكلام .

وأخيرا وبعد أكثر من سبع ساعات قطعها القطار منذ غادرنا
المواصلة ، وصلنا الى محطة المحاريق ، وكان السجى يبعد عنها

قليلا - كان الوقت ليلا ، فلم نتبين معالم عزبة المحاريق ، سرنا
مشيا على الأقدام نفوس في الرمال وكل منا يحمل حاجياته ويشعر
بالتعب والارهاق بعد رحلة استمرت ٢٤ ساعة بينما صوت الحجلة
يرن في آذاننا .

اقتربنا من السجن وسط صفين من العساكر يقفون في حالة
استعداد .

دخلنا بوابة السجن كبقايا جيش مهزوم ، هياكل بشرية
كانها أشباح أسطورية ، ملابسنا قذرة .. ذقوننا طويلة ، شعر
رأسنا حليق .

استقبلنا فريد شنيشن قائد السجن ، لم نسمع كلمة جارحة
كما كان معتادا .

علمنا أن سعد التائه وأحمد البدينى المحامى ومحمود
السعدنى سيعودون في نفس القطار الى القاهرة تمهيدا للافراج
عنهم ، كما علمنا أن الدكتور لويس عوض والدكتور عبد الرازق
حسن - وهما لا زالا بالأوردي - سيرحلان الى سجن القلعة تمهيدا
للافراج عنهما .

فكروا قيودنا .. وزعنا على الزنازين التى فرشت بالأبراش
والبطاطين كل خمسة في زنزانة من زنازين عنبر ٢ .. رحب بنا
الزملاء .. تلاقى الأحضان ، وكان دفء لقاء الزملاء يعبر عن
مواساتهم لنا عن شهور المحنة التى عشناها فى أوردي ليمان أبى
زعبيل .

التعريف بسجن جناح :

الواحات الخارجية مناخها قارى ، حرارة الشمس بها أشبه
بلهب الحريق ، حينما تسقط فوق رأسك تكاد تحز عنقك ،
وبردها القارص يصل الى تحت الصفر ، وهواؤها يشارك فى نحت
الوجوه .

من هنا اتخذتها حكومات الطغيان والاستبداد التى تعاقبت
على حكم مصر قبل الثورة منفى لقادة العمل السياسى والفكرى
المعارضين لها .

وحتى فى العصر الرومانى تعرض المسيحيون الأوائل فى
القرن الميلادى الأول لعسف واضطهاد الحكام الرومانيين وتعقبهم
هؤلاء فى الصحراء الغربية عند الواحات الخارجية حتى أحرقوهم فى
أحد أخابيدها ، ومازالت هناك بالقرب من سجن المحاريق بعض
المقابر والشواهد التى يزورها المسيحيون من حين لآخر احياء
لذكرهم .

وقامت ثورة ١٩٥٢ بفتح هذا المنفى من جديد للشيوخين
وللاخوان المسلمين ولبعض المسجونين الجنائيين العاديين المحكوم
عليهم بالأشغال الشاقة ، فأقامت فى منطقة صحراوية جرداء اسمها
جناح سجنا من خيام وأحاطته بالأسلاك الشائكة رغم أن المكان
لا يسمح لانسان بأن يخاطر بالهرب .

كان من أوائل من شرفوا هذا المكان بعض ضباط وصولات
الطيران منهم سيده سليمان رفاعى وفؤاد حبشى ويوسف مصطفى .

والحق هذا السجن بسجن ليمان طره ، ولكن الحياة فيه
تميزت بالبدائية ، فقد ترك نزلاؤه ليدبروا حياتهم بأنفسهم ،

يقيمون في الخيمة في السجن بما يتناسب مع إمكانياتهم وظروف
السجن. لكن بالمنطقة ماء ولا كهرباء ولا مطابخ ولا أفران ، وعليهم
أن يجهزوا طعامهم في جرادل من مكان يبعد حوالى خمسة كيلو مترات ،
الى أن يجهزوا مد مواسير المياه الى السجن ، فهم يقومون بأعداد
طعامهم وتجهيز خبزهم ، وبأعمال الزراعة وتربية الطيور والدواجن
وكان على ادارة السجن أن تجلب لهم الدقيق وبعض المواد الغذائية
وتقوم بالحراسة الخارجية .

واذا كانت الحاجة هي أم الاختراع فقد فرضت البيئة المادية
على الزملاء أن يعملوا أفكارهم ويبدعوا من الأشكال والأدوات
ما يستطيعون به مقاومة سلبيات البيئة من خلال مواد البيئة نفسها
فاخترع سيد سليمان رفاعى وفاروق عبد السلام نموذجا معماريا
جديدا من مواد البيئة ومقاوم لها ، فقد وجدوا الرمال ممزوجة
بمواد جيرية وطفلية يمكن أن يتكون منها خلطة بناء جديدة ، فحفروا
الأرض الى أعماق تتجاوز المتر والنصف ومن ناتج الحفر صنعوا
خلطة ارتفعوا بها حوائط حول الحفرة وبنوا سلالم تقودهم الى
قاعها ، وجعلوا فى الحوائط فتحات للتهوية ، وأقاموا فى أرضية
هذا البيت من نفس الخلطة دككا ينامون ويجلسون عليها ،
ومناضد يلتفون حولها للطعام وغطوا السقف بالبطاطين أو عروق
الخشب .

وشكل سعودى مطحنة من صاج البراميل مكتبات ودواليب ،
وأرسل الأهالى لهم أدوات الرسم ، فمارس الفنانون : وليم اسحق
وداود عزيز وصلاح حافظ وغيرهم هوايتهم - بعد أن صنعوا حوامل
الرسم - فرسموا الجو المحيط بهم من خيام وصنخراء وطبيعة برية ،
كما رسموا صور العديد من الشخصيات بالسجن فى خيمة خصصت
لرسم ، وقد عرضت صورة رسمها وليم اسحق فى معرض أقيم

عام ١٩٦٤ وشاهده الكاتب الفرنسي جان بول سارتر ، واعتبرها
من أحسن الأعمال المعروضة .

استمر التسيويون في سجن جناح ثلاث سنوات ثم نُهر
في أغسطس عام ١٩٥٨ اغلاق جناح ونقلهم الى السجن الجديد
« المحاريق » وهو سجن مغلق في قلب هذا الجحيم .

ورغم أن التسيويين تنقلوا في سجون كبيرة ، كان أكثرها
بدائية هو سجن جناح ، غير أنهم لم يشعروا بارتباط بالمكان قدر
شعورهم بالارتباط بجناح ، لقد تملكهم متاعر انسانية فياضه
ولا شك أن سبب هذا هو أنهم في سجن جناح قد صنعوا فيه كل
شيء ، خلصوا من هذا المكان الموحس والصحراء الجرداء حركة تنبض
بالحياة بجهدهم وعرقهم .. لقد استأنسوا الصحراء التي لم تر الماء
منذ آلاف أو ملايين السنين وطوعوها فجادت بالأشجار وأخرجت
الثمار والورود والأزهار ومارسوا تحت سمائها أرقى ما يمارسه
الانسان : قرأوا وكتبوا .. غنوا ورقصوا .. علموا وتعلموا ..
تجاوزوا مع أنفسهم ومع الآخرين .. مع الأرض والسماء مع الشجر
والزرع والورود والأزهار ، كان الحوار مستمرا يجدد الحياة
ويطورها للأفضل .

لقد عز على الزملاء وهم يستعدون للرحيل الى السجن الجديد ،
أن يلفظ الحياة أنفاسها الأخيرة في هذا المكان ، فالخيام سقطت
في أماكنها في انتظار من ينقلها الى المخازن ، ومخازن الطعام
والمخبز والمطبخ أصبحت خاوية ، هربت منها الفئران ، والقطط
تجري مذعورة في الأرض الخلاء ، لن تجد ما تقتاته بعد اليوم ،
وأشجار الخروج التي زرعوها حول الخيام .. كي يستظلوا بظلها
قد جفت أوراقها وتراخت فروعها ، وزهور عباد الشمس أوشكت
على الموت بعد أن توقف تدفق الماء الى جذورها .

قبل الرحيل جلس بعض الزملاء الى جوار أمتعتهم يتأملون ،
وترك بعضهم أمتعته وجلس الى جوار مزرعته الصغيرة يتأمل
ورودها تارة ، يرش عليها الماء تارة أخرى .. سوف تموت هذه
الورود بعد قليل ، لكنه حرص على أن يسقيها حتى لا تموت أمامه ،
ووليم اسحق « ملك الصحراء » يحتضن أدوات رسمه ويجلس الى
جوار خيمته ومسكنه ومرسمه يلقي عليها نظراته الأخيرة قبل أن
يرحل عنها (٢١) .

كانت هذه مظاهر لقوة العلاقة التي ربطت الانسان بالمكان -
لم يشعروا بالارتباط بالمكان مثلما يشعرون في ذلك الوقت .

سجن المحاريق :

هذه التسمية « المحاريق » يعزوها البعض الى شدة وقسوة
أشعة الشمس في تلك البقعة التي تحول كل شيء الى لون داكن
أو فاحم ، فالرمال والأشجار في حالة شبه احتراق ، حتى الانسان
في هذه البقعة - صار قزما نحيلاً شاحب الوجه به سمرة داكنة
من نقص مركبات الكالسيوم والفوسفور المفقود في ذلك المكان ،
ومن قضى من الزملاء مدة طويلة في هذه البقعة كانوا كالأشباح
وجوههم شاحبة وعيونهم غائرة .

الاسم اذن يعبر عن مسمى ، والمكان يعتبر بحق محرقة ، فهو
أقرب الى لهيب الحريق .

ولكن هناك من ينسب هذا الاسم الى ما فعله الرومان في
المسيحيين الأوائل الذين هربوا بدينهم الى هذه البقعة ، فقد
أحرقوهم في أحد الأخابيد .

(٢١) مصطفى طيبة : رسائل سجين سياسي الى حبيبته ، ج ٢ ، ص ٥ .

لم يبن هذا السجن على شاكلة سجن جناح المفتوح ، لكنه
مكون من عنابر وذنابين وله أسوار وبوابات وأبراج حراسة ،
انه سجن مغلق فى قلب هذا اللهب المحرق .

لم يكن هناك سور فى بداية الأمر للسجن ولا بوابة ، وإنما
كانت هناك أسلاك شائكة حول السجن بها فتحة للنفاذ منها الى
الداخل ، ثم بنى السور والبوابة بعد ذلك .

حين وصلنا اليه من أوردى ليمان أبى زعبل فى ١٥ يوليو
١٩٦٠ كان ذلك قد تم .

يقع السجن وسط صحراء شاسعة وهو يشتمل على ثلاثة
عنابر مستطيلة من طابق واحد مرتفع عن الأرض بخمس درجات
سلم ، وكل عنبر به عشرون حجرة ، مساحة كل منها ٦ × ٦ تسع
الواحدة ما بين ١٢ الى ٢٠ فردا حسب الكثافة فى السجن وكل
حجرة بها باب نصفه الأسفل من الحديد المصمت ونصفه الأعلى
عبارة عن شراعة بها أسياخ حديدية حتى يتمكن الحارس من رؤية
كل شئ فى الزنزانة وللحجرة نافذتان عاليتان مدعمتان بالحديد
لا تستطيع أن تطل منهما على الصحراء الواسعة الا اذا حملك آخر .
وفى منتصف العنبر يقع الباب وأمامه حجرة الضابط وعلى كل من
اليمن واليسار جناح به عشر حجرات ، خمسة فى مواجهة خمسة
وبينهما طرقة وفى نهاية كل من جناحى العنبر دورة مياه بها خمسة
محلات وبكل محل دش وفى نهاية دورة المياه ثلاثة أحواض لغسيل
الوجه .

وكل جناح له باب من ضلعتين ، وبين بابى الجناحين يجلس
السجان يحوار الباب الرئيسى للعنبر .

ويغذى السجن ومراقبه ومساكن الضباط وحيام السجانة
بمياه من الماكينة القائمة على احدى العيون .

كانت جدران العنابر من الحجر الجيرى ذى القدرة الخاصة
على امتصاص حرارة الشمس ، وسقوفها وأرضياتها من الأسمنت
المسلح ، ويتميز بقدرته على الاحتفاظ بحرارة الشمس فترة طويلة ،
وتشع علينا الجدران والسقف حرارة الشمس التى امتصتها طول
النهار لتسع وجوهنا ثم الجزء الأعلى من أجسامنا العارية ، والحرق
يتصعب دون توقف ، حتى الهواء الذى يصل إلينا من النافذتين
العاليتين ، وكأنه مر على جهنم قبل أن يأتى إلينا .

كان المسجونون الشيوعيون يسكنون عنبر واحد والاخوان
المسلمون يشغلون عنبر ثلاثة أما المعتقلون من الشيوعيين فيشغلون
عنبر اثنين .

كان أهل الواحات يطلقون على هذا السجن اسم السرايات
وعلى المسجونين فيه سكان السرايات .

نقل المسجونون معهم من جناح « كل كتبهم والأعمال الفنية
الزيتية أو المصنوعة بالرصاص وغيرها وأودع كل هذا فى مرسم
أقيم فى ركن من أركان حوش السجن الجديد .

زار مدير مصلحة السجن سجن المحاريق وخرج غاضبا بحجة
أن السجن نموذج للفوضى وتوعد بإرسال اسماعيل همت وفرقة
ليضع الأمور فى نصابها ، فعلا جاء همت وجمع كل هذا وأشعل
فيه النيران

رغم وحشة الصحراء ومرارتها وحرارة الشمس التي تكوى
الجسد ، وصقيع الليالي الطويلة المجهدة ، ورغم احساس الانسان
بان الدنيا قد نسته وتخلت عنه - غير أن لهذا السجن ميزة في
فترات التعذيب لا تتوفر للسجون الأخرى ، فبعده عن مركز
السلطة وغيوبها المباشرة واحساس الضباط والحراس بالنفى
والعزلة والبعد عن الأهل ومباهج الحياة بالمدينة ونعيمها وأضوائها
وحياتها المتجددة ، والشعور بالتقشف والاحساس بجفوة الصحراء
وخشونتها جعلهم يشعرون بالظلم والاجحاف الواقع عليهم ، وقد
فرض هذا عليهم أن يقبلوا نوعا من الحياة فيها التعايش مع السجناء
والمعتقلين ، لأنهم اذ حدث لهم طارئ فقد لا ينسحبهم سوى هؤلاء
المعتقلين والمسجونين ، لذلك كان الضباط لديهم نوع من
التحرر من سلطة قيادتهم المركزية ومن سلطة المباحث العامة ،
فتصرفوا ببساطة وأحيانا بتآخ مع المساجين الذين يعيشون معهم
نفس الحياة ، ويشتركون تقريبا في نفس الطعام ونفس البعد عن
الأهل والنفى من الوطن والكراهية لمن أرسلوهم الى هذا المكان
السميق ، كما كان هناك الاحساس بالخطر المشترك من الحيات
الخطرة والمقارب .

يؤكد كل هذا أن حملات التعذيب التي كان يأتي اليها
اسماعيل همت من القاهرة ليشرّف على ارادتها كانت موقونة
بوجوده ، وتتوقف حميتها بمجرد مغادرته .

لم يكن الضباط والعساكر متحمسين لمثل هذه الأعمال
القسوة والوحشية ، كان العساكر والشاوشية يعتذرون في اليوم
التالى عما حدث منهم من ضرب ، وقد أقسم أحدهم بالطلاق أنه لن
يقوم بضرب أحد مرة ثانية ، حتى لو كان الوزير هو نفسه الذى
يأمره .

كان هناك احساس مشترك بالغربة وبالخطر ، فقد كان أول ضحية من لدغة الطريشة من العساكر ما عمق الاحساس بالضغط ، وانهارت الحواجز بين المعتقلين والعساكر .

من هنا خلقت الظروف مساحة من التعاطف بين صفوف ادارة السجن مع المعتقلين مما خفف من خشونة المعاملة .

تطور المعاملة داخل السجن قبل وصولنا :

بعد أن قام همت بإحراق الكتب والملابس تغيرت ادارة السجن ، جاء ضباط جدد وأمور عصبي ومتزمت أغلق الزنازين وألقى طوابير الفسحة وضيق على المساجين ، ولكن سريعا بدأت القبضة تتراخي ، وكان الفن هو طريق الانفراج .

فقد عرض وليم اسحق إحدى فازاته على مأمور السجن ، وتبناه الى وجود طينة نادرة حول السجن يمكن صناعة أوان وفازات فاخرة منها ، فسمع لهم بإحضار الطين وتخصيص غرفة للعمل بها وعمل حوض لعجن الطفلة واعدادها ، وبناء فرن لحرق المنتج من الخزف ، وبدأ الزوار يتوافدون لمشاهدة المنتجات ، ووافق المأمور على تخصيص حجرة للرسم ، وانضم بعض الزملاء الى ورشة السيارات للقيام بأعمال الصيانة والاصلاح ، وكان هذا يعد انفراجة في حياة السجن .

ثم جاءت الدفعات الجديدة من المعتقلين في مارس ١٩٥٩ وهي الدفعة التي قبض عليها في أول يناير ١٩٥٩ واستقبلها همت دون ضرب ، ولكن بدأ التضيق على السجن .

احتل المعتقلون القادمون نصف عنبر واحد بينما يحتل
السجناء الشيوعيون النصف الآخر ، وكان في الامكان الالتقاء فيما
بينهم .

كانت زنازين المعتقلين خاوية ليس بها سوى جردلين أحدهما
للتشرب والآخر للبول ، وكانت الزنازين تفتح فقط في الصباح وفي
المساء لقضاء الحاجة في دورة المياه ، كما كان المعتقلون يخرجون
لطايرى الصباح والمساء ولم يتجاوز كلاهما نصف الساعة ، ولم
تتخذ الادارة موقفا معاديا من المعتقلين غير أن الطعام كان شديدا
السوء .

كان الوضع في سجن المحاريق عجيبا ، حيث توجد ازدواجية
في الاشراف على هذا السجن ، فالسجن يتبع مصلحة السجون غير
أن المعتقلين فيه يخضعون للمباحث العامة .

وحيث قررت المباحث العامة وأجهزة القمع تصعيد سياسة
التعذيب والانهاك لتحقيق التصفية السياسية والفكرية للشيوعيين ،
بدأت هذه السياسة بأوردي ليمان أبى زعبل بشكل وحشى لا مثيل
له وامتدت هذه السياسة الى سجن المحاريق بالواحات الخارجة ،
ولكن بدرجة أقل نوعا ما نظرا لظروفه التى سبق توضيحها .

كان اسماعيل همت وشرقه يتنقل بين السجنين متحمسا لهذه
المهمة حيث يجد فيها نفسه على ينسفى من خلالها أمراضه
المستعصية .. كانت قمة التعذيب وحميته فى الواحات تقترن
بساعات وجوده ، وتخف أو تتلاشى برحيله - كان السجنانة
يتنفسون الصعداء برحيله ، ويجدون فى بعده راحة لهم ، ولذلك
سرعان ما تعود اليهم مشاعرهم المشتركة مع المعتقلين .

فى يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩ بدأ تطبيق سياسة تصعيد التعذيب فى سجن المحاريق ، وصل همت وفرقة ٠٠ امتلا السجن بالعسكر والكل مسلح بالبنادق والعصى والكرابيج وجريد النخيل ٠٠٠ طلقات رصاص ، أقدام تجرى وتهرول تختلط أصواتها بوقع أقدام النخيل التى تصول وتجول فى فناء السجن وبين العنابر .

صدرت الأوامر بأن يجمع كل معقل حاجياته ويستعد ، وفجأة اتخذ السجناء سمًا متجهما خسنا فى التعامل ، وأصبح الصوت الوحيد الذى تسمى أصداؤه فى طريقة العنبر هو صوت أحذيتهم الثقيلة ، وتسليح كل منهم بالتسوم أو جريد النخل ، وتصاعد صوت ضابط العنبر بأوامر صارمة نطلب النظام والسرعة وعدم الكلام أو الحركة .

أخرج الجميع من عنبر واحد الذى كانوا يسكنونه مع المسجونين ، وكل يحمل حاجياته ، وتجمعوا أمام هذا العنبر ٠٠ فرض على الجميع أن يجلسوا القرفصاء ووجوههم الى الأرض ، وحولهم احتشد عدد كبير من الحراس والسجانة المسلحين بكل أنواع الأسلحة ومعهم فرقة اسماعيل همت ، ومن حاول أن يرفع رأسه فوجيء بضربة من حذاء أو شوم على رقبته فتخر رأسه الى الأرض .

أدخل الجميع الى عنبر اثنين ، ثم بدأوا يخرجونهم على دفعات ، كل دفعة مكونة من ستة من الزملاء يتبعهم مجموعة من العساكر بالبنادق والتسوم تعذبهم - بالضرب والسباب والشتائم البذيئة - على الجرى وسط صفين من الجنود الذين يتساولونهم أيضا بالضرب والسب .

ويسمع باقى من بالعنبر الذين ينتظرون دورهم صرخات السجناء والجنود تعوى ٠٠ اجر ٠٠ اجر ٠٠ اجر ٠٠ ار كع ٠٠

اركع ٠٠ اركع ، وصراخ يعلو : اسمك ايه يا كلب ، اسمك ايه
يا ابن القحبة .

ويسمر طاير الجرى والمطاردة والضرب ، والويل لمن ينثر ،
فانه يلاقى ضربا مضاعفا ، وتتواصل المطاردة حتى خارج بوابة
السجن ، حيث يجلس همت على منصة عالية وحوله المأمور وبعض
الضباط وهنا يواجه الزميل بمن يمزق ملابسه ويأمره بخلعها مع
وقع ضربات الشوم والجريد على كل جزء من جسمه ويصبح الزميل
عاريا تماما مطالبا بالركوع أمام الحلاق لحلاقة شعره ثم اسنلام
ملابس السجن . الطويلة . القصيرة ، الواسعة الضيقة . . كل
ونصيبه . . ثم اسمك ايه يا ولد . . اسمك ايه يا كلب . . .

كل هذه مراسم نم مع الضرب والشتائم المقذعة ، ومن تبدو
منه شبهة احتجاج ضوعف له الضرب وجلد على العروسة كما حدث
لفخرى لبيب الذى أشرف على الموت من التعذيب .

جمع همت بعض حاجيات المعتقلين وأشعل فيها النيران .

ورغم أن الصاغ الدكتور محمود القويسنى يعرف همت ويعرف
نقاط ضعفه ، ويعرفه همت جيدا - وقد توسل له همت - كما
سبقنا الإشارة الى ذلك - لاعادته الى الجيش بعد فصله رغم ذلك
بدأ همت يمارس هوايته المفضلة مع الرجال العرايا .

أشار الى الدكتور القويسنى : اسمك ايه يا ولد - الصاغ الدكتور
محمود القويسنى - صاغ ايه ودكتور ايه يا ابن القحبة - اسمك
ايه يا ولد - الصاغ الدكتور محمود القويسنى - بتتحدى يا بن ال . . .
والله لحط العصاية دى فى . . . عيب يا اسماغيل يا همت !! وكانت
العصى تتوالى على جسده العارى وهمت يشارك فى الضرب .

كانت الدفعة تعود الى العنبر لتواجه بنفس الضرب ، ثم تأتي
دفعة ثانية .

واذا كان هدف هذه الحملة وغيرها هو الاذلال .. ورغم أن
المعتقلين بملابس السجن التي فرضت عليهم وبالحلاقة المشوهة قد
صاروا كفرقة من المهرجين .. رغم كل هذا فقد واجهوا حملة همت
بالسخرية والضحك ، وتصاعدت روح المقاومة والاصرار .

لم يكتف همت بما حدث من تعذيب في ٨ نوفمبر ١٩٥٩ إنما
تطبيقا لسياسة التصفية من خلال التعذيب والانتهاك ، جاء همت
في اليوم التالي بغارات صباحية ، فتحت الزنازين الواحدة بعد
الأخرى ، وانهال العساكر على الزملاء بالضرب بالقوايش والخيزران
ثم أخرجوا من العنبر الى فناء السجن ليجلسوا القرفصاء منكسي
الردوس في جو شديد البرودة - الأجسام شبه عارية ، لا تسترها
سوى غلالات خفيفة مهلهلة هي ملابس السجن ، ويعصف بها البرد
القارص المستبد ، والأقدام حافية لا تقوى على لسعات الرمال
تحتها ، وقد تحولت الى ذرات من الثلج يسرى من القدم الى النخاع
فتتجمد الدماء في العروق ..

استمر الوضع هكذا حوالى الساعة حتى نملت الأرجل وانعدم
الاحساس بها واستبد القلق بالمعتقلين يحيط بهم عدد كبير من
الحراس والسجانة ومأمور السجن والضباط والكل مسلح بكل أنواع
الأسلحة ، ثم نفخ بروجي اللواء وجاء همت وفرقته ، وصدرت
الأوامر بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن الخلفية بين صفين من
الحراس بالمدافع الرشاشة بينما العساكر يتناولون الزملاء بالعصى
والكرابيج وجريد النخيل مع السباب والشتائم ، وعند بوابة السجن
طلب همت من المأمور أن يوقع على كشف البوابة فطلب المأمور من

ضابط عنبر المعتقلين ووكيل السجن عبد العال سلومة أن يوقع علي الكشف ، ولكن هذا رفض بحجة أن هذه ليست مسئوليته ، وكان معروفا عنه صلته بالمباحث العامة وعداؤه للشيوخيين ، فطلب همت من الأمور أن يوقع لأنها مسئوليته فوقع الأمور وبذا أصبح مسئولا عن سلامة المعتقلين .

خرج المعتقلون من البوابة في صفوف أربعة يحرسهم من الجانبين جنود الجنزيرين المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة وكذلك فرقة همت المسلحة ، أما في المقدمة فيجلس همت والامور والضباط في عربات الجيب ، سار الموكب أربعة كيلو مترات ، وتوقف عند واد صغير يقع بين تلين من الرمال ، وأسرع همت الى الصعود على أحد التلال كما أحاطت فرقة الزملاء من كل جانب بالمدافع الرشاشة ، وأراد همت أن ينفرد هو وفرقة بالزملاء فطلب من الأمور وضباطه وجنوده أن ينسحبوا ، ولكن الأمور لم ينفذ أوامر همت ، بل أصدر أوامره لضباطه وجنوده بالالتفاف حول المعتقلين والبقاء معهم ، ويرتفع صوت الأمور : اسمع انت وهو أنا عندي أوامر بضرب النار عند أي تمرد فاهمين ٠٠٠ مش عاوز أي تمرد ، دلوقتي الفتوس والفلقان راح تتوزع عليكم ، مطلوب أنكم تنقلوا التلال الرملية دي ، أي تقصير في العمل راح أضرب بالنار فورا ، ووزع الزملاء الى فرق عمل ، واستمر العمل كما استمرت الشتائم والضرب ٠٠ ويعلو صوت همت : العساكر تشد حيلها شوية في الضرب ، الأولاد اللي هناك دول ماشيين على مهلهم بيتفسحوا والا ايه ؟ ولاد ال ٠٠٠ ضرب الكرابيج أحسن ٠٠ عاوز أسمع صراخهم ٠٠ اضربوهم زي الكلاب ، ولكن لم تصدر عن أحد من المعتقلين صرخة واحدة .

فى الساعة الرابعة بعد الظهر عاد المعتقلون الى السجن ،
ولما نفخ البروجى فى النفير ومتى اللواء توقف الضرب وبصق الجميع
عليه : المعتقلون والسجانة .

ولكن المعتقلين عادوا من هذه العاصفة العساوية من الظلم
والتعسف وفى أجسام بعضهم آثار من هذه الهجمة الوحشية ، فهناك
من كسرت ساقه أو ذراعه أو بعض ضلوعه .

وحال هذه السخرة نسال الكثيرون : هل عاد زمن
العبيد ؟!

فوت الزملاء على همت مؤامرتة النى كانت تهدف الى تدبير
مذبحة حقيقية ، فأحنوا رؤوسهم قليلا حتى مورت العاصفة .. كانوا
يقدرون أنها عاصفة مؤقتة سريعا ما تهمد وتتوقف ، رغم أن قائد
المعتقل قد حرص بعد ذلك على أن يقوم بغارات صياحية يقوم فيها
بفتح الزنازين وضرب المعتقلين بالقوايش والعصى مرة كل أسبوع
أو عشرة أيام حتى يظل الجو ملتهبا ، وحرص على أن يأتى الى الجبل
مرة فى الأسبوع لينشط التعذيب ، وليتحول الجبل فى ذلك اليوم
الى حركة سريعة تترك فيها العصي والكراييج على أجساد المعتقلين
بصماتها من دماء متفجرة على الجبهة أو الرأس ، أو جسد ممزق
من الجلد على العروسة ، أو أرجل تعرج من ضرب الفلكة أو ضلع
مفقود من ضرب الشوم حتى رأس السنة لم يخل أيضا من المعاناة
والتذكير بالتعذيب ، فقد اهتم الزملاء - وقد مر عام على بدء حركة
الاعتقالات - بالاحتفال برأس السنة الجديدة .

بدأت الزنازين احتفالاتها بعد غلق باب العنبر - أشعلت
« التوتو » ووضعت عليه أكواز الشاى ، ثم أخذ الزملاء يحتسون

الشاي لأول مرة بعد حفلة اللواء همت ، « ويخمسون » السجائر ،
كل مجموعة تتبادل الأنفاس في سيجارة واحدة أو نصف سيجارة ،
وفرها لهم زملاؤهم المسجونون .

تصاعدت الأمانى وتبادلت الزنازين تحيات الحب ، وأرسلت
بسلامها وتحياتها - بمناسبة العام الجديد - الى الأبناء والأمهات
والآباء والأخوات والزوجات والأصدقاء والصديقات والى أبناء وبنات
مصر ، والى كل طفل وكل شيخ . . وارتفعت الأصوات فى الزنازين
المختلفة كل يغنى أغنيته المحببة أو النى يجيدها أحد نزلائها ، فهذه
الزنازة تغنى :

بلدى يا بلدى وأنا نفسى أروح بلدى
يا عزيز عيني السلطة خدت ولدى

وزنازة أخرى تغنى :

فى يوم فى شهر فى سنة
تخلى السجون وتنام

وعمرى سجنى أنا أطول من الأيام
وثالثة تغنى : فوق الشوك مشانى زمانى

ورابعة تغنى لأم كلثوم وخامسة تغنى لعبد الوهاب ، وهناك
غرف قدمت بعض التمثيليات أو القفشات والنكت .

الكل غنى ورقص ، ولكن الصدفة لعبت دورها فى افساد هذا
الاحتفال وانهاؤه بحفلة أخرى من الضرب والتعذيب ، فقد وصل الى
السجن دفعة جديدة من المعتقلين الذين قضوا فترة فى السجن

الحربي ، وبعضهم من المجندين والضباط ومعهم عشرون من أبناء غزة المعتقلين منهم الشاعر الفلسطيني معين بسيسو وعبد القادر ياسين ومدير التعليم في قطاع غزة وغيرهم .

بينما المعتقلون في الزنازين يغنون ويرقصون ويضحكون اذ بصوت يرتفع في النبر : انتباه فظنه المعتقلون تقليدا لصوت الشاويش من بعض الزنازين ، بينما كان العنبر قد فتح فجأة دون أن يتنبه أحد لذلك .

وفى الدقائق الأولى من العام الجديد دخل العساكر في خطوات سريعة ومعهم المأمور وبعض الضباط وترتفع أصواتهم بالشتائم البذيئة التي تنصب على المعتقلين وعلى آبائهم وأمهاتهم ، وفتحت الزنازين وأعمل العساكر العصي والقوايش في نزلائها وأمروهم بالوقوف ووجوههم الى الحائط ، وارتفع صوت المأمور يشتم ويأمر بتشديد الضرب .

استمر المعتقلون على هذه الحال من التعذيب المتقطع الذي يشتم أحيانا أو يخمد على حسب مزاج مأمور السجن وهواه . . . لكن الخروج الى السخرة في الجبل والأحراش المحيطة بالسجن مستمر لتقطيع البوص والحشائش ونقل الأحجار والرمال لمجرد التعذيب والايلام في جو شديد الحرارة كان العمل من الساعة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر ، وكان جو العمل أحيانا يلتهب ويحمر وطيس الضرب ، وأحيانا يصبح خروجاً روتينياً تلتف كل مجموعة حول أحد الشاويشية يجلسون تحت شجرة أو حول صخرة عالية يتسامرون ويتبادلون النكات ويستمر العمل بصورة هادئة .

قلت الشتائم أو انعدمت ، فمن خلال الحوار والمناقشات التي كانت تدور بين الزملاء والعساكر استطاع الزملاء أن يكسبوا عطفهم

ويذنبوا شحونات الكراهية التي شحنوا بها ضد الشيوعيين في مراكز التدريب ، ويشلوا التعليمات الصادرة اليهم باستعمال القسوة رغم أن هؤلاء الحراس يختارون من العناصر الأكثر شراسة وعنفًا .

أصبح هناك ما يشبه الاتفاق بين الحراس في الجبل وبين المعتقلين وهو أن ينهضوا للعمل بسرعة إذا ظهرت من بعيد سيارة تحمل قائد المعتقل أو أحد الضباط ، وكان هناك من الزملاء من يقف في نقطة مرتفعة لينبه الجميع بالقدام فيسرعون لحمل الرمال والصخور .

كان المكان الذي يتجمع المعتقلون فيه للعمل يسمى وادي العقارب ، وكانت تكثر في هذه الأماكن - بجانب العقارب - الحيات والشعابين خاصة ما يعرف بالطريشة ، وكانت تختفي في الرمال وبين الأحجار ولا تظهر الا عند اقتراب فريستها لتقضى عليها ، كانت تشم رائحة الانسان من على بعد ثم تطير اليه وتهاجمه ، وكان خطرها يتضاعف مع خروج الزملاء للسخرة حفاة الأقدام ، ولكن لحسن الحظ أن للطريشة صوت له خشخشة غريبة يسبق تحركها للانقضاض على الفريسة ، ولسعة هذه الحية اذا لم يسعف الانسان بالحقن المضادة خلال دقائق عاجلة الموت .

كنا نتوجس خيفة مما يخبئه القدر لنا ونحن نسير حفاة ، وكنا نتصيب عرقا من شدة الحر ، فاذا عصفت الرياح تحول التراب على أجسادنا الى طين .

من خلال العلاقات التي توطدت مع بعض العساكر والشاوشية كسرت الكثير من حلقات العزل بين المعتقلين وبين الحياة في خارج السجن ، فبدأت الجرائد تصل سرا الى المعتقل وبدأت الخطابات ترسل الى الأهالي ويستلم المعتقلون خطاباتهم سرا أيضا .

وحتى يضيق مأمور السجن على المعتقلين ويطبق سياسة العزل
بأحكام راقب بنفسه العمل فى الجبل ، وقام بحملات تفتيشية فى
العنابر بحثا عن الأقلام والأوراق ، ورغم ذلك صدرت مجلات هوائية
تسمع ولا تقرأ ، مجلة « الهواء » وتعبّر عن رأى الحزب الشيوعى
المصرى (حدثو) ومجلة « الطريق » وتعبّر عن رأى الحزب الشيوعى
المصرى (ع . ف ، الراية) وبعد ذلك ظهرت مجلة « الأفق » تعبّر
عن انشقاق فى الحزب الأخير خاصة من شباب الراية .

قدمت هذه المجلات أخبار مصر والعالم الخارجى ، كما قدمت
الصورة والكاريكاتور والتحليل السياسى الى جانب النقد الأدبى
والشعر والقصة .

انكسرت حمية المأمور بعد أن باءت حملاته بالفشل ، ثم جاءت
حادثة إصابة ولديه بالتسمم وانقاذ الأطباء الشيوعيين لهما لتطبيع
بخطرسه وتعسفه .

ف ذات ليلة فوجئ نزل العنبر بفتح أبوابه فى منتصف الليل ،
واستيقظ الجميع على صسوت المأمور فريد شنیشن ، وهو يفتح
الزنازين ويصبح ملتاغا شاحبا : عاوز دكتور - من فيكم دكتور
فخرج له ليلتها الدكتور حمزة البسيونى والدكتور صلاح حافظ ،
وذهبا معه الى فيلته المخصصة له على بعد ثلاثة كيلومترات من
السجن حيث كان يرقد ابناه .

كان الطفلان فى غفلة من أبويهما قد ابتلعا علبة كاملة من دواء
لضغط الدم وهو « سر بازيل » الخاص بوالدتهما ، مما سبب لهما
ما يشبه التسمم وأصيبا باغماء شديد وأشرفا على الموت .

قضى الدكتور حمزة والدكتور صلاح الليل كله وحتى الصباح يجاهدان لانقاذ حياة الطفلين ، أجريا لهما غسيل معدة ، وأعطيا لهما أدوية منبهة وعملا على تحريك الطفلين وإيقاظهما وعدم الاستسلام للنوم .. ظلت المحاولات لتنتصر الحياة مع الصباح وينقذ الطفلان .

وقد لجأ فريد شنيشن مأمور السجن الى البحث عن طبيب من الشيوعيين ، لأن طبيب الواحة كان يقضى اجازته في القاهرة ، وأى طبيب آخر قريب على بعد عدة مئات من الكيلومترات .

بعد هذه الحادثة تغير الرجل ، وبعد أن كان يزهر في خيلاء ، ويتباهى بقدراته أصبح يتجنب لقاء المعتقلين ، وسرعان ما استجاب الى تحويل العمل الذى لا فائدة منه فى الجبل الى عمل نافع ، ومن هنا بدأت قصة الموافقة على استصلاح بعض الأراضى المجاورة للسجن وزراعتها ، وهكذا بدأت قصة المزرعة .

استشهاد شهدى أوقف التعذيب فى جميع السجون :

لقد كسر شهدى باستشهاد طواير السخرة وأوقف العودة الى زمن العبودية .. لقد أنقذ بموته مئات من المعتقلين والمسجونين كان من الممكن أن يكون مصيرهم الموت العاجل أو البطيء بالضرب والسحل والتجويع والاجهاد ، لقد انتشلهم من مستنقع المهانة ورفع رؤوسهم المنكسرة ورد اليهم أنفسهم وشموختهم .

كانت مأساة شهدى حزنا خصباً ، خلقت للشعراء ولأدباء الرواية والقصة التجارب الحية للابداع الفنى والأدبى ، فكتبوا أدبا ونطقوا شعرا ارتقى أعلى مراحل الجودة ، وبددت كوابيس اليأس وفتحت نوافذ واسعة من الأمل المتجدد فى الحياة وفى المستقبل ..

كانت الحياة تخضر من جديد فى قلوب الرملاء بعد أن كادت تضيع
بين الرمال الصحراوية القاحلة وكتل البازلت وهم يرددون مع ناظم
حكمت :

ويكبر الاصرار فى قلوبنا يردد
لا بد أن نعيش

انهم يحلمون بالمستقبل .. بالحياة السعيدة .. بالسلام
والاخاء بين البشر والحرية ، وبالمجتمع الذى تزدهر فيه مبادئ :
« دع مائة زهرة تفتح » وبأن أجمل الكلمات تلك التى لم نقلها بعد
وأجمل القبلات تلك التى لم نقبلها بعد وأجمل الضحكات تلك التى
لم نضحكها بعد .. انهم يتجاوزون حدود السجن يستشرفون
المستقبل بخيالاتهم يرددون مع ناظم حكمت كلماته :

أحلم أنى خارج سجنى فى دنيا مشرقة حلوة
لم أر نفسى فى الحلم سجيناً أبداً .
لم أسقط فى الحلم من الجبل الى الهوة أبداً

بعد مقتل شهدى وفى يوم من أيام يونيو ١٩٦٠ وصلت أوامر
للسجن المحاريق بتحسين المعاملة فتوقف فى هذا اليوم خروج
المعتقلين الى السخرة ، سمح فقط للمسجونين بالخروج الى العبل
فى مرافق السجن - كما هو المعتاد - ولم تفتح زنازين المعتقلين
حتى الساعة الثانية عشرة .. والكل يتساءل عن سبب ذلك ..
ثم جمع الأمور « فريد شنیشن » المعتقلين فى فناء السجن وأخبرهم
أن برقية وصلته مساء أمس من القاهرة بتحسين معاملتهم ، وقال
لهم : منذ اليوم يمكنكم أن تلبسوا أحذيتكم وأن تتسلموا خطابات
من أهاليكم ، وترسلوا اليهم بخطاباتكم ، وسمح لكم بالتعامل مع

الكائنين وشراء ما تحتاجون اليه ، ولم يعد العمل اجباريا . . ثم قال انه سعيد بهذه الأوامر واعتذر عما بدر منه في الشهور الماضية بأنه لم يكن بإرادته ، وانما هي أوامر كان ينفذها بمرونة ، وأمر أحد الضباط بفتح المخازن وتسليم المعتقلين أحذيتهم وملابسهم التي أخذت منهم يوم حفلة التعذيب التي قادها همت .

بعد أن استلم الزملاء أحذيتهم وما تبقى لهم من ملابس بعد حريق همت . . خيم الصمت على المعتقل كله . . انشغل كل زميل بشيء خاص به ، فهذا يقبل حذاءه ، وهذا يمسحه بسترته ، وذاك قد جلس على الأرض وحاول أن يدخل رجله فيها بصعوبة فقد تفرطحت قدماء وكبرت عليها ، وهذا وجد نظارته وأخذ يضعها على عينيه يبصر من خلالها مشاهد لم يكن يتبينها قبل ذلك وآخر انتحى جانبا من سور السجن أو زاوية من الزنزانة أو طريقة العنبر يتأمل صورة في يده ، قد تكون لابنه أو لزوجته أو لأمه أو لأخته أو لحبيبته وهو يقبلها ويتأمل في ملامحها يسترجع معها ذكرياته الحلوة ويعيش فيها لحظات . . مشاهد انسانية يعجز القلم عن وصفها .

كان المأمور بعد كلمته في المعتقلين قد طلب بعض الزملاء للاجتماع به في مكتبه ، وهناك أخبرهم نبأ استشهاد شهدي عطيه الشافعي . . انتشر الخبر وعم الحزن جميع أرجاء السجن ، وأدرك الجميع أن هذا هو ثمن وقف السخرة والتعذيب .

قلة الغذاء وانتشار الأمراض :

كان التجويع يمثل ركنا أساسيا من سياسة المباحث العامة في التعذيب والانهالك والقتل فمن لم يقتله الضرب والتعذيب قتل من الجوع والمرض وانعدام العلاج .

كانت التغذية سيئة جدا من حيث النوع والكمية ، كان الطعام عبارة عن قطعة جبن محجرة ذات رائحة عطنة وبعض العسل الأسود ذى الرائحة الكريهة وقروانة عدس أو فول مسوس ، أو أحيانا قروانة يقال انها خضار ، وهى من حشائش غريبة ذات طعم مقزز وبها قطعة صغيرة مما يسمى باللحم وهى عبارة عن قطعة جلد أو شفت .

ورغم ما عليه هذا الغذاء من سوء ، فقد كانت الأشغال الشاقة والجوع والتوتر والقلق الذى يعانى به المعتقلون ، مما يجبرهم على تناول هذا الطعام ، كان الكثيرون - وكنت واحدا منهم - يلتهمون الوجبات الثلاث مرة واحدة ، ونبقى بقية اليوم فى حالة جوع حتى الساعة الرابعة من اليوم التالى .

كان هناك احساس حقيقى بالجوع الدائم ، بل كان هناك من الزملاء من هو مصاب بالتهاب فى القولون أو قرحة فى المعدة ، ومع ذلك فقد كانوا يلتهمون الفول والعدس بنهم شديد رغم علمهم بأضرار ذلك على صحتهم .. فى البداية لم يشك أحد الما - لا لأن المرض قد زال من أجسامهم وانما لأن ارادة الحياة لديهم منحتهم القدرة على مواجهة الظروف الشاقة وأنستهم آلام أمراضهم مؤقتا ، فبعد فترة بدأت تظهر هذه الأمراض القاتلة فى المعدة وبدأ الزملاء يتساقطون شهداء .

لقد كنا فى أمس الحاجة الى الكثير من الغذاء وخاصة الخضروات التى كان يندر تواجدها ، فقد كانت الخضروات تجلب من أسبوط بالسيارات مرة فى الأسبوع وعند وصولها تكون قد ذبلت وفقدت نضارتها ، كما كانت هناك مزرعة للسجن ولكن هذه كان يتحكم فيها الاخوان المسلمون ويعتكرون انتاجها ويضنون على

بأقى نزلاء السجن بخيراتها ، كما كونوا يحكمون فى المطبخ والفرن ،
ويميزون أنفسهم نوعا وكما بنصيب الأسد ، بينما يتركون الفتات
لفيرهم .

لقد كان لهم دورهم فى هذه المجاعة .. من هنا بذلنا جهدا
كبيرا لاستصلاح أراضى جديدة حول السجن وزراعتها - كما
سنوضحه فيما بعد - واشترك زملاء لنا فى أعمال المطبخ والفرن
حتى نضمن الحصول على نصيبنا العادل .

لقد دفع الجوع بعدد كبير من الزملاء - أثناء وجودهم فى
الجبل فى أشغال السخرة - إلى أكل ثمار الخروج المجاور لفيلات
الضباط ، واقتلاع نباتات البلح الحديثة لأكل جذورها ، كما أكلوا
البرسيم ، باعتباره نبات الحلبة .

كان الزملاء يهربون من حرارة الشمس القاسية إلى طلال شجر
الخروج الذى يحيط بمنازل الضباط ، نناول ظريف عبد الله المحامى
بعض الثمار واستلذها فحرض الزملاء على التهامها وشبهها باللوز ،
وأفتى الدكتور مختار السيد بأن أكل الخروج صحى وأكل منه ،
ولم يستمعوا لصيحات عم نوح فلاح البحيرة الذى حذر من أكله
قائلا ان الحمير لا تأكله ، بل دفع الجوع الزملاء إلى الاتيان على ثمار
الخروج فى الأشجار الموجودة بالمكان المحيط بهم .

عاد الزملاء إلى السجن وفى المساء بعد أن أغلقت العنابر
والزنازين بساعة ، بدأ عدد من الزملاء يشعرون بآلام حادة فى
أمعائهم ، وأصيب البعض بأسهال شديد وقىء .. أخذوا يدقون
الأبواب طلبا للنجدة ، وطلبوا من العساكر فتح الزنازين ، فقد
أصيب حوالى نصف عدد المعتقلين بالتسمم .

بدأ الزملاء يتساقطون فاقدى الوعي ، وحضر المأمور وقوة السجن ، كما حضر الزملاء الأطباء ، وتحولت الغرف الى مستشفيات، وأرسلت سيارة السجن الى مدينة الخارجة لاحضار بعض الأدوية . . فام الأطباء بغسيل للمعدة لبعض الزملاء ، وصل البعض الى مرحلة خطيرة لضعف نبضهم ، ونقل ما يقرب من سبعين زميلا الى مستشفى الخارجة . . أعطيت للكثيرين أدوية مضادة للتسمم ، وأجريت لهم عمليات غسيل للمعدة ، وظل السجن ومستشفى الخارجة فى حالة طوارئ حتى منتصف اليوم التالى حتى أنقذت حياة من أصيبوا بالغيوبة وكانوا على حافة الموت .

ابتهج حسن المصيلحي عندما سمع بحادثة أكل ثمار الخروج وما نتج من تسمم .

كان لهذه الحادثة الهزلية المضحكة والمبكية فى آن واحد أثرها على صحة بعض الزملاء ، كما كان لسوء التغذية والأمراض الناتجة عنها وانعدام العلاج ومراوغة المباحث العامة وتلكئها فى السماح بنقل المرضى الى المستشفيات المختصة ، وضعف المقاومة بعد الاضراب الطويل كان لهذا كله أثره البالغ فى اشتداد الأمراض ببعض الزملاء ، فدفعوا ثمنا غاليا وهو حياتهم نفسها . لقد هاجمتهم الدوسنتاريا وأمراض المثانة والكلى والمعدة والعيون .

أصبت مرة بالدوسنتاريا واستمرت معى أكثر من شهرين حتى هزل جسمى وخف وزنى ، لانعدام العلاج والغذاء ، بل كانت الانفلونزا تستمر فترة طويلة لندرة الخضروات الطازجة والعلاج اللازم .

قافلة طويلة من الزملاء استشهدوا لسوء التغذية وانعدام العلاج .

مات الفنان أحمد البيكار بعد عام نتيجة سرطان فى الأمعاء . .
فى البداية أصيب بنزلة معوية قاسية ورحل للقصر العينى وأفرجوا
عنه بعد أن اكتشفوا أن حالته ميئوس منها فمات بعد أسبوع من
الافراج عنه .

والعامل على زهران مات بعد عام ونصف نتيجة تسمم حاد
بسبب البولينا مما أجبر المباحث على ترحيله الى القصر العينى
وفارق الحياة بعد وصوله بيومين .

وأصيب الزميل اسماعيل عبد الحكم بكر بالتهاب كبلى
وبأى نتج عنه ضعف شديد وعدم القدرة على الحركة ، وكان لابد
من نقله فورا الى القاهرة بعد أن عجزت مستشفى الخارجة عن علاجه
ورفضت المباحث العامة فى البداية ، وتحت الضغط سمحت بسفره
الى القاهرة بالطائرة وهو فى شبه غيبوبة وكان يرافقه الدكتور
حمزة البسيونى لرعايته فى الرحلة .

وفى أول يناير ١٩٦٠ سقط على متولى الديب العامل فى
مصنع الألياف بشبرا الخيمة بعد أن أصيب بدوسنتاريا قاتلة وكان
عمره (٢٨ سنة) .

ومات المهندس الشاب رشدى خليل (٣٠ سنة) بعد أن تعزقت
أمعاؤه من الحمى .

وفافلة الشهداء لا تتوقف : حسب الله على مرسى عامل
نسيج - سيد أمين عامل نسيج نقابى ومناضل سياسى ، شعبان
حافظ كان من قادة الحزب الشيوعى المصرى القديم ، أسقطت عنه
الجنسية ونفى خارج البلاد وعاد إليها سرا ومات فى سجن المحاريق

فى ١٤ مارس عام ١٩٦٢ ٠٠ هلال عبد العزيز شعبان عامل نسيج
بمصنع جورج أسود عضو نقابة شبرا الخيمة .

قام الزملاء الأطباء بدور أساسى فى علاج المعتقلين بل العساكر
وأبناء الضباط ، وقد تعاونوا فى هذه المهمة الانسانية رغم الخلافات
السياسية والتنظيمية ٠٠ كان الأهالى يرسلون الأدوية وكان الأطباء
الزملاء يحضرون مع طبيب السجن ويقنعونه بحالة الزميل ، وكان
العلاج بطانية اضافية أو قطعة كبدة أو لحم ، والحالات التى يتعذر
علاجها فى السجن كان لابد من موافقة المباحث العامة على الترحيل
الى أسبوط أو القاهرة ، وكانت المباحث تراوغ حتى يشرف المريض
على الموت فتوافق على النقل ليموت هناك أو تفرج عنه صحيا لتبرا
من دمه ويصبح عبرة لغيره .

المزرعة :

قبل الموافقة على توجيه طاقاتنا الى استصلاح مساحة من
الأرض نستعين بانتاجها على تعويض النقص فى التغذية ، كانت
جهودنا تضيع هباء فى تقطيع البوص من الأحراش ونقل الأحجار
والرمال من مكان لآخر وأحيانا اعادتها الى ما كانت عليه مرة أخرى
لأن الهدف هو التعذيب والانهاك ، لذا كانت المزرعة وسيلة ايجابية
للاستفادة من طاقاتنا وافصال مخططات الموت ، كانت حلا جزئيا
ينقذنا من الجوع ويساعدنا على مقاومة الأمراض .

قمنا بمسح المنطقة من السجن وحتى منازل الضباط وهى
مساحة تقترب من المائة فدان صالحة للاستصلاح وكان لابد لزراعتها
من التغلب على المشكلات التى تتعلق بتسوية الأرض واقامة الجسور
والطرق وعلاج الأرض الصلصالية بخلطها بكميات من الرمال ،
وأىضا علاج مشكلات المياه والتسميد والتقاوى .

لم يكن المعتقلون على رأى واحد فى الحماس لانشاء المزرعة ، كان البعض يراها سخرة واستجابة لسياسة الحكومة فى تعذيبنا ، كان الأفضل لديهم أن يجلسوا فى الشمس أو تحت ظلال الأشجار أو بجوار سور السجن ينثرون ، بينما كان هناك من تحمس لهذا العمل ووجد فيه حياة نافعة وفرصة لحرية الحركة فى الفضاء الطلق وكان أغلب هؤلاء من العمال أو الفلاحين أو المثقفين من أصول فلاحية هؤلاء هم الذين تحمسوا للعمل فى انشاء المزرعة ، وعلى أكتافهم قامت ، ولم يكونوا كرة كثيرة بل قلة محدودة .

كونا لجنة لقيادة العمل فى المزرعة ممن لهم دراية بالزراعة مكونة من أحمد سليم وأنا (السيد يوسف) وعبد السلام خشان ومحمد فريد سيد أحمد وحسين عبدربه والشيخ محمد عراقى ، كنا نتناوب المسئولية ، كل منا يتولاها يوما فى الأسبوع . وكانت هناك نبطشيات للعمل فى المزرعة يوم أو اثنين أو ثلاثة فى الأسبوع حسب الظروف بالنسبة لزملاء آخرين ، وتكونت مجموعات عمل ولكل مجموعة مسئول .

قمنا بجهد خارق فى تمهيد الأرض وتسويتها معتمدين على الجهد العضلى والوسائل البدائية التى وفرتها لنا ادارة السجن وهى الفئوس والفلقان ، كنا نحملها على أكتافنا أو يشترك اثنان فى حمل الفلق الواحد . . أتذكر أننى كنت أشارك مع حسين عبدربه مرة أو فتحى مجاهد أو عبد السلام خشان أو محمد الامام أو ابراهيم العدل أو محمد فريد سيد أحمد أو الشيخ عراقى أو أحمد سليم أو سعيد فلاح دقهله أو صبحى رياض أو عبد المنعم درويش وغيرهم وغيرهم فى حمل الفلقان من الرمال عشرات الأمتار من الأماكن المرتفعة لنضعها فى الأماكن المنخفضة أو الصلصالية أو نقيم بها طرقا وجسورا . . كانت أيدينا تتسلخ من حمل هذه المقاطف حتى تصلب مكان الجروح وكون كالو فى موضع التسليخ .

أحيانا قليلة أمددنا ادارة السجن بالمحراث والتقصابية وعجلين
لجرهما مساهمة فى عملية الاستصلاح كما جلب المأمور بولدوزر من
الاصلاح الزراعى لمساعدتنا فى استصلاح مساحات أخرى من
الأرض .

كنا اذا اسنصلحنا قطعة حرنناها ورويناها وبئرناها وانتقلنا
الى قطعة أخرى مع متابعة الاشراف عليها . .

كنا نعالج الأرض الصلصالية بنقل أربعة مقاطف من الرمال
لكل متر منها ثم نقوم بحرثها ليختلط الرمل بالصلصال ويقوم
بخلخله التماسك فى تربتها حتى تسمح للبذر . بأن تشق طريقها الى
الظهور والنمو .

أما عن المياه فقد كان هناك بئرجوفى بجوار مساكن الضباط ،
وكانت هذه العين أعلى من مستوى الأرض المزروعة بثلاثة أمتار ،
وحتى لا تضيع المياه فى الصحراء هدرا حاولنا الاستفادة من دوام
تدفقها فى الرى والاستحمام والتخزين فقمنا بحفر خزان للمياه فى
قطعة من الأرض مجاورة لعين الماء وللأرض المزروعة ، كانت القطعة
مستطيلة مساحتها ١٠٠ متر x ٥٠ مترا ، حفرنا بالمحراث وبالفثوس
وعمقنا قاعها الى مترين واستخدمنا القصصابية والمقاطف فى رفع
ما بها من رمال وصلصال لنكون به جدراننا للخزان ، كان قاع
الخزان فى مستوى الأرض الزراعية ، ثم شققنا مجرى يوصل مياه
البئر الى الخزان من أعلى وبشكل دائم فلا يضيع منه قطرة ، كانت
المياه تتدفق من البئر ساخنة ولو وجهت الى الأرض المنزرعة مباشرة
لربها لأحرقت الزرع فكان تحويلها الى الخزان وفتحها حسب الحاجة
مما يساعد على تبريدها ، ومددنا مواسير من قاع الخزان توصل
لقناة الرى الرئيسية ويمكن التحكم فى غلقها وفتحها حسب الحاجة

أرسل بعض المعتقلين والمسجونين الى أهاليهم يطلبون ملابس السباحة ولوازمها من مايوهات وبسكاير ، وكان ذلك محل دهشة وتساؤل منهم .

خطا المعتقلون خطوة أكبر حين بدأوا في دراسة التربة وتحليل مياه الواحات لدراسة امكانية تربية الأسماك وزرعها في قلب هذه الصحراء تحديا لمواتها واثباتا لقدرة الانسان على الابداع والمقاومة .

أما عن تسميد الأرض فقد قمنا بحل هذه المشكلة من خلال ثلاثة مصادر :

المصدر الأول : هو استخدام فضلات السجن المتجمعة في ترششات خارج أسواره في شكل مستنقعات نقوم بترسيبها بنزح هذه المجارى في أحواض عن طريق الجرادل أو الطنبور ثم نترك هذه الأحواض لتتبخر بشدة الحرارة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام وبعد أن تجف نكشط الطبقة السطحية المشتملة على الرواسب ، وننقلها خارج أحواض الترسيب ، وعندما تجف تماما ننقلها الى المزرعة بسيارة السجن .

كان النزول الى مستنقعات المجارى ينطوى على خطورة حقيقية ، ومع ذلك لم بدخر الزملاء وسعا في خوض هذه المخاطرة التي لا مفر منها لنجاح المزرعة ، بل لم يجد بعض أبناء الذوات غضاضة في النزول بأجسامهم في هذه المستنقعات لنزحها بالجرادل أو الطنبور ، ولازلت أتذكر مشهد الدكتور شريف حتاة وهو يقوم بهذا العمل بحماس ونفان .

المصدر الثاني : هو زريبة السجن فقد سلمتنا الادارة واحدة من الزريبتين (الحظيرتين) التابعتين للسجن وكان بها عجلان نقوم بالتربيب تحتها ثم نرفعه بعد يوم أو يومين ونستخدمه كسباح

المصدر الثالث : ما أخذناه من كيماوى من مخازن السجن ، وكان المصدر الثانى والثالث محدودا فكان الاعتماد الأكبر على المصدر الأول .

أما عن التقاوى فقد حصلنا على بعضها من مخازن السجن وبعضها الآخر مما تبقى لدى المسجونين من أيام سجن جناح ، والباقي اشتريناه من أسيوط أو جاء إلينا من الأهالى .

نجحت المزرعة نجاحا عظيما وحقت انتاجا وفيرا من مختلف أنواع الخضروات . . أنتجنا السبانخ والملوخية والبامية والباذلاء والباذنجان والطماطم والخيار والقثاء والكوسة والخص والفول والخبيزة والرجلة واللوبيا والفاصوليا والجرجير والجزر والفجل والبطيخ والشمام .

كنا نجتمع الثمار فى أجولة يحملها الحمار الى مطبخ السجن ليستفيد منها كل النزلاء ، والبعض الآخر يوزع على الحجرات ليستفيد منه الزملاء ويعوض ما يعانونه من نقص فى الكالسيوم والفوسفور .

لم نعرف الشبع الا بعد انتاج المزرعة حتى توقفنا عن استلام ياك العشاء من السجن أحيانا .

كانت المزرعة تغطى احتياجات السجن بكل فئاته من نزلاء وادارة ، وكانت ترسل الأقفاص المحملة بالخضروات والفاكهة

للمحافظ وموظفى المحافظة ، وحصلت المزرعة على الجائزة الأولى فى معرض للمنتجات الزراعية أقيم بالواحات .

لأكثر من ثلاث سنوات كان نصيب الفرد من نزل السجن وموظفيه لا يقل عن نصف كيلو يوميا من الخضار الطازج والفاكهة وعن ثلث كيلو من الخضار المطبوخ ، وقد قام بعض المعتقلين بتجفيف الفول الأخضر لعمل فول منمس .

شجع نجاح المزرعة وانتاجها الوفير مأمور السجن على أن يقوم بتسليمنا مزرعة السجن الأصلية التى كان يشرف عليها الاخوان المسلمون ويحتكرون انتاجها ولا يبذلون فيها جهدا كافيا لتحسين انتاجها ، وكان تصرفهم فيها محل شكوى ، رغم أن أرضها رملية طفلية خصبة للغاية ، وفى منطقة منخفضة يسهل ربيها ، وقمنا بزيادة انتاجية هذه المزرعة ، فساهمت فى حل أزمة التغذية .

كان الرفاق يبدأون يومهم بأن ينادى أحدهم صباحا فى الصبر : « المزرعة يا زملاء » ويخرجون اليها الساعة الثامنة ويستمرّون حتى الظهيرة ، وفى بعض الأحيان يستمر بعضهم الى آخر النهار .

ومما يذكر أن المزرعة لم تكن موحدة بل كانت مقسمة الى قسمين : فقد قام كل تنظيم من التنظيمين الكبيرين : حدثو ، (الراية - ع . ف) بإنشاء مزرعته الخاصة مع الاشتراك فى مصادر المياه .

لعبت المزرعة دورا هاما فى حياة المعتقلين المادية والمعنوية ، فقد أفلتوا بها من المجاعة ومن كثير من الأمراض وملأوا فراغهم

بعمل مفيد ، وأصبحت متنفسا صحيا في هذا الخلاء الموحش
الرهيب بعيدا عن كآبة السجن ، تمتعوا فيه ببعض الهواء الطلق
بدلا من جو السجن الخانق ، لذلك أقبل كثير من الزملاء على
الخروج الى المزرعة بحماس شديد يملأ قلوبهم كلمات ناظم حكمت :

ويكبر الاصرار في قلوبنا يردد
لا بد أن نعيش .. لا بد أن نعيش

هكذا تغير الجو في المعتقل ، كسرت العزلة والصحراء ،
وانتقلنا الى عالم حياة صاخبة ، توقف التعذيب والعمل الاجباري ،
وبعد اغلاق الأوردي تجمع الكل تقريبا في الواحات .. فتحت
الزنازين ليلا وعشنا في ظروف نسبية أفضل في المعاملة ، وظهر
هذا في الاحتفال بالصاحب برأس السنة الجديدة يناير ١٩٦١ .

أتذكر كيف احتفلنا .. أكلنا .. شربنا .. غنينا .. رقصنا ،
وسرنا طواير مبتهجة تجرى في العنبر ، وبعضنا يلبس ملابس
متنكرة ، وأمامنا فؤاد حداد يغنى ونحن نغنى معه : كان لي
طاقية .. طاقية شقية من شقاوتها بقت طرطور .. طرطور ،
اعرض العرض وطال الطول .. طرطور .

وهكذا فرحنا وسعدنا بهذا اليوم ، وكاننا نعوض ما عانيناه
طوال الفترة السابقة وننعم بشار تضحيات أبي الشهداء : شهدي
عطية الشافعي .

استمرار الاعتقال يتعارض مع الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية :

بعد انحسار غبار الأزمة بين القوى الوطنية المصرية والغربية
عامي ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ بدأت تتكشف مؤامرات الاستعمار والرجعية
لضرب مكتسبات الثورة وجنى ثمار الأزمة .

بدا وكأن الثورة قد استوعبت الدرس ، لقد أكدت الصحف والاذاعات تلاشي أو انحسار حدة العداء والهجمات المتبادلة بين القوى الوطنية العربية ، وبدأت تظهر رياح تغيير تغطي الأمل في انفراج الغمة بيننا وبين السلطة وأنا بسبيلنا الى الخروج الى حياة الحرية .

ظهر هذا في عدة مواقف : تأميم بنك مصر في فبراير ١٩٦٠ - تنظيم ملكية الصحف - حديث الصحف والاذاعة عن الحد من سيطرة رأس المال على الحكم وعن تغييرات متوقعة .

ثم كان موقف الحكومة المصرية قويا من مؤامرة مقاطعة الباكورة المصرية كليوباترا في أحد الموانئ الأمريكية .

ومع نهاية الاضراب عن الطعام الذي اشترك فيه عدد كبير من المعتقلين في شهر يوليو عام ١٩٦١ حضر مندوب للرئاسة في ٢١ يوليو وصرح بادانة التعذيب وأنه يجري الآن محاسبة المسئولين عنه وأن الظروف التي أدت الى اعتقالنا قد انتهت ، وأن هناك بحثا جديا للافراج عنا وأن الدولة محتاجة اليكم في المرحلة القادمة ، وطلب أن نستمع الى خطاب الرئيس عبد الناصر مساء غد (٢٣ يوليو عام ١٩٦١) فهناك مفاجأة .

كانت المفاجأة هي اعلان الثورة الاشتراكية وصهور قوانين بحركة تأميمات واسعة للقطاعات الانتاجية شملت أكثر من ٨٠٪ من المؤسسات الصناعية والتجارية وتأميم البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية والاصلاح الزراعي الثاني الذي وضع حدا أعلى للملكية الأسرة بمائة فدان . شملت هذه الاجراءات الهجوم على الرأسمالية المصرية الكبيرة والدفاع عن مصالح العمال والفلاحين

واشتراك العمال في مجالس إدارات المؤسسات والشركات ،
وتوزيع نسب من الأرباح عليهم ، وتبنى النظرية الاشتراكية في
التطور ، أى تحقيق أغلبية الشعارات التي رفعناها في السنوات
الآخيرة ، ومع هذه الإجراءات فليس من المعقول أن يبقى الاشتراكيون
في السجون .

ولكن لم تمض على صدور هذه التأميمات أكثر من شهرين
حتى ردت الرجعية والاستعمار عليها ففي سبتمبر ١٩٦١ حدث
انقلاب الانفصال السوري - انفصال مأمون الكزبري بسوريا عن
الجمهورية العربية المتحدة .

كان رد عبد الناصر على الانفصال في البداية عصبيا ، فقد
أمر بنوجه فرقة من المظليين إلى اللاذقية للقضاء على الانقلاب ،
لكن سرعان ما ساد العقل ، فأذاع عبد الناصر في اليوم التالي بيانا
أدان فيه الانفصال وأعلن أن مصر لن تستخدم السلاح في فرض
الوحدة .

وبعد الانفصال بعدة أيام ، وفي جامعة القاهرة خطب
عبد الناصر ، فقدم نقدا ذاتيا ، جاء فيه أن الرأسمالية المصرية
الكبيرة حاولت أن تسرق الثورة ، فتصورت أن معركة الاستقلال
وما أعقبها من تمصير وتأميم للشركات الأجنبية هي فرصة لها لزيادة
كعكتها على حساب الجماهير .

وقال ان الرجعية تغلغلت داخل الأجهزة ، وكانت تعمل من
أجل السيطرة الكاملة على الدولة ، وان الذين تأمروا على الوحدة
كانوا عناصر قيادية داخل الاتحاد القومي وداخل أجهزة الدولة ،

وان الاتحاد القومى كان مجرد لافتة لا فاعلية لها ، وان مصر ستضع
يها مع قوى الثورة العربية والعالمية فى كل مكان .

وأعلن أنه لا طريق أمامنا سوى مزيد من الحرية للجماهير
والاعتماد على حركتها من أجل بناء مجتمع تسوده الكفاية والعدل .

ولطالما حذر الشيوعيون من ضرب الوحدة الوطنية ، وطالبوا
بأن تترك للجماهير حريتها فى الحركة لحماية هذه الوحدة ، كما
أيّدوا الوحدة وطالبوا بأفضلية قيامها على أساس ديمقراطى مع
مراعاة اختلاف مستويات التطور فى كل بلد ، ولكنهم عندما قالوا
ذلك اتهموا بالخيانة والعداء للوحدة على لسان المنافقين وعملاء
الرجعية والاستعمار فى أجهزة الاعلام ، وأودعوا فى السجون
وعذبوا .

بعد الانفصال السورى بعدة أشهر أعلن ميثاق العمل الوطنى
فى مايو ١٩٦٢ بعد مناقشته مناقشة ساخنة فى مؤتمر واسع ،
حاولت فيه القوى الرجعية والمتخلفة أن تجهضه أو تفسره تفسيراً
متخلفاً يفرغه من إيجابياته ، وظهر هذا فى تقرير الميثاق ، ولكن
عبد الناصر أعرض عن هذا التقرير ، فصدر الميثاق كوثيقة هامة
وخطيرة ، ونقلة فكرية أرست قيما نضالية تقسيمية .

قدم الميثاق لأول مرة تحليلا علميا عن تاريخ نضال الشعب
المصرى منذ ثورة عرابى حتى ثورة ١٩٥٢ باعتباره سلسلة متصلة
الحلقات من أجل الاستقلال والتحرر ، كما تحدث الميثاق عن
الصراع الطبقي وضرورة حله لصالح الغالبية من الجماهير العاملة
وعلى رأسها العمال والفلاحون . . كما أكد الدور الطليعى للطبقة

العامة في اجراء التغيير الاجتماعى . . وتحدث عن الاشتراكية
كطريق حتمى للتقدم ونص على الاشتراكية العلمية .

والأهمية القصوى في عرض هذه القيم هي أنها صادرة عن
قيادة الثورة . . وأن صدور الميثاق قد صاحبتة لهجة حادة معادية
للاستعمار في الصحافة والاذاعة المصرية .

ولقد أثار صدور ميثاق العمل الوطنى مناقشات واسعة بين
التنظيمات المختلفة . . رحب به الجميع ، ولكنهم اختلفوا في
تفسيره ، فالحزب الشيوعى المصرى (حدتو) رآه تأكيدا لفكرة
وجود مجموعة اشتراكية في السلطة وضرورة التلاحم معها لبناء
الاشتراكية .

بينما الحزب الشيوعى المصرى (ع.ف - الراية) رآه وثيقة
وطنية ديمقراطية يصلح كأساس لجبهة وطنية ديمقراطية ، مع
التأكيد على أن استمرار اعتقال الاشتراكيين ، واستمرار نفس
الأجهزة الرجعية في الاشراف على تطبيقه ، وعدم وجود حركة
وتنظيمات سياسية وجماهيرية قوية كفيل بتفريغ الميثاق من
مضمونه .

وبعد سيطرة حزب البعث على السلطة في سوريا والعراق
أجريت محادثات للوحدة بين قيادة هذا الحزب وبين القيادة المصرية
استمرت لعدة شهور ، اتفقوا خلالها على الاتجاه الوطنى التقدمى
في حركة التحرر العربى ، وعبر كل منهما عن أهداف البورجوازية
الصغيرة في بناء مجتمع مستقل يقوم على أساس العدالة الاجتماعية .

استخدم عبد الناصر وميشيل عفلق في هذه المحادثات تعبيرات
ماركسية ، واستشهدوا بنصوص من لينين وستالين وماوتس تونج،

ورغم هذا الاتساق الموضوعي فقد اختلفوا وتوقفت المحادثات
ونحلت ، وبدأت أجهزة الاعلام في اذاعة محاضر الجلسات وتبادل
الشتائم .

كانت المحادثات تتم بطريقة علوية بعيدة عن مشاركة
أو مراقبة الجماهير ، ولم يرتبط الاتفاق أو الاختلاف بالموضوع ،
بل بأهواء وطموحات الزعامات الفردية .

من هنا كانت الظروف الموضوعية تحتم ضرورة الافراج عن
الماركسيين ، فكيف نظل في المعتقل مع موافقتنا على كل هذه
الخطوات التقدمية ، تساؤلات كثيرة كانت تعمق احساسنا بالحيرة .

وقد ندخل الكتاب اليساريون وبعضهم كان قد اعتقل ثم
أفرج عنه منذ فترة افراجا سياسيا دون شروط .

كانت القوى الرجعية لازالت تعشش في كثير من الأجهزة
خاصة الباحث العامة ، والمخابرات ، وكان الافراج لا يسر هذه
الأجهزة التي اتهمتنا اتهامات باطلة ، ثبت زيفها ، لذلك استماتت
في تعطيل الافراج عنا ، وواصلت معركتها للتصفية النفسية
والمعنوية للمعتقلين وأعادت المسجونين المفرج عنهم الى المعتقل .

عندما طلب عبد الناصر البدء في الافراج ، طلب المصليحي
مهلة بحجة أنه لا يريد لنا أن تخرج من المعتقل ولدينا احساس
بأننا أبطال ، وأن سياستنا التي اعتقلنا بسببها ثبتت صحتها ،
وزيف الاتهامات التي وجهت الينا . . كانت الأجهزة القديمة تعطل
كل شيء مما يؤكد استحالة اجراء أى تغيير ثورى في المجتمع بنفس
هذه الأجهزة .

ولم يكن الأمر وقفا فقط على تأمر الأجهزة لتعطيل الافراج . بل كانت القيادات التقدمية فى السلطة تريد أن تنفرد بها ، وتكره أن يشاركها أحد فيها أو يتطلع اليها ، كانت بأنانيتها وضيق أفقها تكره وجود تنظيم مستقل عنها ، حتى ولو تحالف معها ، لأنها لو قبلت بحقه اليوم فى التأييد فذلك قبول بحقه مستقلا فى الاختلاف .

انها ترفض من هذا التنظيم المستقل أن يضع نفسه بحريته تحت قيادتها ، انها تبغى فقط السمع والطاعة دون تنظيم فتتعامل مع الشعب كأفراد لا كتنظيمات أو تجمعات ، كانت هذه القيادات تطلب حل التنظيمات الماركسية قبل الافراج ، ودارت مراسلات بين عبد الناصر وقيادات التنظيمين داخل المعتقل بواسطة عدد من العناصر اليسارية الشريفة التى تؤمن بضرورة التلاحم بين عبد الناصر والماركسيين .

كان التنظيمان الماركسيان قد اقتربا سياسيا بحلول عامى ٦٢ ، ١٩٦٣ وانحصر الخلاف فى طبيعة التأميمات وطبيعة السلطة ، فبينما ترى « حدتو » أن الاجراءات تحول نحو البناء الاشتراكى وأن على رأس السلطة مجموعة اشتراكية ، ترى الراية أن الاجراءات ضربت الرأسمالية الكبيرة وقطاعات من المتوسطة وفتحت الطريق لبناء غير رأسمالى وأن السلطة هى سلطة الطبقة المتوسطة ثم تطور موقفهم بعد ذلك الى أن السلطة تقيم البناء الاشتراكى وأنها تعبر عن البورجوازية الصغيرة . أما (ع . ف) فترى أن الاجراءات رغم طابعها الوطنى والتقدمى لا تلغى قوانين المجتمع الرأسمالى وأن التأميم ليس اجراء اشتراكيا ، ولكن العبرة بعلاقات الانتاج القائمة ، وحركة التأميمات هى رأسمالية دولة وأن الديمقراطية هى

حجر الأساس في الحكم على كل ما حدث ، وهي الضمانة لدفع التطور الاجتماعي (٢٢) .

ولكن هذا الرأي الأخير تطور الى التطابق مع رأى الراية الأخير .

وبعد الافراج أعلن كل من التنظيمين حل نفسه وانضمام الأعضاء الى الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطبيعي ، وان كان هناك أفراد عارضوا ذلك وتمسكوا بمنبر مستقل للماركسيين مع التحالف أو الجبهة مع الاتحاد الاشتراكي ، ولكن ذلك لم يتحول الى فصل .

تم هذا الحل تحت ضغط السلطة لتكريس انفرادها بالقرار وإخلاء الساحة من أى رأى مستقل . لقد حفرت قبرها بنفسها ودفعها الحرس على الاستحواز على السلطة وحملها الى عزل الجماهير وسلبها من كل سلاح تستطيع به أن تدافع عن مصالحها وعن مكتسباتها التي حققتها الثورة .

لذلك مع غروب عبد الناصر عن السلطة بوفاته ، ضربت هذه المكاسب ، ولم تجد لها قوة منظمة تستطيع الدفاع عنها ، لقد أجهض الحق والحرس على السلطة كل المكاسب التي تحققت للشعب بنضاله وتضحيات أبنائه .

الضغط المعنوي للاستنكار جعلوه سبيلا للافراج :

يبدو أنه بعد استشهاد شهيدى ، وما واجهه عبد الناصر من حرج فى يوغسلافيا ، وبعد أن اتضح هدف الاستعمار والرجعية

(٢٢) د . فتحي عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ٢٥٢ .

من ضرب الوحدة الوطنية ، واستعادة السيطرة على السلطة . يبدو بعد هذا كله أنه كان هناك اتجاه قوى لتصفية المعتقلات في مواجهة معارضة أو مراوغة مستميتة لتأجيل التنفيذ ، من قبل عناصر لها ثقلها في أجهزة الدولة ، واستغلت المباحث هامش عدم الحسم من أجل الوصول الى تركيع واستسلام أكبر عدد ممكن من المعتقلين في شكل التوقيع على ورقة الاستنكار وإدانة الماضي السياسي ، كانت المباحث العامة أيضا تلعب على وتر رغبة حتى الجناح المتقدم في السلطة - في حل التنظيمات وعدم موافقته على وجود تنظيمات مستقلة خارج الاتحاد القومي .

كان حسن المصيلحي يتباهى بأنه لو كان في كوبا لما وجد كاسترو ولا حزبه الشيوعي ، وأنه لن يسمح بوجود حزب شيوعي في مصر .

من هنا اشتدت المباحث العامة في ضغوطها المعنوية على المعتقلين لتحقيق هذه الأهداف .

في أواخر نوفمبر ١٩٦٠ رحل من الواحات الى الفيوم ٨٠ معتقلا تمهيدا للإفراج عنهم ، وصل هؤلاء الى الفيوم فوجدوا معاملة حسنة تخفف عما شهدته الفيوم قبل ذلك ، بل أفضل مما كانوا عليه في الواحات . . . لقد وجدوا العناير مجهزة بسرير نظيفة وأبواب العناير مفتوحة طوال النهار والتغذية جيدة وزيارة الأهالي والتعامل مع الكائنين مباحا ، كما سمحوا لهم بالجرائد والمجلات والكتب وكذلك الاستماع الى الراديو . . كل وسائل الراحة متاحة .

بعد أسبوع وصل المصيلحي وفرقته ليجنى ثمار التعذيب ، ويساوم على هذا الجو المريح مستخدما كل وسائل الترغيب

والترهيب .. استسلم كل معتقل على حدة وأخذ يوجه أسئلته :
لماذا لا تخرج من المعتقل ؟ لماذا تبقى ؟ يمكنك أن تخرج الى أهلك
فوراً .. مطلوب منك فقط ورقة صغيرة تعترف فيها بأنك كنت
مخطئاً في أفكارك وتتعهد بأنك لن تعمل بالسياسة بعد ذلك ..
ويفاجأ الزميل بزيارة مفاجئة من أهله للضغط عليه للاعتراف
والتعهد . الحرية مقابل ورقة .. بعض المعتقلين استسلم وأعلن
استعداده للتوقف عن العمل بالسياسة ، ولكن هناك من رفضوا ،
ووجدوا في هذا اذلالاً وامنحاً لكراماتهم وتحطيماً لانسانيتهم ..
وأجه هؤلاء تعذيباً نفسياً ومعنوياً أقسى من التعذيب الجسماني ،
فقد سحبوا منهم كل الامتيازات التي تمتعوا بها في الأيام الأولى ،
وعزلوهم في عنبر خاص بهم ، وجاءوا لبعضهم بأهاليهم يضغطون
عليهم لكتابة ورقة حتى يتم الافراج عنهم ، فهذه زوجة لأحدهم جاءت
بها لترجوه بأن ينفذ ما يطلب منه ، وجاءوا بالأطفال المصفار
يستغيثون بأبيهم ويكون أمامه ، يشكون من سوء المعيشة وحاجتهم
إليه ، وهذه زوجة تحمل طفلها وتسترحم زوجها : علشان خاطر
الطفل ده اكتب ما يطلب منك ، وتصرخ في وجه زوجها مش لاقية
الأكلة .

– اصبرى شوية .. معلش .

– أصبر لأمتى .. لغاية ما انحرف علشان أأكل العيال .

– وزوجة تهدد زوجها بالطلاق ان لم يكتب الورقة .

وأخرى تمهله مدة ان لم يخرج أثناءها فسوف تلجأ الى المحكمة
لطلب الطلاق .

وخطيبة ترسل لخطيبها عن طريق المباحث العامة تهدده
بفسخ الخطبة ان لم يوقع ويخرج .

وأُسفرت هذه الضغوط عن سقوط ٣٥ معتقلا استسلموا وكتبوا ورفض ٤٥ وعادوا الى الواحات في يناير ١٩٦٢ ، ولكن قبل عودتهم دارت اشاعات كثيرة ومتناقضة حول الافراج عنهم أو تعذيبهم .

وقد أدى هذا الضغط النفسى الى أن فقد ثلاثة من الزملاء عقولهم وراحوا فى العنابر والطرقات يهلوسون ، وطلبنا الافراج عنهم أو نقلهم الى المستشفى ، ولكن المباحث العامة رفضت ليصبح هؤلاء عبرة للباقيين يؤكد مقولة المباحث العامة وشعارها للمرحلة الجديدة : الموت فى الصحراء أو الجنون أو الافراج بعد كتابة ما يملئ عليك .

وفى ١٢ فبراير ١٩٦١ وصل المصيلحى وأحمد صالح الى الواحات لمقابلة المعتقلين ، وطلب كتابة استنكارات ، ولكنهم واجهوه بعاصفة من الهجوم فعاد خائبا ، ولكن زيارته أكدت أن هناك رغبة فى السلطة لتصفية المعتقلات .

وفى هذه المرحلة من الضغوط النفسية حاولت المباحث - دون جدوى - استعمال نفس السلاح مع المسجونين الذين انتهت مدة عقوبتهم كاملة ، وأعادوهم الى الواحات مرة أخرى ولكن كمعتقلين فقدوا امتيازات المساجين التى تضمنها لهم لائحة السجون .

الاضراب عن الطعام :

كان لضغط المباحث العامة على المعتقلين طلبا للاستنكار والمهانة ، وتخلى قيادة ع . ف والراية عن المقاومة فى أبى زعبل ، وتحمل عذاب السخرة ، حتى جاء شهدى لينقذ الجميع باستشهاده ،

يضاف الى ذلك محاولة امتصاص تمرد القواعد والكوادر على الخط اليسارى الذى تتبناه (ع . ف) ، واحتدام الصراع السياسى والتنظيمى بين ع . ف والراية .

كان لهذه العوامل أثرها فى اتخاذ الحزب الشيوعى المصرى (ع . ف والراية) قراره بدخول الاضراب عن الطعام .

كان الاتجاه اليمينى (الراية) داخله يرى أن الاضراب مغامرة جديدة للخط اليسارى (ع . ف) والسبيل الصحيح يكمن فى معرفة الأسباب الحقيقية للاعتقال ، وفى رأى هذا الاتجاه أن موقف الدولة هو رد فعل لموقف التكتل منها ، فتغيير الخط اليسارى والقيادة اليسارية هما مفتاح الموقف ، وحل الأزمة برمتها .

واتهم أصحاب هذا رأى بأن منهجهم أقرب الى منهج مجموعة « حدتو » والتى رفضت الاضراب باعتباره استمرارا للخط اليسارى، وأن قضية الاعتقال يجب أن يحل سياسيا من خلال فكرة الوحدة الوطنية والتحالف بين القوى الوطنية .. ومما تجدر الإشارة اليه أن معظم أعضاء (ع . ف والراية) يعترفون أن حدتو قد أرست تقاليد نضالية فى السجون والمعتقلات .

وتاريخ اضرابات الشيوعيين عن الطعام فى السجون كانت تشهد دائما مواقف متعارضة بين التنظيمات المختلفة ، كما حدث فى يوليو عام ١٩٥٥ فقد أضرب المعتقلون من الحزب الشيوعى الموحد - وأغلبيته من حدتو - فى أوردى ليان أبى زعبل ، وكانوا أغلبية كاسحة ، بينما رفض دخول الاضراب معهم زملاء الراية ، دنى (ع . ف بعد ذلك) وأعلنوا هذا لإدارة السجن حينما دخل علينا همت وفرقته - ونحن فى اليوم التاسع من الاضراب - وضرب

وكسر وجلد الكثيرين منا - وكنت واحدا منهم - وجمع ملابسنا وحاجياتنا ليسرقها العساكر .

أما (ع . ف) فهناك رأى داخلها يدين الاضراب عن الطعام باعتباره أسلوبا سلبيا لا يليق بالمناضلين ، وهو يغذى الوهم بأن مثل هذه الأساليب يمكن أن تقود الى نتائج ثورية ، مما يتعارض مع التربية النضالية الواجبة ، ويضيفون الى ذلك أن الاضراب سينهك الزملاء صحيا ، وأن المطالب الأساسية لن يستجاب لها ، بينما المطالب الأخرى يمكن تحقيقها على مدى أطول وبخسائر أقل .

أما مجموعة الأفق فرأت المزايدة في هذه المعركة للتعجيز ، وطالبت بأن يستمر الاضراب حتى الافراج . . . وتغلب رأى أغلبية ع . ف الذى يطالب بدخول الاضراب بحجة أنه يمكن أن يوحّد المعتقلين ويكون بمنابة اعلان جماعى ضد الاستنكار .

كانت مطالب الاضراب هي الافراج ، والى أن يتم يجب تحسين المعاملة وتحقيق ظروف حياتية أفضل بإلغاء السخرة وتحويل العمل فى المزرعة الى عمل اختياري ، والسماح بزيارات الأهالى وتلقى خطاباتهم وطرود الأدوية والملابس والمأكولات ، والسماح للمعتقلين بارتداء الملابس الملكية الخارجية والداخلية ، والتحسين الشامل للطعام ، وزيادة التعامل مع الكانتين الى عشرة جنيهات للفرد الواحد فى الشهر ، وفتح الزنازين ليلا ونهارا ، والسماح للطلبة بتأدية الامتحانات واستلام كتبهم الدراسية ، والسماح بالصحف والمجلات والكتب والراديو والورق والقلم ، وتحويل من يستحق من المرضى الى المستشفيات المختصة ، وإدانة سياسة الاستنكار ووقفها ، والافراج عن المسجونين الذين أنهوا مدة عقوبتهم وعدم تحويلهم الى معتقلين وتطبيق الافراج عليهم بثلاثة أرباع المدة ، وتشكيل لجنة سياسية قضائية للتحقيق فى جرائم القتل والتعذيب .

دخل الاضراب حوالى ٢٥٠ معتقلا على دفعات بدأت فى أوائل يوليو ١٩٦١ وحتى اليوم الثالث عشر لم تكن الادارة قد تقدمت بأكثر من بعض التحسينات فى المعاملة وفى اليوم الخامس عشر ساءت صحة بعض الزملاء وسجل نائب الأحكام العسكرى الحالة وفى يوم ١٦ من الاضراب وصل رئيس النيابة العامة من القاهرة ووعد بنقل المطالب للجهات العليا وطمأن الجميع بمستقبل أفضل ، وبأنهم سيستمعون الى أخبار سارة فى نفس الليلة - ٢٣ يوليو وفعلا صدرت قرارات التأميم الواسعة .

أحس المضربون أنهم قد اختاروا الوقت الغير مناسب للاضراب، وأن الاستمرار فيه بعد صدور قرارات يوليو يعتبر خطأ كبيرا ، وأحست القيادة التى اتخذت قرار الاضراب بالخرج الشديد ، فهذه القرارات تتعارض مع خطهم السياسى اليسارى ومع الاستمرار فى الاضراب ، وأنهم لا يستطيعون أن يتخذوا موقفا يتعارض مع السياسة الرسمية للحزب ، ونصحهم أحد القياديين فى الراية وهو فى نفس الوقت مسئول الاضراب بأنه يمكن التصرف واتخاذ قرار بفك الاضراب دون الإشارة الى موقف الحزب ولكن زميلا من الأقلية علق على نصيحته بلهجة التشفى من موقف الأغلبية قائلا : أفكر مش مهمتك انك تطلعهم من الورطة !

ومما يذكر أن زميلا سأل ابراهيم هرارى وهو من المنظرين لسياسة ع . ف : ايه رأيك يا زميل هرارى فى قرارات التأميم ؟ فقال : ضربة حاسمة للبورجوازية الكبيرة . . فسأله الزميل : فقط ؟ فقال : وقطاعات هامة من البورجوازية المتوسطة ، وضحك من كانوا واقفين وقالوا : يعنى مش تدعيم للاحتكارية يا زميل هرارى ؟ وابتسم ثم يقول : هذا كلام يعاد فيه النظر .

ورأى هرارى له أهميته لأنه يملك ثروة نظرية ، كما كان أحد المحامين القلائل للشركات المصرية الكبرى ، وكان بحكم عمله يعرف الكثير عن الاقتصاد المصرى .

غير هرارى رأيه هذا بعد أن كلفته قياداته أن يلقي خمس محاضرات منسالية تتلخص فى أن هذه القرارات تدعيم لرأسمالية الدولة الاحتكارية (٢٣) .

المقاومة بحركة ثقافية وفنية :

بعد صدور قرارات يوليو ١٩٦١ التأميمية ثم رد الرجعية عليها بالانفصال السوري ، وما أعقب ذلك من صدور ميثاق العمل الوطنى ، يضاف الى ذلك رفض الافراج الملوث بالاستنكار والمهانة ، كان لهذا كله أثره فى احساسنا بالثقة والامل فى انفراج المحنة .

كان المطلوب تجميد عقولنا بتحريم الورقة والقلم واعتبارهما من الكبائر .. وباحساس ذاتى بالدفاع عن النفس تحدينا هذا التعسف ، بل وتحدينا فقر الرمال وتيهها فى هذه الواحة الموهلة فى الصحراء .

كان علينا أن نتذكر كل ما خزنناه فى عقولنا من ابداعات الانسانية لنشره بين الزملاء ، كنا كتبنا متنقلة ، كان نبض الحياة يشع فى أعماقنا ، وكان الامل فى حياة متجددة يملأ حياتنا .

تفجرت فى مواجهة حملة الاستنكار حركة ثقافية لمقاومة التصفية واليأس اتسمت بالعناد لاشاعة الثقافة والضحكة والمرح فى شكل تمثيليات ومسرحيات وأغنيات وأشعار ومحاضرات ثقافية

(٢٣) مصطفى طيبة . رسائل سجين سياسى الى حبيبته ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ،

وتعليمية من أجل مزيد من الانتاج الفكرى والروحى والتوعية
السياسية لحماية ارواحنا وعقولنا ، ومن أجل مزيد من الانتاج
الزراعى لانقاذ أجسامنا من الأمراض والعلل ، حتى ننتصر فى هذه
الواحة المتطرفة على الجذب وافقار العقول .. خلقنا حياة مزدهرة
خففت من أحاسيس الوحشة ، وتفاعلت خبرات المعتقلين مع
المسجونين القدامى .

من هنا تنوعت الأشكال الثقافية والفنية التى ترفع من
معنويات الانسان وتصلب ارادته وتشحذ قدراته الإبداعية .. كانت
هذه الأشكال ردا فكريا على الواقع المر الذى وضعنا فيه .

المحاضرات :

نظمت المحاضرات فى جميع فروع المعرفة ، حتى يصبح السجن
بحق مدرسة للشوار .. كان المحاضرون يتنقلون بين الزنازين
أو يلقون محاضراتهم فى طريقة العنبر أو فى موقع السخرة فى فجوات
الأرض بين الرمال والأشواك أو فى المسرح فيما بعد أو فى حفرة فى
المزرعة أو فى حجرة الاستراحة بها ويتجمع الزملاء حول المحاضر ..
كان الهدف التسليح بالنظرية وفهم الواقع وقضاياها والتزود بالثقافة
العامية .

من المحاضرات التى أقيمت بالمسرح محاضرات فى الاقتصاد
قدمها عادل حسين بعد اجراءات يوليو ١٩٦١ يدلل بها على صحة
الخطا السياسى للحزب الشيوعى المصرى (حدثو) ، وقدم الدكتور
فوزى منصور فى نفس الموضوع عدة محاضرات يؤكد بها صحة
خط (ع . ف) ، وقدم أحمد طه عدة محاضرات عن الحركة النقابية
فى مصر ومحمد على عامر قدم خبرته فى الحركة العمالية المصرية ،

كما قدم فؤاد حداد على المسرح وفي العنابر كثيرا من أشعاره :
ملحمة أوردى ليغان أبى زعبل عن استشهاد شهدي وتعذيب زملائه،
وبعض الرقصات وقصائد عن أبنائه مثل قصيدة عن عيد ميلاد
ابنه :

اللى لادى (الليلة دى) اللى لادى قسال لى أمين وامين
كسروان

فاتت سنة على يوم ميلادى

كبرت صبحت كبير الشأن

بوسة وبوسة وبوسة كمان

بوسة شقاوة وبوسة جنان

بوسة تغلى الفجر يطلع

بوسة تغلى الصبح يبان

وقصيدة عن ابنه الذى افتقد حضنه وأخذ يبحث عنه
ويتحسس على السرير بجانبه :

على السرير بارد وخالى جنبى بابا مطرحك

أنا جسيته وسابت من عيوني دموع وسالت

وانت يا باب مقفول وساكت امتى بابا يفتحك

وانت ياسلم ياسلم امتى بابا يطلعك

امتى بابا ينام بطوله جنبى ودراعى ينوله

يا الكلام اللى بقوله امتى بابا يسمعك

وأتحفنا فؤاد حدادا بقصيدة عن السلام والحرية ورمز لهما
بعنتر وعبلة :

عنتر ملك في الفواقي الحرب وغزلها
عشق حورية اسمها الحرية وغزالها
ذوبان وطى وضرب في الحى بالحدين
والسلم كان حلم ما اتلمت عليه يدين
ان عاد لعبلة قطف قبلة من الخدين
وجمع في ثوبها خيوط الشمس وغزلها
دلوقت عنتر وعبلة في كل حي كتار
دلوقت للسلم والحرية نفس التار
والسجن تضحية والحر اللي ما يختار
مش قبلة لكن براح الدنيا مغزى لها

كما قدم فؤاد حداد بالاشتراك مع متولى عبد اللطيف قصيدة
الشاطر حسن ومطلعها :

كانت مهرة مالهاش شهرة الالهلال أبيض على القورة
كذلك قدم محمود شندى بعض أشعاره ، كما قدم محسن
الاعسر تجربة الكفاح المسلح في القتال عام ١٩٥١ وقدم رؤوف نظمي
اغنية لولاك يابكره :

ولولاك يابكره ما كان النوم سكن عيني
ولا كنت اشوف في المنام من كان تعشقه عيني
ولا كنت أسهر وأغنى وأقول ياليل ياعيني

وغنى لنا الشاعر مصطفى كمال حسن فؤاد من تأليفه
يا عطشجى القطر الميرى خليك مستنى شوية
عالم طالع طيرى وأنا ساندہ برمش عنية
قطرك عمال يتنهد وضلوعه حديد فى حديد
ايش حال قلبى المتشهد ايش حال والشوق بيزيد
بقالنا كتر نستنى ايامنا الحلوة تعينا
نزلنا قبل الجنة ونكمل على رجلينا
يا عطشجى القطر الميرى خليك مستنى شوية
كما ألقى علينا قصيدته عن السد العالى ومطلعها :

اعلى كمان اعلى كمان خلى شواشى الفجر تبان
يامنور من عند أسوان طل علينا واعلى كمان

وأقيمت جامعة شعبية يحاضر فيها عديد من المثقفين وأساتذة
الجامعات ، ويعقدون الامتحانات لروادها ويمنحونهم الدرجات
ويقومون لهم الاحتفالات عند تخرج كل فوج .

والى جانب المحاضرات ازدهرت الندوات والمسابقات والمناظرات
والمنتديات العامة فى العنابر وفى المزرعة واشترك فيها محمود أمين
العالم ومحمد صدقى وابراهيم عبد الحليم وزكى مراد وصلاح حافظ
وفتحى خليل وصنع الله ابراهيم ومعين بسيسو وأمير اسكندر
ومحسن الخياط ورؤف نظمى .. وفيها تفجرت طاقات مبدعة فى
القصة والرواية والمسرحية والشعر .

كما جذبت الصحافة الناطقة أعدادا كبيرة من المعتقلين والمسجونين في طرقات العنابر . كانت هناك مجلات أسبوعية تسمع ولا تقرأ ولها مكان وموعد محدد ، أصدرت حدتو مجلة الهواء ويرأس تحريرها محمد صدقي كسبه . ومصطفى كمال حسن فؤاد ، كما أصدرت ع . ف والراية المجلة الناطقة ويرأس تحريرها طاهر عبد الحكيم وأديب ديمتری وفتحى عبد الفتاح ، وأصدر مجلة الأفق تكتل من الراية ويرأس تحريرها فيليب جلاب ورؤوف نظمی .

كما ظهرت وكالة « واس » لعبد الستار الطويلة

كانت كل مجلة تعبر عن رأى التنظيم الذى أصدرها وتشتمل على تحليلات سياسية وبحوث نظرية وتاريخية ومناسبات وطنية أو قومية ، كما كانت تشترك فى الصراع بين التنظيمات ، وتقدم تعليقاتها على الأخبار ، كما تقدم نقدا أدبيا ومسرحيا .

المسرح :

مثلت بعض المسرحيات فى طريقة العنبر ، ثم نبئت فكرة بناء مسرح روماني وضع تصميمه المهندس فوزى حبشى ، وأصدر الأستاذ حسن فؤاد مجلة يومية باسم « المسرح » لتثير الحماس لبنائه فى الركن الشمالى الشرقى من فناء السجن وكان يعاونه داود عزيز ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٢ يناير ١٩٦٢ . كان الهدف أن يتم البناء ليقدم أول عرض عليه فى يوم المسرح العالمى فى ٢٧ مارس ١٩٦٢ .

كانت المشكلة هى ضرب كمية كبيرة من الطوب بما يكفى بناء المسرح ، وقام الزملاء بعدد من التجارب حتى يصنعوا طوبة صلبة ، ولكنها لم توفق ، وحل المشكلة الرفيق محمد شطا وهو عامل نسيج

وقائد نقابي قديم فاد العديد من الاضرابات العمالية وكان أحد قادة
حدثو ، فأشار الى تكوين خلطة من تراب الصحراء + طين
الصلصال + بن = عجينة متماسكة اذا جفقت في الشمس
اكتسبت الصلابة ، ونجحت التجربة وبدأ العمل خمسون زميلا
لضرب الطوب ومثلهم لحفر أرضية المسرح ، وكانت المساحة المطلوب
حفرها من الأرض ٢٠٠ × ٥٠ مترا وبعمق مترين في المتوسط .

واقامت مسابقات للحفر وضرب الطوب بين الزنازين ،
وسجلت زنزانة محمد شطا الرقم القياسي في عدد الطوب الذي
أنتجته ، وكانت الجوائز توزع على الزنزانة الفائزة في مسابقة
ضرب الطوب أو الحفر .

في أول يوم بدأ فيه الحفر وضرب الطوب لبناء المسرح مثلت
في طريقة أحد العنابر مسرحية العتمة لشوقي عبد الحكيم والتي
أخرجها داود عزيز لتثير حماس الزملاء للمشاركة في بناء المسرح .

كان للمسرح مدرجات دائرية كمقاعد للفرجة على هيئة حدوة
حصان .

تم بناء المسرح في الموعد المحدد وعرضت عليه أولى المسرحيات
في يوم المسرح العالمي عام ١٩٦٢ .

مثلت على المسرح مسرحيات : حلاق بغداد لمؤلفها ألفريد فرج
ومسرحية الخبر عن حرية الصحافة وألفها ومثل فيها صلاح حافظ ،
ومسرحية عائلة الدوغري والناس اللي تحت لنعمان عاشور
والسبنسة لسعد وهبه وبعض مسرحيات لشكسبير وبول سارتر
وبرنارد شو وإيسن ونجيب الريحاني ، وقدم حسن فؤاد « بيت

الدمية « لايسن » وفصلا من « ماكبث » ، كما ترجم لويس بقطر مسرحية « ماكبث » وقام بإخراجها .

وقد رسم صبحى قللىنى لوحة وضعت على الحائط الكبير فى المسرح لحمامة السلام ومساحتها عشرة أمتار فى ستة أمتار ، كما أعد وجهين أحدهما ضاحك والآخر باك .

وقد برع فى الاخراج صلاح حافظ وحسن فؤاد ولويس بقطر ، وأشرف ألفريد فرج على بعض المسرحيات ، وقام الفنانون بالمشاركة فى حياكة الملابس من ورق الكوريشة بألوانه المتعددة .

وكشف التمثيل عن مواهب متنوعة منها : على الشريف وأحمد حجازى وفخرى مكارى ومحمد حمام وخالد حمزة وصلاح حافظ ونبيل الهلالى وعدلى عزيز ومصطفى عبده وإبراهيم مرسى ومحمد سعدة .

وقد حضر المحافظ ومأمور السجن وضباطه وبعض موظفى المحافظة بعض هذه العروض المسرحية وأعجبوا بها . .

لعب المسرح دورا كبيرا فى التنقيف والترفيه ورفع المعنويات .

كما كان هناك مسرح العرائس الذى قدمه صلاح حافظ وبدأ أقرب الى الأراجوز ، ثم تطور الى مسرح عرائس حقيقى .

المكتبة :

نشطت الجهود لتكوين مكتبة فقام الزملاء باستجلاب بعض كتبهم الخاصة لأثراء مكتبة السجن حتى وصل عدد الكتب بها الى عشرة آلاف كتاب من النوع الجيد فى أفرع الثقافة والعلوم المختلفة .

التأليف والترجمة والنشر :

نشطت حركة التأليف والترجمة وأبدع الفنانون في اخراج هذه المؤلفات والمترجمات ، ووفرت الأوراق والأقلام وفرق للنسخ والاخراج والتجليد ثم التوزيع واعداد المخابىء ، وكانت تنسخ ثلاث نسخ لارسال احداها الى الخارج وتبادل نسخة أخرى للقراءة أما الثالثة فتؤمن للطوارئ .

الفنون التشكيلية :

لعبت الفنون التشكيلية دورا كبيرا في تليين الادارة وكسب ودها وكسر حالات الطوارئ والتشديد في المعاملة ، فأنشئت المراسم والأتيليهات وأفران الخزف ، ورسمت مئات الصور للزملاء وللضباط ، وزينت العنابر خاصة في المناسبات الوطنية والقومية والدينية ، زاد عدد المساركن في فنون الرسم والنحت والخزف وصب الجبس ، فانتشرت هذه الأعمال في كل ركن من أركان السجن ، وازداد عدد المتذوقين للفن ، وعرضت أعمال الفنانين في طرقات العنابر وظهرت قدرات ابداعية على مستوى عالمي مثل الفنانين حسن فؤاد وزهدى - وكل منهما كان له أتيليه خاص - ووليم اسحق (الملك) وداود عزيز وعبد الوهاب الجريتلى . الخ .

لقد شهدت السنتان الأخيرتان في سجن المحاريق نشاطا فنيا وثقافيا وفكريا وسياسيا واسعا لم تشهده أى بقعة أخرى - من أرض مصر - كانت الحصيلة عظيمة في الحوار الفنى والثقافى ، أما الحوار السياسى فكانت حصيلته أقل ، فقد تجمد الكثيرون على مواقفهم ، بينما تعاون المثقفون والفنانون من مختلف الاتجاهات . . كانت المواهب الجديدة تلجأ اليهم بغض النظر عن التنظيم الذى ينتمى اليه هذا أو ذاك .

الألعاب الرياضية :

لحماية أجسامنا حدث الاهتمام بالرياضة ، فكونت الفرق المختلفة : فرقة للكرة الطائرة وأخرى للسلة وهناك حمل الأثقال رانتنس والمسي ، ولكل فرقة زيها الرياضى وحكامها وجمهورها .

الحياة داخل الزنزانة :

نظمت الحياة داخل الزنازين ، فلكل زنزانة عمدة يشرف على توزيع العمل بها فكل زميل عليه نبطشية يوم فى خدمة الغرفة من استلام اليمك ، وتحسين طهيه بما يتوافر من امكانات خاصة بعد أن وفرت المزرعة لنا كثيرا من خيراتها ، وعليه مسح وغسل الأرضية يوميا وغسل القروان وغسل جردل البول بالتراب وبالمياه يوميا وكذا جردل الشرب ، وفى المساء يكون هناك زميل قد أعد نفسه لرواية قصة أو مسرحية أو بعض خبراته ، وقد تشترك الحجرة فى مناقشات سياسية أو تنظيمية بينما يقوم كل اثنين من المدخنين بتدخين نصف سيجارة ، وفى أحسن الأحوال سيجارة كاملة وينجز ، وأحيانا يتم هذا بعد اعداد أكواز الشاي فى حالة اليسر وفك التكديرة .

كانت حياة السجن فى فتراته الأخيرة أشبه بمعسكر للكشافة، أبواب العنابر مفتوحة والتجول حر فى حوش السجن ، والشراء من الكانتين مباح ، وزيارات الأهالى لا تنقطع عن الموسرين لمشسقتها وتكاليفها التى لا يتحملها الكثيرون ، والخروج الى المزرعة يعد نزهة ، والأعمال الفنية معروضة فى أركان السجن ، ونشرات واس متتالية نحمل لنا أخبار مصر والعالم من الترانزستورات السرية ، وراديو السجن يذيع الأخبار والأغاني والخطب السياسية ، هذا الى جانب الصحف الناطقة ، والكتب المؤلفة والمترجمة .

لقد أنطقنا الصخر وجعلناه ينبت الزهور ، وبين عنبري ١ ، ٢
كانت الأرض صخرية حجرية فأقمنا عليها حديقة وشجرا وأحواضا
للزهور .

بناء المسجد :

لم يكن بسجن المحاريق مسجد ، رغم وجود الاخوان المسلمين
فيه لفترة طويلة وتمتعهم بحرياتهم داخله ، ورأى الشيوعيون علاج
هذا النقص ، فقام حسن فؤاد والفنان زهدى وداود عزيز وعبد الوهاب
الجريتي بوضع تصميم لبناء مسجد داخل السجن ، شارك الجميع
فى بنائه ، فقد قام الزميل محمد برق بصنع نموذج من الخشب
لقالب الطوب وتعاون الزملاء فى ضرب كمية كافية من الطوب بنفس
العجينة التى بنى بها المسرح ، وقام الزميل على الشريف والزميل
عبد المنعم ناطورة وآخرون بالبناء .

وكان تعليق موظفى السجن أن من يقال انهم كفرة فاموا ببناء
مسجد ، بينما الاخوان لا يفعلون شيئا سوى النوم تحت الشجر
وبجوار حوش السجن .

صراع سياسى مفتوح :

فتحت حرية الحركة داخل سجن الواحات الباب لصراع سياسى
مفتوح وعنيف بين التنظيمات السياسية من جهة وداخل هذه
التنظيمات من جهة أخرى . . أعلن هذا الصراع عن نفسه من خلال
المجلات الهوائية ومن خلال المناظرات والتقارير المكتوبة ، والاجتماعات
التنظيمية أو المفتوحة ، والنقاش المحتدم داخل الزنازين وفى طرقات
العنابر ، وحوش السجن وفى المزرعة ، ومن خلال هذه المنابر تبلورت
ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول :

ويقول به الحزب الشيوعي المصرى (حدثو) يرى أن على قمة السلطة مجموعة اشتراكية يجب مساندتها وانجاز وحدة عمل معها ، وأن تأميمات يوليو الواسعة تضرب النمو الرأسمالى وأن ميثاق العمل الوطنى يأخذ بالمنهج الاشتراكى فى التطور ويقترّب من الاشتراكية العلمية ، ويفتح الطريق لتحقيق الاشتراكية . وهذا الرأى لم يقولوا به بعد اجراءات يوليو ١٩٦١ وانما كان رأيهم قبل ذلك بكثير .

فقبل حملة الاعتقالات فى أول يناير ١٩٥٩ كان رأيهم أن عبد الناصر ومجموعة معه تمثل القوى المتقدمة فى البورجوازية الوطنية ، وكانوا يسعون لاقامة تحالف مع عبد الناصر ومجموعته فى السلطة ، ويعتبرون أن فى السلطة قوى يمينية تحاول ضرب هذا التحالف ، وجر عبد الناصر والحكومة ككل بقيادته الى الاتجاه اليميني .

وبعد الاعتقال وبعد تأميم بنك مصر فى فبراير ١٩٦٠ وقبل محاكمة قضية شهدى بالاسكندرية عقدوا كونفرنسا سياسيا استمر سبعة شهور فى الاسكندرية وفى أبى زعبل ، وفى سجن القناطر وظهر فيه رأيان الأول يقول اننا فى مرحلة الثورة الاشتراكية ، وان هناك مجموعة فى السلطة هى ليست كل السلطة لها أفكار اشتراكية لكنها غير علمية .

وكان هناك رأى آخر يرفض فكرة المجموعة الاشتراكية ، غير أن الكل كان يعتبر عبد الناصر رجلا وطنيا .

انتهى الكونفرنس بإصدار قرار المجموعة الاشتراكية الذى يقول :

انه بتأثير الحركة الشيوعية فى مصر والمواقف الوطنية لهذه المجموعة « مجموعة عبد الناصر » وصدامها مع الرأسمالية الداخلية واتجاهها الوطنى والاستقلالى عن الامبريالية العالمية وتأثير الأفكار الاشتراكية فى العالم ، كل ذلك قد أدى الى وجود اتجاهات اشتراكية غير علمية ، لم تصل الى الفكر الماركسى اللينينى وان ذلك قد نشأ خلال الاتجاهات التجريبية لهذه المجموعة ، ورأى المجتمعون أن الموقف منها هو وحدة العمل من أجل الأهداف الوطنية الديمقراطية ، وفى الوقت نفسه العمل على دفعها فى اتجاه الاشتراكية العلمية ، وكان فى تقديرهم أنه توجد ظروف موضوعية تسمح بدفعها فى هذا الاتجاه ، اتجاه تبنى الماركسية اللينينية ، وأن هذه المسألة يمكن أن تحدث أو لا تحدث ، الا أن لهم دورا فى اتجاه هذه المحاولة، وكان فى تقديرهم أن فكر عبد الناصر يتطور الى الأمام وليس الى الوراء ، يتطور مقتربا من الماركسية ، وليس مبتعدا عنها .

كانت حدتو ترى أن الثورة الاشتراكية يمكن انجازها بحزب الطبقة العاملة الذى يتكون بوحدة الشيوعيين مع المجموعة الاشتراكية ، وأن هذا الحزب سوف يكون بقيادة عبد الناصر على أساس أن عبد الناصر سوف يتحول الى الاشتراكية الماركسية - كما فعل كاسترو ، وأن هناك ظروفا تمكن من هذا التحول .

الاتجاه الثانى :

وتمتله الراية وهو يرى أن حركة التأميمات تضرب وتصفى الرأسمالية الكبيرة وقطاعات من المتوسطة وتفتح الطريق أمام نمو غير رأسمالى ، لكنها اذا لم تقترن بتوفير مناخ ديمقراطى للجماهير ستكون عاجزة عن أن تتسم بالعمق والمحتوى الاجتماعى .

الاتجاه الثالث :

وتتمسك به ع . ف التى ترى أن التأمينات نوع من رأسمالية الدولة الاحتكارية وهى تدعم النمو الرأسمالى .

والحقيقة أن الاتجاه الأخير قد فوجئ بأجراءات يوليو ١٩٦١ التى لم يتوقعها أبدا انطلافا من موقفه الفكرى اليسارى الذى رفع شعار اسقاط النظام ، لكن بعض رموزه - وقد أخذتهم المفاجأة - كانت بادرت الأولى - التى صرح بها حين سئل عنها - متعاطفة مع هذه التأمينات واقترب من التقييم الموضوعى لها ، ثم سريعا - أمام حملة الهجوم عليه - تراجع وحاول أن يلعلم نفسه ويجتزئ من هنا أو من هناك بعض النصوص يقتبسها بقسوة بعيدا عن مناسخها وسياقها ليرد بها على الهجوم الكاسح الذى تعرض له ويبرر بها سياسته اليسارية وفكره المنحرف ومثال ذلك ما حدث من الدكتور ابراهيم أرنست هرارى وهو أحد المنظرين للاتجاه الأخير حين سأله أحد الزملاء عن رأيه فى قرارات يوليو ١٩٦١ - وسبق أن أشرنا الى هذه الواقعة .

ومثال آخر هو ما حدث من « أبو سيف يوسف » السكرتير العام للحزب الشيوعى المصرى (ع . ف - الراية) فقد غير رأيه اليسارى بعد قرارات يوليو ١٩٦١ وأعلن رأيا قريبا من رأى (حدثو) أمام المحكمة عند محاكمته وأصدر به تقريرا وظل على هذا رأى حتى وصل الى الواحات وأعلن أنه لن يرضخ لأى ضغوط لتغيير رأيه الذى أعلنه أمام المحكمة ، وكان هناك أمل كبير لتيار (الراية) أن يستمر على رأيه ولا يخضع لضغوط زملائه من « ع . ف » وهو تياره التاريخى ، ولكن حدث العكس فقد ضغطوا عليه وصوروا له أن استمراره فى موقفه لا يعنى سوى هزيمة تياره

التاريخي لصالح تيار تاريخي آخر ، فما كان منه الا أن قدم نقدا ذاتيا لنفسه في بيان له في اجتماع عام بطريقة أحد عنابر السجن ، ذكر فيه أنه اكتشف أنه وقع تحت تأثير سياسة حدثو وانزلق دون أن يدري - الى الفكر اليميني ، لأنه كان وحده في الخارج بعيدا عن زملائه ، ولما اجتمع بزملائه اتضح له أن رأيه السياسي خطأ ويلتقى مع الآراء المعادية للطبقة العاملة ، وأنه الآن يوافق على خط الحزب الطبقي ويستنكر آراءه السابقة التي تخدم مصالح البورجوازية وتلتقى مع الفكر الرجعي واليميني !

وقبل أن يلقي سكرتير الحزب بيانه قدمه أحد زملائه القياديين ، فندد بالفكر اليميني البراق الذي استطاع أن يؤثر في سكرتير الحزب وجعله يقف موقفا سياسيا خاطئا لكن زملاءه استطاعوا بالمناقشة أن يساعدوه على اكتشاف أخطائه المدمرة .

وبعد هذا المشوار الطويل في الانحراف اليساري أهدك بعض قادته الهوة الخاطئة التي اندفعوا اليها فحاولوا التماس العذر لهذا الشطط .

فأرجعه حلمي ياسين - بعد الافراج - الى صدور الأحكام القاسية في قضيته بعد اجراءات التأميم مما جعل الرؤية لهذه الفرارات غير دقيقة (٢٤) .

مع أن الانحراف اليساري سابق على صدور الأحكام بزمان طويل .

(٢٤) د . فخري لبيب (الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

ويبدو أن تجميع الشيوعيين فى الواحات واحتدام الصراع السياسى بينهم كان مقصودا من النظام لتصفية القضايا المثارة بينه وبين الشيوعيين باتاحة هذا المنتدى الفكرى الذى يتحاورون داخله حول ما أنجزه النظام عمليا وما طرحه فكريا ، وقد دار فى هذا المنتدى حوار شاق وعميق ، يتضح منه خصوبة الفكر الشيوعى المصرى على اختلاف اتجاهاته ، فقد طرحت فى الواحات أفكار سبأغة طرحت بعد ذلك فى تجارب العالم الثالث فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفى النزوع الى التحولات الاجتماعية ذات الأفق الاشتراكى ، لقد شحذ الصراع فى الواحات فكر الشيوعيين ازاء الإنجازات العملية والفكرية داخل المجتمع ، فتحاوروا فيما بينهم لاثبات صحة النموذج الناصرى للتنمية ، وكان النظام يستفيد من هذا الحوار فى تخصيص أفكاره ومواقفه .

كانت قرارات يوليو ١٩٦١ تفترض الافراج عن الشيوعيين لكن يبدو أن عبد الناصر أخر هذه الخطوة حتى يصل الشيوعيون بأنفسهم - ومن خلال تناطحهم - الى صحة النموذج الذى يصنعه عبد الناصر للتنمية وعدم جدوى النموذج الذى يطرحه الشيوعيون ، أى الاقرار بهزيمتهم فكريا هذا بالاضافة الى انحياز عبد الناصر لنموذجه واقامة الأدلة على صحته من خلال واقع الحياة العملية فى مصر والصراع الفكرى داخلها ، وبالفعل لم يتم الافراج عن الشيوعيين الا بعد أن تقاربت كل الأفكار من فكر النظام .

لم يكن المطلوب فقط الايمان بالنموذج الناصرى فى التنمية ، انما كان المطلوب أيضا ونتيجة لذلك حل التنظيم المستقل وهى الفكرة التى طرحها السادات على محمود أمين العالم عام ١٩٥٨ وهدد بالشنق وبعزل الشيوعيين عن الجماهير عن طريق منافستهم فى تنفيذ شعاراتهم . . لم يكونوا على استعداد لمشاركة أحد معهم

فى الرأى أو الحكم ، لذلك رفضوا أى شكل تنظيمى مستقل حتى ولو كان مؤيدا لأنهم لو قبلوا بحقه فى التأيد اليوم فذلك يعنى القبول بحقه مستقبلا فى الاختلاف ، وهذا مرفوض من جانبهم ، أنهم لا يقنعون الا بالسلطة الشاملة .

الرحلة الى أسىوط :

كسرت نظارتى فى حفلة الاستقبال بأوردى ليمان أبى زعبل يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٩ وعشت بلا نظارة عاما ونصف العام لا أبصر الأشياء جيدا ، ومع ذلك تحملت وتحمل غيرى ما كان يعانىة من أمراض ، بل لقد تورأت هذه الأمراض ، وبدأ وكأنها اختفت واستوعبها الجسم باحساسه بالخطر الذى كان يهدده كل لحظة أمام آلة التعذيب الرهيبة ..

ولكن ما ان هدأت المخاطر الخارجية التى كان يتعرض لها الجسم حتى بدأت الأمراض تتكالب عليه وتعرض الزملاء لعدد منها فأخذت تلح طلبا للعلاج حيث يتوفر هذا العلاج فى القاهرة أو فى أسىوط .

لم تكن المعاملة فى الفترة التى سبقت استشهاد شهدى تسمح بالموافقة على التحويل للمستشفيات المتخصصة للعلاج ، أما بعد استشهاد شهدى ووقف التعذيب فقد بدأ أطباء السجن يكتبون بالتحويل وتوافق المباحث العامة بعد مراوغات .

وبالنسبة لى تمت الموافقة على ترحيلى الى سجن أسىوط ومن هناك الى مستشفى أسىوط الأميرى لاجراء كشف نظارة تمهيدا لعملها .

فى أول ابريل ١٩٦١ رحلت بالأوتوبيس من أمام السجن فى
حراسة ضابط وثلاثة عساكر من المحاريق الى أسيوط .. بدأت
السيارة تمرق بنا وسط الرمال الصفراء والحجارة الصماء والتيه
الشاسع والحرارة المحرقة ، ونودع معها مؤقتا مظاهر الحياة التى
ان تنوعت فى راكدة محدودة وحين أصبحنا على مشارف وادى
النيل ، بدأ الهواء المنعش يهب علينا ويرطب قلوبنا وينعش مشاعرنا
بحياة متدفقة ، وانطلق العمال الصعايدة الذين يعملون بالوادى
الجديد ، وهم الآن يعودون بالأوتوبيس الى قراهم لقضاء اجازاتهم
بها ، انطلقوا فى أغانيهم التى تمتلئ بالحنين والشوق الى أهاليهم
وقراهم والى النيل والخضرة :

بلدى يابلدى وأنا نفسى أروح بلدى

ياعزيز عينى السلطة خدت ولدى

ارتعش جسمى وانتفض جلدى ، كان الاحساس أننى أنتقل
من العدم الى جو ينبض بالحياة والخضرة .. رياح النيل تهب علينا
فتحيى الآمال .. نرى خلال الطريق مياه النيل تتدفق ، ونرى
الفلاح يكد فى أرضه منحنيا عليها يعزقها أو يرويها ، كما نرى
أولادا صغارا وبناتا ونساء ورجالا عاديين يمشون فى الطرقات ،
ونسلم أصوات العصافير وهى تمرح وتطير بين أغصان الشجر ..
مناظر غابت عنا لفترة طويلة .. لذلك كنت أعيش كل دقيقة تمر
بى ، والسيارة تخترق المزارع وتطل على النيل ، كنت أملا عيني
وصدرى وحواسى بالحياة التى نمر بها ، كما كان نظرى ينعطف
أحيانا لتأمل مناظر الركاب بالسيارة .. مشاهد أردت أن أعوض
بها الرصيد الذى استنزف فى السجن والمعتقلات طوال العامين
الماضيين .

ومع ذلك كان هناك الاحساس بالقلق والحرمان ، فهذه الرحلة بالأتوبيس التى استغرقت ثلاث ساعات كان يقطعها القطار البطيء فى ١٢ ساعة ، لكننى لن أرى أهلى ولن أكون حراً فى تنقلاتى .. لم أشعر بالزهو حين وجدت تشريفة ضخمة فى انتظارى ، جيشاً من العساكر والضباط ، أحاطنى هذا الجيش وأنا فى الطريق الى سجن أسبوط وقد تجمع الناس على جانبيه يرصدون فى سخط وتعجب هذا المشهد الغريب لشاب أفندى مقيد بالسلاسل يلبس بدلته ويحمل حقيبته ويحيط به جيش شاهر سلاحه .. أى خطر يمثله هذا الشاب ؟! الله فى عونته من هذا الظلم .

وصلت الى السجن ووضعت فى احدى الزنازين منفرداً ، لأن أوامر المباحث عزلى عن الاختلاط بالمساجين .

سجن أسبوط يتسبه سجن مصر فقد شيد على النظام الانجليزى ثلاثة أو أربعة عنابر يضم كل منها أربعة أو خمسة أدوار ويحتوى كل دور على خمسين زنزانة .

ويتميز سجن أسبوط عن سجن مصر مثلاً بأن غالبية المسجونين به محكوم عليهم فى قضايا تتعلق بالشرف أو الثار أو نزاع حول الرى أو دفاع عن الأرض ، بينما القليلون هم الذين دخلوا السجن بسبب السرقة أو الاختلاس أو المخدرات ، أما فى سجن مصر فأغلب المسجونين محكوم عليهم فى قضايا الاختلاس والمخدرات والسرقة والتزوير والتفقة والمنازعات حول الميراث .

ذهبت لمستشفى الرمد مرة واحدة وحصلت على كشف النظارة - ولازال عندى هذا الكشف حتى اليوم احتفظ به من ذكريات الاعتقال .

عدت مرة أخرى الى الواحات بعد أن مكثت بسجن أسبوط عدة أيام .

الفصل التاسع

التمهيد للافراج

الترحيل الى الفيوم :

في أواخر عام ١٩٦٣ رحلت مع مجموعة من المعتقلين الى معتقل عزب الفيوم مرة أخرى - بعد أن مكثت بسجن المحاريق بالواحات الخارجية أكثر من ثلاث سنوات - كنت مستولا عن المجموعة التي رحلت معي واستمر اعتقالنا بالفيوم حوالي خمسة شهور .

والتعذيب البدني وان كان قد توقف في الفيوم غير أن الحياة هناك كانت أسوأ حالا من الواحات ، فالعناير منفصلة عن بعضها حتى في الفسح ، يمنع الاختلاط بينها بحواجز متباعدة من الأسلاك الشائكة

لم أقابل طوال فترة الاعتقال أخي أحمد فقد قبض عليه قبلي بأيام في سبتمبر ١٩٥٩ وقبل ترحيلي لمعتقل الفيوم كان موجودا به ، وكنت أمل أن ألقاه هناك لكنهم رحلوه الى السجن الحربي قبل أن أصل الى الفيوم ، لذلك لم نلتق الا بعد الافراج فقد أفرج عنه قبلي بحوالي شهرين .

عشنا فى الفيوم الفترة الأخيرة من الاعتقال فى عزلة وحياة
خاملة نعانى من الناموس الذى يؤرق حياتنا ، وكان البعض منا
يتقيه بعض الشئ باقامة خيمة من القماش الخفيف على مرتبته .

رغم هذا التضيق تمكنا من الحصول على راديو ترانزستور
نسمع منه الأخبار كما نستمع منه الى حفلات أم كلثوم . . . كان
هذا يتم سرا وحفرنا له مخبأ لتأمينه ، - كنا تصدر مجلة مكتوبة فى
إخراج فنى راق نتداولها ، وتتسع لنشر الأخبار والتحليلات التى
تساعد على توحيد أفكارنا كما تتضمن المقالات التى تتناول قضايا
الصراع السياسى والفكرى الدائرين التنظيمات المختلفة والآراء
المتباينة فى المشكلات المختلف عليها .

لم أعرف شيئا عن أخبار أسرتى طوال فترة الاعتقال التى
تقرب من الخمس سنوات ، كانت أول رسالة وصلتني قبل الإفراج
عنى بشهر تقريبا حين أفرج عن أخى أحمد فأرسل الى بعض
الملابس وداخل الخياطة بها أرسل لى رسالة يخبرني فيها بأحوال
الأسرة ، ووقتها فقط عرفت من مات ومن تزوج منها كما عرفت
أحوالها المالية التى تدهورت واضطربت أثناء فترة اعتقالنا فمحل
أخى أحمد الذى كان يعد لافتتاحه توقف بالقبض عليه والمحل
التجارى الخاص بأخى الحاج محمد قد تأثر فأغلق منذ سنوات ،
وتوفيت جدتى منذ شهور قليلة وكان أملها أن ترانا قبل أن تموت .

اتخذت تصفية المعتقلات وقتا طويلا . . كانت الرجعية التى
عششت وتحصنت فى كثير من أجهزة الدولة خاصة المباحث العامة
والمخابرات ، تعارض اتمام الإفراج وتقوم بالتأمر ووضع العقوبات
أمام تنفيذه ، بحجة أنها لا تريد أن يخرج المعتقلون أبطالا وتطلب
إعطائها مهلة ، حتى يتم التنفيذ ، ونشطت المباحث لفرض الاستسلام

والاذلال بالاستنكار ولم يستجب لها إلا على محدود وقد وجهت جهودها بالمقاومة والصمود .

كانت أول دفعة أفرج عنها سياميا دون تنازلات تضم عناصر مستقلة عن التنظيمات وإن كان لها انتهاؤها الفكرى والسياسى ، وكان ذلك عام ١٩٦٠ بعد تأميم بنك مصر وبعد استشهاد شهدى .

كان أول من خرج الى الحرية المستشار سعيد الخيال ثم يوسف حلمى غلطفى الخولى فلويس عوض وعبد الرازق حسن ، تم الافراج عن هؤلاء فى حدود أسبوعين أو ثلاثة .

أتذكر أن الدكتور لويس عوض كان يؤكد لى - ونحن فى أوردى ليمان أبى زعبل نعانى التعذيب - أنه لا يمكن أن يكتب مرة أخرى فى الصحافة فى ظل انعدام الحريات ومعاداة الديمقراطية . . ولكنه خرج وكتب فى الصحافة ، بل وسمعت أنه قام بدور فى تعليم صلاح سالم اللغة الانجليزية ، وفسرت تصريحاته السابقة بأنها مجرد انفعال وقنى له ما يبرره ، فهو ناتج عن التعذيب الذى عاشه ولم يكن يتوقعه فى أى يوم فى حياته .

هذه المجموعة التى أفرج عنها لعبت دورها مع آخرين من العناصر اليسارية الشريفة ، فى تمهيد الطريق للافراج وتصفية المعتقلات ، فقد أثارت موضوع الاعتقالات مع أحمد سيكوتورى رئيس غينيا حتى يناقشه مع جمال عبد الناصر ، كما أثارت مع قيادة الثورة الجزائرية ومع قيادة الثورة الفلسطينية كما شجعت الصحفي الفرنسى أريك رولو على الحضور الى مصر ، وهو مسئول عن قسم الشرق الأوسط بجريدة « الموند » الفرنسية وهو يهودى ومصرى الأصل وتقدم ، وطلبت منه أن يستعين بالأستاذ محمد حسنين

هيكل ليسهل له مقابلة عبد الناصر ويشير معه الأوضاع الداخلية والخارجية والمركة مع الاستعمار والصهيونية والرجعية ، وقضية الديمقراطية والمسجونين والمعتقلين ، وقدموا له المعلومات الدقيقة عن حالة المعتقلين ٠٠٠ قابل الصحفي عبد الناصر الذي أعلن له لأول مرة عن وجود معتقلين ، وأنه بسبيل الافراج عنهم .

دهش عبد الناصر للمعلومات الدقيقة التي يعرفها الصحفي عن المعتقلين ، فسأله عن مصدرها وبدلا من أن يخبره بأن مصدرها هم الصحفيون المصريون اليساريون ، قال له انها من أرشيف « الموند » .

كانت البشائر الايجابية لانفراج الغمة هي الافراج عن جميع المعتقلات السياسيات وعددهن ٣٥ سيدة وآنسة من سجن القناطر نساء في ٢٤ يوليو ١٩٦٣ .

ومع هذه الجهود والتصريحات استمرت المناورات والعرافيل حتى آخر لحظة .

كان من الواضح أن هناك عناصر مضادة لنا في كثير من الأجهزة ، بل كان هناك صراع على السلطة ، فالاشتراكية التي أعلنها الميثاق كان هناك من يرى أنها اشتراكية عربية ومن كان يرى أنها تطبيق عربي للاشتراكية .

حين اقترح لطفى الخولى عمل دراسة عن التركيب الطبقي لرجال الجيش باعتبار ثورة الجيش لها دور وطني ، استحسنها هيكل ورحب بها عبد الحكييم عامر ، وتعهد بوضع ملفات كل الضباط تحت يده ، ثم توقف ذلك .

لم يكن عبد الناصر مطلق الحرية تماماً في اتخاذ ما يراه من قرارات ، بل كانت له حدود ، وقد اتضح ذلك بعد محاكمة عبد الحكيم عامر ، كان البعض يتساءل في حيرة : لماذا لا يفعل عبد الناصر كذا وكذا من الأمور ، لكن هيكل الذي كان مطلعاً على الخلفيات أجابهم : « انتو ناسيين أن البلد فيها جيش » . كان هؤلاء يتصورون أن عبد الناصر هو الكل في الكل ، ولكن القوى المتخلفة - وحتى عبد الناصر ومجموعته - كانت تضيق ذرعاً بوجود تنظيم مستقل بعيد عن سيطرتها ، كانوا لا يرغبون في وجود تنظيم آخر غير تنظيمهم ، وكانت هذه هي نقطة الالتقاء بين عبد الناصر ومجموعته وبين القوى الرجعية .

ولكن كانت مصر قد اتفقت مع الاتحاد السوفيتي على بناء السد العالي بعد أن تخلت عنه أمريكا والغرب والبنك الدولي ، ونشط السوفيت في بناء السد واقترب موعد افتتاحه في مايو ١٩٦٤ وكان خروشوف سيحضر هذا الافتتاح ، ورأى عبد الناصر أنه ليس من اللائق أن يزور خروشوف مصر وفي معتقلاتها حوالي الألف من المعتقلين والمسجونين الشيوعيين والوطنيين والتقدميين والنقابيين ، وأشيع أن هذا كان شرط خروشوف لزيارة مصر ، فأخذ عبد الناصر في الإفراج عن المعتقلين .

في الثاني من إبريل طلب منا الاستعداد للرحيل من الفيوم أعدنا حقائبنا وحملنا معنا جهاز الترانزستور وأرشفيف المجلات والتقارير التي أصدرناها في الفيوم .

أذكر أنني في مساء هذا اليوم ذهبت لأغسل وجهي بدورة المياه ثم خرجت إلى الفناء بين العنابر ، تنفست هواء عميقاً ، شعرت بالقوة وبراحة الضمير ، أحسست أنني خرجت من تجربة الخمبس

سنوات وأنا محافظ على قوتي وصلابتي ونقائى .. لم أضعف ولم
أستسلم ولم أرتكب أى سقطة نضعف من كرامتى ، وانطلق
لسانى : الحمد لله .. الحمد لله ..

لقد حافظنا طوال هذه الفترة على تاريخنا السياسى الطويل
المعادى للاستعمار والمتطلع الى الاشتراكية ، لم نخنه ولم نقبل عنه ،
وصمدنا أمام كل المحن .

السجن الحربى :

أقلتنا السيارات الى جهة القاهرة وانزلتنا فى السجن الحربى
.. ولأول مرة أدخله ، كان اسمه ورهبته وشهرته فى قسوة المعاملة
تسببه ، ولكننا كنا ندرك أننا فى طريقنا الى الافراج .

يقع السجن الحربى فى ذلك الوقت فى منطقة صحراوية
منعزلا عن المناطق الأهلة بالسكان وهو مبنى ضخيم أصم نوافذه
صغيرة كالثقوب ، من دخله يشعر بعزلة لا عن العالم فقط بل عن
الزمان والمكان .. ان السجن يتلاشى كل مكوناته فى هذا المكان
ويتحول الى مجرد رقم تتحكم فيه زبانية تقيم له جحيما ، وأحاطت
هذا الجحيم بسلطات سماوية ادعتها ، والمسكين ليس أمامه
الا الخضوع ...

ان هذا المبنى يختزن فى داخله كل صراخ العالم ، ويحتوى
خلف جدرانه دويا مكتوما لآلام تفوق طاقة البشر .

يضم السجن الحربى عدة سجون : مبنى اسمه السجن الكبير
يضم الجنود السجناء فى غير القضايا السياسية ، ويعاملون معاملة
بريرية الى درجة التعدى على رجولتهم لاذلالهم ، ولا يترك تعذيب

الواحد منهم حتى يختار لنفسه اسم امرأة ينادى عليه به طوال مدة سجنه ، وهناك مبنى كبار العسكريين من الضباط السجناء ويسمى اسم « الأسير » وهو معتقل ارستقراطي الى حد ما يشبه الفيلا فى بنائه ، وهناك المعتقل رقم واحد الى جوار مبنى الادارة ، والمعتقل رقم ثلاثة وهو معتقل التكدير الخفيف ، ثم المعتقل رقم ٤ وهو أسوأ المعتقلات جميعا ، فيه التعذيب الذى يستهدف التركيع ، وللمعتقل باب حديدى ضخيم يفتح على فناء غير مسقوف تتوسطه دورة مياه حولها فراغ يحيط به دائريا طابقان اثنان من صفوف الزنازين .

لم نمكث فى السجن الحربى سوى ليلة واحدة ، وفى الليلة الثانية حملتنا السيارات ونزلنا منها فى الشوارع .

اذكر اننى نزلت من السيارة فى شارع نوبار باشا بالقرب من الداخلية ، وأخذت حقيبتى وتركتها فى محل بقالة بحى عابدين يملكه ابن خالتي ، ثم مشيت حرا لأول مرة - بعد خمس سنوات فى المعتقل ، مشيت لمكتب الأستاذ أحمد مجاهد بشارع شريف ، ولما لم أجده عدت وأخذت حقيبتى ، وذهبت الى خالى المتولى بالحلمية الجديدة ، وفى اليوم التالى سافرت الى قريتى وأهلى بميث الحلوح مركز دكرنس .

كان ذلك يوم ١٩٦٤/٤/٤ وعند هذا اليوم كان جميع المعتقلين قد أفرج عنهم ، ولم يثبق فى سجن المحاريق سوى مائة واثنين من المسجونين الشيوعيين .

كانت الرجعية حتى آخر لحظة تعمل على منع الافراج عنهم حتى فى اللحظة الأخيرة التى خرج فيها المعتقلون من سجن المحاريق يوم ١٩٦٤/٤/٤ دبروا اغتيال لويس اسحق ردا على قرار الافراج عن المعتقلين ومحاولة لمنع اصدار عفو عام عن المحكوم عليهم .

ويبدو أن حادث الاغتيال هذا قد أسرع بصدور العفو عن
المسجونين الشيوعيين .

ومع ذلك ونتيجة لتصارع القوى فى قمة السلطة وحبك
المؤامرات فى أجهزة المباحث العامة والمخابرات تعرض المسجونون
لمدة شهر وعدة أيام لحالة من الشد والجذب بين الافراج والاستمرار
فى الحبس ، فقد تم ترحيلهم لأسىوط وبذا خلا سجن المحاريق من
الشيوعيين المعتقلين والمسجونين ثم شتوهم فى سجون المحافظات
ثم جمعوهم فى سجن مصر ، ثم أفرج عنهم ، واستغرق ذلك شهرا
وكانت آخر دفعة أفرج عنها يوم ١٠/٥/١٩٦٤ بعد بدء زيارة
خروشوف بيوم .

خرجنا الى الحرية والى تغيير فى حياة الناس :

خرجنا الى الحرية وذهبت الى القبرية ، وكنت وزميلي
عبد السلام خشان آخر من أفرج عنهما من الثمانية المعتقلين من
القرية ، فقد خرج الستة الآخرون تباعا خلال السنة الأخيرة من
الاعتقال .

استقبلتنا القرية استقبالا طيبا ، ولكن الخوف كان قد ملا
قلوب الناس خلال تجربة الخمس سنوات من الاعتقال التى حجبنا
فيها عن القرية .

كانت المباحث قد ركزت عليها فى المراقبة والمتابعة ، فلا يخلو
يوم الا ويجوس فيها المخبرون ، ولا تمر صلاة جمعة فى المسجد
الا وكان لهم وجود دائم به ، وأصبح لهم عملاء مرشدون يجالسونهم
حتى صاروا من وجهاء القرية بعد أن كانوا من العاطلين « الصيع »
الضائعين الذين ينفر منهم الناس وينبنونهم حتى صاروا قادة فى
البلد يقودون المظاهرات التى تهتف ضدنا ونحن فى السجون مجاملة
للحكومة ورعبا منها وإثباتا لبراءتهم .

تغيرت الأحوال فى القرية - كان الناس قبل اعتقالنا يفتخرون بمصاحبتنا وينصحون أبناءهم بملازمتنا ومجالستنا والسير معنا ، فكنا اذا جلسنا فى مقهى أو على مصطبة أو حول دكان المزينين أو سیرنا على شاطئ البحر الصغير التفت حولنا جموع الشباب .

الآن تغير الموقف .. يقابلنا الناس فى الشوارع فيسلمون علينا باحترام وينصرفون .. كنت أنا وعبد السلام خشان نسير على شاطئ البحر وحدنا ونسمع « مصمصة » بعض الناس وهم يجلسون على الكوبرى ينعون حالنا ويتصعبون لما وصلنا اليه ونسمع : « ضيعوا أنفسهم كانوا أحسن الشباب وأذكى الطلبة ، ضيعوا مستقبلهم » ، أصبح الذين ضحينا من أجلهم يتخلون عنا !!

كنت قبل الاعتقال قد تخرجت من الكلية ، ورغم فصلى السياسى من الحكومة فقد عملت فى مدرسة أجنبية ، وكان دخلى من الناحية المالية طيبا .. الآن وبعد خروجى من المعتقل فلا عمل لى ، لا طالب ولا موظف .

وكذلك عبد السلام خشان تخرج من كلية أصول الدين قبل الاعتقال ، والآن هو عاطل بلا عمل وكان أحمد عبد الرازق قد فصل من التدريس وهو بالمعتقل ، فلما أفرج عنه قبلنا بأكثر من سنة اشتغل بالتدريس بمدرسة خاصة بالقاهرة ثم سعى لاستصدار قرار من وزارة التربية والتعليم بإعادة تعيينه ، وبعد معاناة أعادوا تعيينه عضوا فنيا مع حرمانه من التدريس ، أما فتحى مجاهد وأحمد العدل فقد خرجا قبلنا بعدة أشهر والتحقا بكلياتهما وفرض فتحى مجاهد نفسه للعمل فى مصنع ملابس جاهزة بالقاهرة أنشأ زميلان لنا أفرج عنهما قبلنا بفترة هما محمد الزعفرانى وشحاته النشار ، وعمل محمد الامام لفترة كمحصل على خزينة محل سندوتشات بشارع

مجلس النواب ، ثم عاد الى عمله عضوا فنيا بعد أن أبعد عن التدريس - لأنهم نسوا فصله بعد اعتقاله ، واستكمل دراسته في كلية الآداب ، أما أحمد أخى فقد ضاع منه المحل الذى كان قد بدأ فى افتتاحه قبل الاعتقال ، وبعد خروجه من المعتقل عمل لعدة شهور عاملا « بياعا » بأحد محلات الأقمشة بدكرنس ، واضطرت الأسرة الى أن تبيع له نصف فدان من الأرض المتبقية لنا بعد بيع أغلبها أثناء الاعتقال ، وفتح المحل الذى كان يديره أخى الأكبر - الحاج محمد - والذى كان قد أغلقه بسبب الأزمات المالية التى لاحقتة أثناء اعتقالنا . أما عبد الحميد عبد الرازق فقد مارس مهنته كترزى فى إطار ضيق .

كانت خطة الحكومة لإعادة المعتقلين والمسجونين السياسيين الى أعمالهم وتوفير أماكن عمل لمن فقدوا أعمالهم هى الامعان فى القهر والتعذيب والمطاردة ، كانت استمرارا للاعتقال والسجن فى صورة أخرى ، كانت الخطة تعنى الاذلال والمماطلة والمراوغة لترك الناس فترة طويلة ، فى حالة بطالة وضياع لاستنزاف طاقاتهم فى الجرى وراء إعادة تعيينهم حتى يصلوا الى درجة الاستسلام والرضا بأي وضع يلقي اليهم .

ولم يحدث هذا فقط بل الى جانب تأخير التشغيل لأطول مدة ممكنة كانت هناك تفرقة بين العمال والمثقفين عموما ، ثم الاذلال للجميع بتعيينهم فى غير تخصصاتهم حتى يوقفوا نموهم الوظيفى ، ويفرضوا عليهم الغربة فى أعمالهم ، كما يتم التعيين فى أدنى الدرجات وبمرتبات ضئيلة تبدأ بأول مربوط الدرجة للشهادات الحاصلين عليها دون مراعاة لمدة الخدمة السابقة والخبرة ، حتى أصبح هناك فرق شاسع بينهم وبين زملائهم العاديين فى التخرج ، وكان هذا مقصودا حتى يستنزفوا جهودنا لسنوات أخرى فى السعى

لتسوية حالاتنا ومساواتنا بزملائنا في التخرج ، وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك .

كانت اللجنة التي أوكل اليها أمر التشغيل تسمى لجنة العطار ومقرها بالجهاز المركزي للتنظيم والإدارة وتصدر قراراتها باسم على صبرى رئيس الوزراء ، ولم تشكل الا بعد شهور طويلة من الافراج وكان التقديم اليها فرديا - لمزيد من الاذلال ، وكان الواجب أن يتم ذلك من خلال كشوف تقدم من قبل التنظيمات التي حلت نفسها حتى تشمل كل الأسماء ، ولكن الحكومة رفضت التقديم الجماعى ، لذلك كان هناك من لم يتقدم لهذه اللجنة ، وكنت أحدهم - لأننى تقسمت لوزارة التربية والتعليم أنا وعدد من المدرسين الذين سبق فصلهم لاعادة تعييننا ، وكانت هذه اللجنة لم تشكل بعد .

وهكذا يتضح من هذا المسلك روح التشفى والعداء الذى يتعارض مع الوعود البراقة التى كانت تدعو الى حل الحزب وتكوين تنظيم واحد يضم كل الاشتراكيين فى مصر بقيادة جمال عبد الناصر .. ان هذا المسلك الفظ يفضع الشرك الخادع الذى نصبته الحكومة للشيوعيين .. وياليتها بذلك خدمت نفسها أو خدمت أهدافها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بل لقد حفرت قبرها بنفسها ، وجنت على الوطن والأمة وضيقت كفاح الشعب سنوات طويلة من أجل بناء وطن حر ومستقل واشتراكى - فما ان توارى عبد الناصر حتى استدار السادات بسياسة مصر ١٨٠ درجة كاملة فهدم كل ايجابيات الثورة التى لم تجد لها من يحميها ويحافظ على استمرارها .

قلت ان القرية قد امتلأت رعبا فى فترة الاعتقال ، وزادها رعبا وخوفا قصص التعذيب التى عانيناها فى السجون والتى كان فتحى مجاهد ومحمد الامام يطنبان فى حكيها لأهل القرية بعد الافراج عنهما .

كان الجو السياسى يساعده فى عملية عزلنا وإبعاد الناس عنا ، فقد حققت الثورة للفئات الشعبية كثيرا من المكاسب ، التى كنا دائما نطالب بها ، فالى جانب الاصلاح الزراعى قامت بتأميمات واسعة وأشركت العمال فى مجالس الادارة وفى الأرباح وأقرت المعاشات وحددت ساعات العمل . ورفعت مرتبات كبير من فئات الموظفين الصغار ، و خلقت كثيرا من فرص العمل وأنشأت العديد من المدارس والجمعيات التعاونية لخدمة الزراعة ببعض احتياجاتهم وتوفير بعض السلف لهم ، وتسويق منتجاتهم مع انتهاج نظام التجميع الزراعى . . هذا الى جانب الشعارات الوطنية والقومية ومعاداة الاستعمار والاقطاع والرأسمالية المتحالفة مع الاستعمار ومحاربة الأحلاف والانفتاح على المعسكر الاشتراكى بصفقات السلاح والتصنيع وبناء السد العالى ، بل لقد رفعت الثورة شعار تطبيق الاشتراكية ، وأصدرت ميثاق العمل الوطنى كوثيقة فكرية فى هذا الاتجاه .

كان كل هذا يشد حماس وتأييد الجماهير للثورة ، ويثير فيها الروح المتوثبة ، وأصبحت بخطب عبد الناصر كأنها البلسم تجد قبولا وراحة لدى الشعب ، وتمسح عنه ما يعانى من مشكلات وتعطيه الأمل فى مستقبل أفضل . . كان قائدا له حضوره وتأثيره المطاغى على الجماهير التى يصعب اقناعها بأن هناك أشياء ناقصة يجب أن تتوفر لحماية هذه المكاسب ، والا تعرض كل ذلك للانحيار . . كان الناس يقولون لنا « عبد الناصر عمل اللى انتم عاوزينه ، وكنتم تطالبون به - آمال انتم عاوزين ايه ؟! تريدون الحكم ؟

مسألة الحريات والديمقراطية وتعدد الأحزاب والرأى والرأى الآخر والرقابة الشعبية مسألة لا يفهمها ولا يعبرها اهتماما سوى نخبة من المثقفين ، أما الجماهير العريضة فلم يكن يعنىها هذا كثيرا فهى ليست مسيسة وليست هناك أحزاب تعمق هذه المفاهيم .

كنا ونحن فى المعتقل وأمام الاجراءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأمام السياسة الخارجية المتقدمة للثورة قد اقتربنا كثيرا من فكر عبد الناصر ، كما اقترب هو من فكرنا الى درجة التنظير بأن هناك مجموعة اشتراكية فى السلطة يجب علينا أن نندمج معها لبناء المستقبل الاشتراكي لمصر فلما خرجنا من المعتقل لم نجد ولم يجد الناس منا فروقا واضحة بين ما نقوله وما يفعله عبد الناصر ، وانعكس هذا الفكر على التنظيم الذى أصيب بحالة تمييع وانعدام القوام ، كان نشاط الكوادر والأعضاء نشاطا محليا واقليميا يحركه الحماس والايمان الذاتى أكثر منه حركة مخططة منظمة من أعلى .

كان العمل التنظيمى المستقل للحزب بطيئا ومحدودا وروتينيا أقرب الى الدفاع الذاتى ، وأبعد عن الابتكار والابداع ، كنا معزولين لخمس سنوات عن الواقع وعن الناس ، هؤلاء الناس الذين ضحينا وسجنا من أجلهم يرفضوننا الآن ولا يتحمسون لنا .

هذا الواقع كان له انعكاساته على حماس الأعضاء وايمانهم باستمرار التنظيم المستقل .

كانت السلطة تدرك ذلك ، فالتقطت بعض الأفراد خاصة من القيادات التى خرجت من المعتقلات والسجون تباعا والحققتها بالتنظيم الطليعى الذى أنشأه عبد الناصر فى مجموعات مختلفة منها مجموعة أحمد فؤاد ومجموعة خالد محي الدين ومجموعة مجدى حسنين ومجموعة سامى شرف وكل مجموعة لها قيادة ، وتجتمع هذه القيادات مع شعراوى جمعة الذى كان ممسكا بالتنظيم الطليعى .

الفصل العاشر

الغداغ وحل الحزب واستمرار المطاردة

ثم حل الحزب واستمرت المعاناة والمطاردة :

كانت هذه هي الأرضية التي دفعت كوادر الحزب الى الإقتناع
بإنهاء الشكل المستقل والانضمام الى تنظيم عبد الناصر .

لم يكن السبب أن الناس قد ضعفوا أو أن التنظيم تفسخ ،
ولكنها الظروف الموضوعية التي تركت انعكاساتها الذاتية الخطيرة ،
حتى عبر الزميل عبد السلام خشان عن ارتياحه للحل بأنه كان
يحمل زكية كبيرة واستراح منها .

كان شيئا ملفتا للنظر أن ينقذ - علي عجل - كونفرنس
لبعض كوادر الحزب في بيت يوسف صديق بالهرم - وقد حضرت
هذا الكونفرنس - ليناقشي المجتمعون فيه إنهاء الوجود المستقبلي
للحزب .

كان المتفق عليه في الحزب - وقد تضمنه تقرير منه قدم
للكونفرنس - وجوب استمرار الحزب وعدم إنهاء وجوده الا في
حزب واحد مع المجموعة الاشتراكية على أساس الماركسية اللينينية،
وهو نفس الموقف الذي اتخذ داخل السجن وقبل الافراج .

ولكن النقاش فى الكونفرنس جرى حول انتهاء الوجود المستقل، وعلى أساس أن هذه الخطوة يمكن أن تساعد على تحقيق تكوين الحزب الواحد، وبناء على هذه المناقشة اتخذ القرار بإنهاء الوجود المستقبل للحزب الشيوعى المصرى « حدثو »، وذلك من أجل تكوين الحزب الواحد . . الخ، على أن هذا لا يعنى وقف النشاط وإنما زيادته، كما اتفق على بقاء واحد يكون كرمز للحزب - وهو كمال عبد الحليم - يعبر عن استمرار حدثو، حتى يتم هذا التنظيم الواحد، وقد تمت الصياغة بهذا الشكل حتى يؤخذ القرار بالاجماع، ولكن كان هناك عدد محدود على رأسه محمد عباس وطاهر البدرى رفض فكرة الحل واستمر فى نشاطه، ولكنه كان محدود التأثير والحجم .

كان على كمال عبد الحليم أن يقدر الظروف ويحدد أن عملية الاندماج قد تمت، ولكننا فوجئنا به فى نفس الجلسة يعلن انتهاء وجوده المستقل ويرسل برقية الى عبد الناصر بهذا المعنى يوم انتخابه رئيسا للجمهورية .

كان ملفتا للنظر أيضا أن كثيرا من القادة والكوادر الأساسية لم تحضر هذا الكونفرنس لأنها كانت قد انضمت للتنظيم الطليعى .

كان هناك قرار بأن من يدخل التنظيم الطليعى يقطع صلته بالتنظيم الحزبى، وعليه أن يكافح من داخل التنظيم الطليعى فى اتجاه الدمج ودخول كل الناس ورفع العزل السياسى عن الشيوعيين والكفاح ضد القوى الرجعية، وجرت مناقشات قيل فيها ان حدثو كلها سوف تدخل التنظيم الطليعى وأن التنظيم الطليعى سنوفى يكون ماركسسيا لينينيا، وأن هذا هو الاندماج الكامل الذى كنا نطالب به وعلى أساس الماركسية اللينينية .

جری هذا الكلام مع أحمد فؤاد وأحمد حمروش ، وبعد مرور أسبوع قالوا للزملاء لقد كان هناك لبس . . كان هناك خطأ . . وانتهى الأمر بالقول انهم سيأخذون جزءا منا ثم طلبوا أناسا بالاسم .

كانت مأساة مضحكة تطورت اليها الأحداث ، وأراحت الكثيرين ، ومع ذلك فقد سمعت أن الثورة لم تقتنع بحجم هذا الكونفرنس وطلبت تعميم الموافقة على قراراته ، ويبدو أنه تمت اجتماعات أخرى أكدت هذه القرارات ، كما سحب ذلك جمع توقيعات ممن لم يحضر هذه الاجتماعات .

ومع ذلك يبدو أن هذا الحل كان اجراء عسيفا ، وأنه أحيط بكثير من الوعود وعمليات الخداع والغش ، ثم تبخر كل هذا ، فلا التنظيم الطبيعي ضم كل الفعاليات النشطة ولا توحد هذا التنظيم وواجه قضايا مجتمعه بجدية وحسم ، بل يبدو أنه كان هياكل هشة ومتصارعة أقرب الى الدكاكين الخاصة منه الى تنظيم حقيقي موحد ، فلم يثبت فعالية في المواقف الحاسمة .

ومن سخریات القدر أن التنظيم الطبيعي بعد قرار الحل قام بعملية فرز لمن دخلوا فيه من الماركسيين قبل الحل ، واستبعد كثيرا منهم بحجة أنه سيقوم بتوحيد فروع المختلفة وعلى كل واحد انضم الى أحد هذه الفروع أن ينتظر حتى يتم الاتصال به ، واتصلوا ببعض ممن يرغبون في الاتصال به ، ولم يتصلوا بالآخرين . . . وهكذا حلت حدتو نفسها ولم يتكون الحزب الواحد لا بالدمج الفوري ولا بالدمج المتدرج .

هل كان قرار الحل صائبا ؟ صحيح كانت الظروف الموضوعية والذاتية صعبة ، وكان تعنت الحكومة وحتى الجناح المتقدم فيها

قد أعمته السلطة والتفاف الجماهير حوله وتصوره أن الدنيا ملك يديه ، وأنه يمتلك الحاضر والمستقبل ، فوضع الشيوعيين أمام طريق مسدود في وقت كانوا فيه في شبه عزلة عن الجماهير ، وحاصروهم بالتهديد والوعيد ، ولم يترك لهم الا خيارا واحدا وهو حل تنظيمهم .

كانت القضية تفتقد القيادة المهمة النافذة البصيرة التي تستطيع أن تخترق الحجب وضجيج الجماهير الملتفة حول هيلمان السلطة فأعطتها الحصانة والقداسة .. كانت النظرة المهمة كفيلا باكتشاف هشاشة هذه السلطة التي استأست علينا ، وادراك فداحة أزمته وعدم قدرتها على الاستمرار طويلا بهذه الأساليب الأنانية والانتهازية .

لو كانت هناك هذه القيادة لتجنبنا المصير المؤلم الذي عايناه وعانته الثورة نفسها وحميناها من حماقتها ومن سيء تصرفها وتقديرها الذي عرته تماما نكسة ١٩٦٧ ثم غياب عبد الناصر المفاجيء في سبتمبر ١٩٧٠ .

لقد تبدي لنا بعد ذلك أن انهاء التنظيم لم يكن العلاج الصحيح بل كان التمسك به ضرورة يحتمها الاحتياط للمستقبل .

ومع ذلك ونتيجة أيضا لافتقاد القيادة المهمة انتقلت عدوى الحل الى التنظيم الآخر - الحزب الشيوعي المصري (ع . ف - الراية) الذي لم يكن حظه أحسن حالا ، فقد واجه نفس المناخ الذي دفعه الى الموافقة على حل نفسه في ابريل ١٩٦٥ .. لقد خرج من المعتقل فوجد نفسه معزولا عن الواقع ، كما انتشرت الشبيلية والانقسامية في صفوفه حتى بدأ محلولاً قبل الافراج .

وبهذا الواقع الذى فرض نفسه يعترف الدكتور فؤاد مرسى
وهو أحد القادة الأساسيين لهذا الحزب فيقول :

« لم يكن أمامنا إلا أن نقبل فكرة الحل .. ان هذا الحل يتم
لاعتبارات عملية لا شأن لها بالنظرية .. انه خروج على النظرية
لاعتبارات عملية .. موقف عملي معروض علينا فى هذا الوقت بحكم
القوة .. ولاعتبار أساسى وهو العودة للمجتمع من جديد .. لأننا
لم نكن معزولين فقط فكريا أو معنويا أو سياسيا ، انما كنا معزولين
(بالحرف) ، لا وجود اجتماعى لنا ، لا نحن طلابا ولا نحن عمالا
ولا نحن فلاحين ولا نحن أساتذة ولا نحن نقابيين .. لذلك كان
يعنينى للغاية عودة هذه المجموعة المتمسكة بفكرها الى المجتمع من
جديد ، وأن تحتل بداخله مراكز تتفاوت من أعلى الى أسفل ومن
أسفل الى أعلى .. أن يوجدوا فى المجتمع ، وأن يوجدوا كى يجددوا
صلاتهم الاجتماعية، يجددوا فكرهم مع المجتمع ، يدافعوا عن فكرهم
الذى خرجوا به من المعتقل ، كانت الفكرة الأساسية عندى أن يعود
الطالب طالبا ويستكمل دراسته ، كان ممنوعا أن يعود الأستاذ
أستاذا أو الموظف موظفا .. كانت هناك قرارات منع وفصل ، وكان
المطلوب أن يستعيد هؤلاء وجودهم الاجتماعى أولا كى يستعيدوا
وجودهم السياسى ... كيف ندافع عن مجتمع ونحن خارجه ؟ كيف
نعبر عن مجتمع ونحن خارجه ؟ كيف نعبر عن مصالح الفئات
الاجتماعية ونحن خارجها ؟

عندما خرجنا ركزنا على الوجود الحزبى المستقل ، وقمنا
بمحاولة يائسة لتجميع الناس ، وأقول يائسة لأننا عجزنا عن تجميع
الذين خرجوا ، وتلك تجربتى ، عملية تجميع الناس كانت عملية
مرهقة وغير مجدية فى نهاية الأمر ، لأن عددا من الكوادر هو الذى
ظل معنا - فى نفس الوقت كان التطبيق العملى للميثاق الوطنى

والتأمينات موجودة في البلد ، وشعبيا كأي مواطن بمدى التغيير الذي طرأ على مصر نتيجة التحول الجديد في النظام ابتداء من الستينيات ، وكان هذا ملموسا لدى الأسر كلها في معيشتها ونظلماتها وأحاديثها . ثم رأينا الى أي مدى يروج الفكر الميناقى وهو يدور حول الاشتراكية ، وكيف أن الاشتراكية بالفعل هي دستور البلد ، وأصبح هنالك بعد واضح ، نحد موضوع في التطبيق ، ان النظام نفسه يتبنى الاشتراكية ملما نبياها ، ثم ان النظام يطبقها أو يطبق ما يشبهها أو ما يسير نحوها دون أن يعرض أنصار هذه الاشتراكية لدخول السجن ، وجدنا الناس بالفعل مسنعة للانتماء لاشتراكية النظام وليس لاشتراكيننا ، لأنها اشتراكية وان يكن أكثر جدية ، وهي الاشتراكية الحقيقية لكنها مع ذلك تعرض الناس لخطر السجن وجدنا هذا في الجو العام داخل البلد ، وفي نفس الوقت كان الفكر الذي طرحه خروتشوف وقتها في ضرورة معاملة التجربة الجديدة كتجربة تتجه الى الاشتراكية ، والثقة بالنظام المصرى والثقة بقيادته الممنلة في عبد الناصر ، وكان لهذا انعكاسه على صفوف الشيوعيين المصريين و صفوف المشتغلين بالسياسة داخل مصر .

ثم أشار الى الهجوم على الشيوعيين المصريين الذين خرجوا من السجون من قبل النظام لحل الحزب أو حل التنظيم الشيوعى ، وهي عملية مقررة من داخل النظام ، وقام بالاتصالات لتحقيق هذا الهدف عناصر يسارية قريبة من النظام : كمال رفعت . خالد محي الدين - ابراهيم سعد الدين ، أحمد حمروش - ميشيل كامل وذلك من أجل تكوين شيء واحد ، وحدث تهديد بالسجن ان لم نحل الحزب .

الذى شغلنى هو مدى عزلتنا فعلا داخل المجتمع المصرى ، كان الجو هو جو العزلة ليس جو اللقاء والتقبل والاندماج أو الترحيب بنا كأناس كانوا طلائع هذا الفكر .

كان النظام يحقق انجازات ، وله جهاز اعلامى رهيب
فيما يتعلق بهذه الانجازات ، والناس مشغولة بحياتها التي تتحسن
بالفعل ولا تسوء ، وهي معجبة بالنظام تمنحه ثقتها ، والعمال
بالذات وهم الطبقة الأساسية التي تمنح ثقتها للنظام وانجازاته في
التصنيع وميدان التأمينات والأجور جو العزلة هو الذى صدمنى
شخصيا ، وشعورى أن المجتمع يمكن أن يعيش بدوننا هو الذى
شغلنى . الفكر الاشتراكي الحق الماركسي اللينيني كيف يوجد في
هذا المجتمع ؟ هذه هي الفكرة التي شغلتنى . . سياستنا اتسمت
بانحراف يساري حقيقى أدى الى عزلة الفكر الاشتراكي العلمى
ولتنظيمه بين الناس . . الناس تقارن بين واقعها وبين ما نقوله ،
وهذا قطع جذورنا التي كانت موجوده .

الفكرية اليسارية . والنحولات الاقتصادية والاجتماعية
الضخمة ، والفكرية التي نبناها خروتشوف عدلت نفكيرنا ،
فسياسيا النظام يعلن تبنيه للاشتراكية العلمية ، ويجرى انجازات
ذات طبيعة اجتماعية ضخمة ليست اشتراكية وبالتالي يمكن النقاء
بين الشيوعيين والنظام فى الحزب الطليعى الذى نص عليه الميثاق
الوطني .

فى هذه الظروف قبلنا فكرة الحل بانتهاء الالتزام التنظيمى
لكل منا حتى يستطيع أن ينضم للتنظيم السياسى للنظام وهو الاتحاد
الاشتراكي ، كان من الصعب علينا حتى أن نلفظ كلمة الحل .

ويواصل الدكتور فؤاد مرسى الى القول بأن التجربة كانت
عنيفة وقاسية ، وأن الجانب الآخر ظل متعنتا معنا فى كلا المسالتين
الاجتماعية والسياسية فلم نعامل معاملة كريمة لا اجتماعيا
ولا سياسيا .

ففي الجانب الاجتماعي لم يعد الناس الى أعمالهم الا بعد شهور عديدة بل سنوات ومن عاد أجرى معهم نوع من التمييز الاجتماعي أو الطبقي .

أما على الجانب السياسي فلم يقبل الرفاق داخل الاتحاد الاشتراكي الافرادى وبصورة انتقائية . لقد كان مرفوضا حتى وفاة عبد الناصر دخول العديد من رفاقنا في الاتحاد الاشتراكي .

لذلك قلت انه من حق أى واحد منا أن يعيد تأسيس الحزب الشيوعي ليجد المجال لطبيعي لعمله السياسي ، فنحن لا نعترف بالاحالة الى المعاش في العمل السياسي ، فمن حق الكوادر الراغبة في خدمة بلدها أن تجد مجالا وتنظيما سياسيا تعمل فيه . . . وقد نصحت الحزب الشيوعي السوداني بالا يكرر تجربتنا في الحل حين وقع انقلاب نميري وطالبه بحل نفسه حتى يتفاهم معه .

وذكر الدكتور فؤاد مرسى أن سبب العزلة الاجتماعية والسياسية هو الغياب الطويل في المعتقلات والسجون وتحقيق النورة لبرنامج الشيوعيين دون ديمقراطية ودون مشاركة حقيقة من الجماهير .

والى جانب العزلة الاجتماعية والسياسية كمبرر للحل أشار الى عامل تنظيمي وهو انتشار السلبية والانقسامية داخل حزبه فقال :

أنا لم أود أن أقول جملة يمكن أن نكون صارخة أن الحزب كان محلولاً قبل خروجنا (من السجن)

ويؤكد هذه الحقيقة د. فخرى لبيب حين يقول :

كان هناك شيء من هذا القبيل ، أما بخصوص العجز الذي واجهناه ، فقد كنت أنا حينذاك المسئول التنظيمي للحزب . وكنت أعجز أحيانا عن تدبير مكان تجتمع فيه اللجنة المركزية . وكانت تلك مأساة رهيبة ، لم يكن الأهل على استعداد لتقبل تكرار المأساة بالنسبة لهم مرة أخرى كان الكثيرون منهم متعاطفين معنا الا أنهم أيضا كانوا يخشون علينا من أن نعود الى ما كنا فيه ، كان تعاطفا انسانيا بحتا ، كما كنا أيضا عاطلين . ولم يكن الحزب بقادر على معالجة هذه البطالة والتي كانت تشكل عنصرا مدمرا للغاية .

وفى رده على اقتراحات تنفادي حل التنظيم المسنفل قال
د. فؤاد مرسى :

كان المطلوب حينذاك شيئا أكثر من التحالف بيننا وبين النظام ، ولا يمكن الدخول على هذا العمل السياسي الكبير بالحيل ، من الممكن أن أستقيل من الحزب الا أن المشكلة لم تحل . المشكلة هي التلاقى بين الاشتراكيين الجدد والاشتراكيين الماركسيين .

ويعترف د. فؤاد مرسى بأن الحكومة استخدمت القوة والخديعة ، ورغم ذلك فهناك قضية سياسية كبيرة واجبة الحل وعلينا التصدي لها ، والا فلن ينجزها أحد ، وهي اللقاء بين الطبقة العاملة والبورجوازية الصغيرة ، أى تشكيل تنظيم مناضل من أجل الاشتراكية يتكلم باسم الاشتراكية العلمية ويسلم بقيادة الطبقة العاملة ، مهمة سوف نناضل من أجلها سواء استقلت من الحزب ، حل الحزب أو لم يحل ، سواء كنت الى جوار عبد الناصر أو ضده ، كان المطلوب حل هذه المشكلة ، وهي مشكلة سياسية مطروحة

بأبعادها الفكرية والسياسية والاجتماعية والانسانية كان مسار الثورة متوقفا على حل هذه القضية ، بل لقد أصبحت هذه المشكلة عندئذ هي عقدة الثورة المصرية ، ولا مجال للتفكير في هذا الا على مستوى حزبي وبحلول حزبية (٢٥) .

كان النظام مستأسدا يملئ شروطه ، ويرفض كل الافتراحات التي تحاول تعديل بعضها ، كانت السلطة قد أعمته عن نبين الصديق من العدو ، كان يبدو محصنا مهاب الجانب لا يطاول اليه نقد أو نصيحة ، يبدو عصيا عن أى تحرك جماهيرى معارض ، تلتف حوله الجماهير بوعى أو بدون وعى . . . ولكن فجأة جاءت هزيمة عام ١٩٦٧ لنعصف بهذا كله وتقضى على كبر من المقدسات السياسية والأساطير التي صنعها الخيال أو الخوف والوهم . . . وثبت أن اجراءات الثورة ومواقفها الايجابية كانت بلا حراسة ، بلا حماية ، بلا رجال يؤمنون بها ، وبلا تنظيم يطورها ، بل كئبرا ما كان حماتها هم أعداؤها . . .

وبمجرد أن مات عبد الناصر انتكس كل ذلك وعادت الأمور الى الوراء مائة وثمانين درجة ولم تجد ايجابيات الثورة من يحميها أو يترحم عليها ، وثبت أن من ادعوا انتسابهم اليها كانوا مجرد هياكل هشة متصارعة على المغنم ، وارتفعت أصوات الناعقين بسلبياتها يضحون منها ويستثمرونها فى تشويه ايجابياتها وهدمها .

يكفى للتعبير عن ذلك الاستقبال الأسطوري للرئيس الأمريكى نيكسون فى القاهرة والأوهام والأمنيات العذبة التى أشاعتها حكومة السادات حول هذه الزيارة ، والخير العميم الذى سيصحبها .

(٢٥) د. فخرى لبيب الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ - ٥١٢ ،

وجدت القوى التقدمية نفسها في العراء ، فحاولت أن تلتق جراحها وتعلم بعض أشلائها في جو مغاير صعب وصاخب ، ومستقبل هذا كله في مهب الريح لا يعلم سوى الله ماذا سيصير اليه .

استعادة ثقة القرية :

بعد هذا الاسنرسال نعود الى القرية التي شحنتها سنوات الاعتقال بالخوف والرعب ، كان علينا أن نخرج من هذه العزلة التي وضعنا فيها وأن نزيل الخوف الذي ملأ قلوب الناس فقمنا بعدد من التحركات :

١ - اسنضعنا بعض الصحفيين للقرية لاجراء تحقيق صحفى ونشر ذلك في الصحف وكتب بعض الأخبار والمقالات بعضها عما شاهده من تغير في حياة القرية بعد سنوات الاعتقال ، ونشر ذلك في روزاليوسف المرحوم الأساذ فتحى خليل واطلع عليها أهل القرية .

٢ - عقدنا ندوة عن التعاون الزراعى بمضييفة العمدة واستضيفنا فيها عضو مجلس الشعب الأستاذ محمود موسى ، وحين حاول مخبر المباحث حضور هذه الندوة ليختال على الناس ، كما كان يفعل قبل ذلك بالقربة وملأها رعبا وتسيد عليها ، قمت بطرده من الندوة ، فهوجىء أهل القرية وتعجبوا .

٣ - قمنا بدعاية واسعة في القرية للتوعية والتثقيف بأهدافنا ، وأنها لا تتعارض مع توجهات الثورة لأننا معها ولسنا ضدها ، وما نطلبه هو حمايتها لتستمر في ايجابياتها .

٤ - وعن التعذيب ركزنا على ما تخلله من عنصر المقاومة والبطولة ، وأن التعذيب وسيلة خسيسة مدانة ومنافية لحق

الانسان فى الحرية والكرامة وحرية الاختيار ، وأن النعذيب يسىء الى سمعة الدولة التى تنهجه ، وليس هذا شرفا لها ولا بطولة منها أن تعذب الأسير الأعزل وهى تملك القوة والجبروت .

٥ - أفلتت القرية على معركة لانتخاب العمدة ، ورشح للعمودية أحد أذئاب القوى العميلة للمباحث ، والتى استثمرت اعتقالنا لاشاعة جو من الارهاب فى القرية يكرس قيادتها لها ، فقمنا بدعاية واسعة وجريئة استقطبنا فيها كل شباب القرية وأغلبية أهلها لتأييد المرشح الآخر فكانت هزيمة ساحقة لهذه القوى ، واستعدنا بذلك مكاننا ونأبرنا مرة أخرى .

لكن ذلك استغرق منا جهدا ومعاناة نفسية كانت أفسى علينا من فترة الاعتقال ، كانت البطالة تهز وجداننا ، خاصة وأن أسرنا قد تعبت وساء حالها وتدهورت معيشتها حتى غيرها بعض الأوغاد والأغبياء بنا ونحن فى المعتقل .

معاناة للعودة للعمل :

أحيانا يصاب الانسان بحالة سوداوية فيتنخيل الموت يترصده وتتوارد عليه فى منامه كوابيس مزعجة على عكس الأحلام الجميلة المبهجة التى كنا نحلم بها فى السجن .

كنت أقطع هذه الحلقة السوداوية بكثرة السفر مرة الى بور سعيد لاستعادة ذكريات حلوة عشتها بها فترة عملى قبل الاعتقال ولتحصيل مستحقات كانت متبقية لى طرف المدرسة اليونانية من مكافآت ومرتببات معلقة ، وحين شمر بوجودى ببور سعيد بعض أولياء الأمور من اليونانيين الذين كنت أعطى دروسا لأبنائهم أسرعوا لمقابلتى ودفعوا ما كان متبقيا لى عندهم من نقود منذ خمس سنوات ..

كنت في حاجة ماسة لهذه النفود ، فلم يكن هناك دخل لى ،
فالأسرة فى حالة مالية سيئة لا تقوى على مساعدتى ، سوى جسيهات
فليلة حصلت عليها من بعض أخواتى بعضها على سبيل المجاملة
وبعضها دين أدفعه عند الاستطاعة .

سافرت كثيرا الى القاهرة لمابعة اعادى الى العمل . والبحث
عما اذا كان قد صدر لى قرار تعيين بوزارة التربية والتعليم - أثناء
الاعتقال - مع زملائى الذين حصلوا على ليسانس كلية دار العلوم
التربوى لأسند اليه فى اسنصدار قرار باعادة تعيينى - وسبق
أن قلت اننى لم أقدم مسوغات لهذا التعيين لسبق فصلى بقرار من
مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء فى اول مايو ١٩٥٦ ، ولم
أعثر فى ملفات الوزارة على شىء يفيد فى هذا الأمر . وقد طلبت
الوزارة رأى الباحث العامة فأفادت أنه سبق فصلى وأنه لا مانع
لديها من اعادة تعيينى فى غير وظائف التدريس .

فى فترات سفرى الى القاهرة كنت أنزل على فصحى مجاهد
ومحمد الامام وكانا يسكنان فى حجرة ضيقة داخل شقة تسكنها
مجموعة أخرى من الموظفين الصغار العذاب فى أحد حوارى القلعة ،
كانت الحجرة تضيق بنا الى حد بتعذر معه النوم خاصة اذا
استقبلت المزيد من الزملاء وكان بنوارد عليها أحيانا الزملاء :
عبد السلام خشان ومحمود صبيح بالاضافة الى طاهر البدرى
الذى جعل اقامته بالحجرة وكان مراقبا ويتم عليه من القسم كل
ليلة . . لقد أصبحت الحجرة فى الحرية أسوأ من زنزانة السجن .

أخيرا وبعد مجهود شاق استغرق ستة شهور صدر قرار
اعادة التعيين من وزارة التربية والتعليم فى ١٩٦٤/١٠/٧
بالمنصورة بمرتب خريج مبتدى .

عرفت بعد استلامى العمل بفترة أنه كان قد صدر لى قرار من الوزارة بتعيينى مدرسا بالمنيا فى ١٩٦١/٩/٢ وأنا بالمعتقل ، وحين تابعت الأمر فى المنيا عندما نقلت اليها منفيا فى عام ١٩٦٧ تبين أن المنيا فصلتنى لعدم استلامى العمل ولعدم استيفاء مسوغات التعيين .

كان هذا الجرى والنشاط رغم قسوته مما خفف الضغط النفسى عني ، بينما قبع زميلى عبد السلام خشان فى القرية - لسوء الحالة المالية - يجتر أحزانه وأحواله النفسية السيئة مما ترك أثره المميت على صحته فانفجر منه نزيف المرئ والكبد عدة مرات - وكان قد عين واستلم عمله بمصنع الخشب الحبيبي بالمنصورة - وعانى عدة مرات من الغيبوبة حتى توفى فى ١٩٧٠/٥/١٢ .

نشاط متميز فى العمل :

استلمت العمل فى منطقة المنصورة التعليمية فى ١٠/١٠/١٩٦٤ عضوا فنيا فى شئون الطلبة والامتحانات ، ثم بعد حوالى الشهر رشحت للعلاقات العامة فنقلت اليها عضوا فنيا ، وكان رئيسها رجلا دعيا وسطحيا ولم يكن كفؤا لهذا المنصب ، وكان المحافظ فى ذلك الوقت اسماعيل فريد قد أنشأ مصيف جمصة ، ودعا عددا كبيرا من الصحفيين والكتاب والمفكرين فى المؤتمر النال للفكر الذى انعقد بالدقهلية ، وعهد الى الأستاذ عبد العزيز السيد وكيل الوزارة للتربية والتعليم بالدقهلية بجمع الكلمات والقصائد الشعرية التى أقيمت بالمؤتمر لإخراجها فى كتاب تطبعه المحافظة ، وسلمونى المسجل والشرايط التى سجلت عليها الكلمات لجمعها وكتابتها ، وقمت بهذا العمل بشكل متميز ، كما كتبت نعربرا تحليليا لهذه الكلمات والأشعار ، فكان هذا العمل محل تقدير واحترام كبيرين من وكيل الوزارة ومن المحافظ ، وترتب عليه أن

أصدر وكيل الوزارة قرارا بندبي مديرا للعلاقات العامة فكننت من ناحية السن والدرجة والمرتب أقل من المرءوسين لى . وأثار هذا أحقادا كثيرة ، رغم أن العلاقات العامة قد تحولت الى خلية من النشاط الثقافى والاعلامى على مستوى المحافظة كلها فأعياد العلم رتبت للاحتفال به فى كل مركز ، وجذبت العلاقات العامة الصحفيين والشعراء والمثقفين ، وكان منشور الصحف لا يهمهم من المديرية سوى الحصول على الاعلانات مدفوعة الأجر وكان الموظفون يتقاضون عليها العمولات فأوقفت هذا وحولته الى مجرد كتابة أخبار المديرية فى الصحف بدون أجر مقابل تقديم شهادات تقدير فى عيد العلم للمتعاونين من الصحفيين مع المديرية . . . وعممت مسابقات أوائل الطلبة التى تذاغ فى الاذاعة ومسابقة الكاس لمن التى يذيعها التليفزيون بين جميع المدارس الاعدادية والثانوية فى تصفيات متعددة فى المراكز مع منح المدارس الفائزة والطلبة المتفوقين الجوائز عى عيد العلم .

كان الاتحاد الاشتراكى يطبع مجلة « الاشتراكى » و لا يقرأها الا عدد محدود ، فوزعتها داخل المدارس الثانوية ودور المعلمين والمعلمات ، وجعل المدرسون مما ينشر بها مادة للمسابقات الثقافية بين الطلبة والطالبات .

سعت لربط المدرسة بالبيئة بالمشاركة فى محو الأمية وتعليم الكبار - رجالا ونساء - ونشر الوعى الصحى ، واقناع السيدات بقيد أسمائهن فى جداول الانتخابات ، وكانت الدقهلية هى صاحبة المرتبة الأولى بين المحافظات من جهة عدد السيدات المقيّدات فى جداول الانتخابات .

كتبتم عمودا أسبوعيا فى جريدة المنصورة لحل مشكلات الطلاب وأولياء الأمور مع التربية والتعليم ، والاجابة عن تساؤلاتهم وشكاواهم .

اشتركت بالعلاقات العامة مع المحافظة والانحداد الاسمراكى
فى قوافل للتثقيف والتوعية داخل القرى سواء بالنسبة لمحو الاميه
أو التعاون والارشاد الزراعى وغيرها من القضايا والمسكلات .

ساعدت على انشاء المدرسة ذات الفصل الواحد ولأول مرة
فى قرية الحدادة مركز دكرنس .

نظمت مع قائد ادارة المرور بالدقهلية برنامجا لنتشر الوعى
المرورى بالمدارس وعبأت معنا سيارة الوسائل التعليمية وأجهزتها
فى التسجيل والتصوير ، وقمنا بعدد من الندوات والمحاضرات
اشترك معى فيها قائد المرور وبعض ضباطه فى عدد من المدارس
الثانوية والاعدادية ودار المعلمات .

كسبت عدة مقالات فى جريدة المنصورة عن المشكله الزراعيه
وكيفيه حلها ، . وعددا من التحقيقات الصحفية عن مشكلات توزيع
أراضى الاصلاح الزراعى والجمعيات التعاونية فى عزب طناح وميت
السودان ، وعن سوء استخدام الميكنة الزراعيه فى بعض الجمعيات
التعاونية .

كتبت بالاشتراك مع زميلى الأستاذ عبد السلام خشان كنبيا
عن الاصلاح الزراعى بمناسبة عيد الفلاح فى ٩ سبتمبر عام ١٩٦٥
لتنشره المحافظة .

كتبت دراسة عن الاصلاح الزراعى واستصلاح الأراضى الجديدة
وكيفية التصرف فيها - ردا على مقالات للمهندس سيد مرعى نشرها
بالأهرام .

لجنة الدعوة والفكر :

اشتركت مع مجموعة من الزملاء : عبد السلام خشان ورفعت
السعيد وحسين عبد ربه وعبد الله الزغبى وحسن عباس ورشدى

عبد البارى وغيرهم فى لجنة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى
بالمحافظة ، وتقدمنا بخطة عمل فكرى وثقافى داخل المحافظة حين
كان الأستاذ محمد المصرى مسئولا عن الاتحاد الاشتراكى
بالدقهلية .

كما اشتركت فى الجهود التى بذلت فى النضال ضد
الاقطاعيين ومحاولتهم التهرب من تطبيق قوانين الإصلاح
الزراعى .

أنار هذا النشاط أحقادا وعداوات ممن لا يريدون خيرا
للوطن ، ومن أعداء أى نجاح ، بل ومن جهات فى السلطة والمباحث
والاتحاد الاشتراكى فعلوا على تشييت هذه المجموعة من
الشيوعيين التى انضمت الى لجنة الدعوة والفكر ، لإبعادها عن
الدقهلية والتخلص منها قبل أن تمتد جذورها على نطاق أوسع
بقرى المحافظة .

كان الموقف هو امتصاص طاقة هذه المجموعة فى مجرد كتابة
الخطط والاقتراحات ، ثم وضع كل ذلك فى ثلاجة دون الموافقة
على أن تتحول أى خطة الى عمل وحركة فى الواقع .

كانت لجنة الدعوة والفكر بالمحافظة تابعة لكمال رفعت
الأمين العام للدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى وكان نائبه محمد
نصير فكنا دائما على اتصال به وبالأستاذ عبد المنعم القصاص .

كان النشاط لا يزيد عن حضور الاجتماعات وكتابة التقارير
بالخطط التى نقتربها للتوعية الفكرية والثقافية بين الجماهير ،
وحضور الندوات التى تعقد بالمركز العام للاتحاد الاشتراكى
بالقاهرة .

فى احدى هذه الندوات - وكانت عن قرارات المؤتمر القومى للتعليم الذى كان منعقدا بنقابه المعلمين قبل ايام للسهرىف بهذه القرارات - التى انعقدت بفاعة الاتحاد الاشتراكى وجدت الأستاذ عبد العزيز السيد وكان وكيلا لوزاره التربيه والتعليم بالدقهلية ويحاول جاهدا أن يجد له مكانا فى الأجهزة القيادية بالاتحاد الاشتراكى ، فوجيء بى فى الصالة والأستاذ محمد نصير ينادينى بالاسم - وهو يجلس بجانبه على المنصة - فاندھتس لهذه المفاجاه وقال لى مش تقوللى ان لك هذه الاتصالات وتوتقت علاقته بى من يومها ، وكان قبل ذلك قد بدأ يستمع لنقد القوى الرجعية بالدقهلية واعتراضها على وجودى مديرا للعلاقات العامة ، وكان ينوى الاستجابة لها بالاطاحة بى ، لكن توقفت المحاولة من ذلك اليوم .

ضيقنا ذرعا بحالة الجمود فى نشاطنا .. فمن حقنا أن يكون لنا نشاطنا السياسى فى خدمة وطننا .. فنحن لا نعرف بالاحاله الى المعاش فى العمل السياسى .

شكوت للأستاذ محمد نصير .. قلت له اننا فككنا الحزب لتحول نشاطنا للاتحاد الاشتراكى لا أن نتجمده .. فما كان منه الا أن ترك الموضوع الرئيسى للشكوى وعلق على مسألة فك الحزب - وكنا نتخرج ونجد صعوبة فى مجرد النطق بكلمة : حل الحزب - قال : أنتم لم تفكوا الحزب بل أنتم قمتم بحل الحزب وهناك فرق كبير بينهما !!

شعرت حينئذ بغصة وبحرج كبير ، بل شعرت بالهزيمة لنا وبروح التشفى والانتصار لديه .. وهذه مشاعر متباينة لا تصلح أساسا لقيام لحمة تنظيمية بيننا وبينهم ... وهكذا سارت الامور لا الى لحمة وانما الى فرقة وتباعد ، حتى بيننا وبين القوى المتقدمة فى السلطة .

النقل للمنيا :

انتهزت قوى التخلف هذا المناخ غير الصحى وأخذت تكتب النفاير ضد نشاطنا لو أده ، ومحاولة مطاردتنا خارج المحافظة . . . كان نساطى فى التربية والتعليم هو الأكثر بروزا ووضوحا واعتبروه الأكثر خطرا لأهمية التربية والتعليم واتساع مجالها فتمكنوا بتقاريرهم الملوثة من استصدار قرار من وزير التربية والتعليم « السيد يوسف » بنقلى الى المنيا وإبعادى عن أى نشاط له صلة بالجمهور . . . حاولت وقف هذا القرار فأرسلت المنطقة التعليمية بقرار من وكيل الوزارة الأستاذ عبد العظيم درويس الى الوزارة بتقرير يثنى على ويسيد بنشاطى وبجهدى المتميز فى خدمة التربية والتعليم ، كما أرسل الى المحافظ والى أمين الاتحاد الاشتراكى بالدقهلية بهذا المضمون ، وكتب لى وكيل الوزارة - وهو رئيسى المباشر شهادات تقدير وثناء وشكر على مجهوداتى فى هذا الخصوص لتقديمها الى من يهمة الأمر .

ذهبت الى مكتب السيد الوزير لمعرفة سبب الفرار ، فقالوا لى انهم لا شأن لهم فى ذلك وانما السبب هو الاتحاد الاشتراكى ووزارة الداخلية التى أرسلت لوزارة التربية تطلب منها نقلى من الدقهلية وإبعادى عن أى نشاط جماهيرى فاتصلت بالاتحاد الاشتراكى وبالمباحث العامة بالدقهلية فادعوا أن لا شأن لهم بذلك ، فذهبت الى الأستاذ كمال الحناوى أمين وجه بحرى بالاتحاد الاشتراكى بالقاهرة - ولم تكن لى صلة به قبل ذلك - وكان مسئولا عن شئون وجه بحرى ، وقابلت صدفه عنده الأستاذ الشاعر عبد الرحمن الخميسى فتعانقنا ، وتحدثت فى موضوعى ، فنار الأستاذ كمال الحناوى على قيادات المنصورة ، واتهمها بأنها تعمل العملة وتتنكر لها ثم تنسبها الى الغير ، وأنهم يفصلون الأعضاء

ويعتبر أن من فعلتهم ويتهمون القيادة المركزيه بذلك ، ثم طلب ملفي وأطلع عليه ثم قال لي انهم أرسلوا له خطابا يطلبون فيه نقلي من الدقهليه وإبعادى عن العمل الجماهيرى ، وأرفقوه بتقرير صادر من منظمة الشباب موقع من السيد شبيحه أمين الاتحاد الاشتراكي بدكرنس ، يذكر فيه أنني قلت فى جلسة فى قرينى ان منظمة الشباب نسبته الحرس الأحمر الصينى ، وأن الاتحاد الاشتراكي بالدقهلية مشرف على تغييرات فى قياداته وأن الذى بلغه بذلك هو أمين الاتحاد الاشتراكي بميت الحلوح حمدى عبد الفتاح ومعه عضوا المكتب عثمان مجاهد وأحمد السيد فهؤلاء لم يكونوا سياسيين ولم يعملو عملا سياسيا ، بل كان عملهم أقرب الى المرشدين والجواسيس .

اعتمد هذا التقرير من أمين السباب ابراهيم أمين ومن أمين الاتحاد الاشتراكي بالدقهلية ، محمد المصرى .

وذكر كمال الحناوى أنه يعجب من هذا التقرير ومن الطلب المرفق واكتفى بأن أرسله كما هو - دون تعليق - الى وزير التربية والتعليم ليتصرف كما يحلو له .

أما وزارة التربية فقد أرادت أن تتأكد من هذا الموضوع فأرسلت الى وزارة الداخلية تطلب تقريرها عنى فأسرعت هذه وانتهزت الفرصة لترد بتقرير أسوأ . . قالت ان المذكور من الأزهريين القلائل الذين خرجوا عن دينهم - (وهكذا سبقت الداخلية الى اتهام الشرفاء بالكفر فسبقت بذلك جماعات التكفير وأعطت لنفسها الحق فى منع وحجب صكوك الغفران عن المصريين ويبدو أن الاتهام بالتكفير نعمة سريعا ما تعود على أصحابها ، فها هي جماعات التكفير تتهم المجتمع ورجال وزارة الداخلية بالذات

بالكفر) - واعتنقوا الشيوعية ، وهو يهاجم الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب ويتهمها بالفاشية وبأنها تشبه الجستابو الألماني ، وان الموافقة على إعادة تعيينه كانت مشروطة بإبعاده عن التدريس وعن الاتصال بالجمهور .

إزاء هذا قرر وزير التربية والتعليم نقل من الدقهلية الى مديرية التربية والتعليم بالمنيا واستدعى مديرها الأستاذ عثمان فيظ الله ، وذكر له انه نقل اليه موظفا مشاغبا وثوريا وانه أرسل الى محافظ المنيا ب خطاب بخصوص هذا الموظف ليساعده في متابعته وترويضه بواسطة أجهزة الأمن عنده (هذا ما ذكره لي الأستاذ عثمان فيظ الله بعد أن توطدت علاقتي به بعد ذلك وتعاطف مع قضيتي) .

كانت تأشيرة الوزير بالنقل قد صدرت في نوفمبر ١٩٦٦ وكنت وقتها في معسكر تدريب لقادة الرحلات بمدرسة الزراعة بالمنصورة وكنت مديرا لهذا المعسكر ، ولم يكن قرار النقل قد وصل بشكل رسمي ، ولكني علمت به من الأستاذ عبد التواب يوسف رئيس قسم الصحافة بالعلاقات العامة بالوزارة وكان قد حضر الى المنصورة لاجراء مسابقة أوائل الطلبة بمدرسة المنصورة الثانوية للبنات . . وقد علم بهذا القرار في الوزارة وكان مستغربا من صدوره ، واستفسر مني عن سببه ، ولم أكن أعرف عنه شيئا .

نصحتني الأستاذ عبد الرحيم رشوان وكيل المديرية في ذلك الوقت بالاسراع بالانقطاع عن العمل والتبليغ عن طلب أجازة مرضية حتى لا يفاجئني القرار وأنا في العمل فأضطر الى تنفيذه واتصل يومها الأستاذ عبد العظيم درويش بالاتحاد الاشتراكي للشكوى اليه والثناء على ، والاستفسار عن سبب النقل ، لأنني استنتجت

أن يكون الاتحاد الاشتراكي وراء هذا القرار ، فادعى الأستاذ محمد
المصرى أمين الاتحاد الاشتراكي عدم العلم به بل أثنى على .

انقطعت عن العمل وحصلت على إجازات مرضية مدفوعة
الأجر تواصلت حتى عدوان يونيه ١٩٦٧ ، كنت أثناءها نائب
الحركة والسفر إلى القاهرة والجرى بين وزارة التربية ووزارة
الداخلية والاتحاد الاشتراكي بالقاهرة والمنصورة والمباحث العامة
بالدقهلية .

عرفت من الاتصالات خلفيات هذا القرار كما شرحت سابقاً ،
وتقدمت باستقالة مسببة ورفضت .

ومن المفارقات أنني بعد خروجي من مقابلة الأستاذ كمال
الحناوى - وقد عرفت منه أن سبب المشكلة نابع من الاتحاد
الاشتراكي بالمنصورة - قابلت عند الأسانسير الأستاذ محمد المصرى
أمين عام الاتحاد الاشتراكي بالمنصورة - وكان وقتها فى حالة
انكسار واذلال لعزله من هذا المنصب هو واللواء عبد الفتاح فؤاد
محافظ الدقهلية بسبب قسوة الصراع بينهما .

ذكرت له انه هو السبب فيما حدث لى ولكنه - كما تعود على
الكلب والمكر - أنكر ذلك ومن المعروف أن محمد المصرى كان يعمل
قبل ذلك ضابطاً بالأمن برئاسة الجمهورية ، وحين جاء الى الدقهلية
- وهى موطنه الأصلى - حاول بنعومة ودعاء أن يقرب اليه النخبة
الثقفة فى الدقهلية ، ولكنه عمل على اشتعال الصراع وخلق
التناقضات وضرب الأجهزة ببعضها ، حتى عم الاضطراب وفقدان
الثقة بين الناس ، وهو الذى اخترع مع منظمة الشباب اشاعة
تسرب امتحانات الإعدادية العامة بالدقهلية عام ١٩٦٦ .

لقد نسي المسئولون واجبهـم نجاه الشعب والتفتوا الى صراع المصالح والمفائـم فكان هذا المناخ المهيـء للهزيمة .

حين وقع عدوان اسرائيل في ٥ يونيه ١٩٦٧ أحسست أن واجبي أن أكون في موقعي ، وعلى أن ألمم جراحى وأتحمل ما نزل بى من ظلم وأقطع إجازتى المرضية ، وأذهب لاستلام العمل وتنفيذ قرار النقل ، وفعلـا ذهبت فوراً يوم ٥ يونيه الى منطقة المنصورة التعليمية واستلمت العمل بها وأخليت طرفى منها على أن أستلم عملى فى المنيا يوم ٧ يونيه ١٩٦٧ وسافرت الى المنيا وقابلت المدير العام الأستاذ عثمان فيظ الله وكان رجلاً قصير القامة وفيه ذكاء ولماحية وطيبة . . طلب لى شايـا ، وكان منشغلا فى توقيع أوراق أمامه ، وحوله بعض الموظفين . . جاء الشاى فأخرجت عليه السجائر وعزمت عليه فامتنع ، فقلت له : لن أشرب الشاى إلا اذا أخذت السجارة ، فتناولها وأسعلتها له ، فبادرنى بقوله : « انت حتنام فين » فقلت له حجزت فى لوكاندة بميدان المحطة ، فقال سأحجز لك مكانا فى نادى المعلمين فهو أحسن وأرخص والنادى يقدم وجبات غذاء رخيصة ، وكان النادى مكانا لمبيت المفتشين وكبار الموظفين الزائرين للمديرية . . ويبدو أن من أسباب حجزه مكانا لى بالنادى هو سهولة متابعتى ومراقبتى . .

تابع المدير حديثه : نحن فى انتظارك منذ زمن طويل وقد حجزنا مرتبكك حتى تستلم ، وسنأمر بضرف مستحقـاتك الآن بعد استلامك العمل . . ثم قال مبتسما : احنا حنلبسك ميري فقلت له أن نأ دفعنى الى الاستلام هو دافع وطنى ، وقد تقدمت باستقالتى ورفضت ، وأنا هنا لن أقوم بأى عمل ، لأننى نفيت ظلما ، ولذا أطلب من سيادتـك تزكية طلبى بالفـاء قرار النقل واعادتى الى موطنى البقهيـة حيث لا مصلحة لى ولا أهل فى المنيا ، ولن يكون عندى أى دافع للعمل مع شعورى بالظلم . .

انسحب الجيش المصرى من سيناء واجنلها الاسرائيليون ،
ووجدت لافتات وشعارات المقاومة المرفوعة فى الشوارع وعلى
واجهات المحلات والمنازل وعلى نادى المعلمين - تنزع ، وأحسست
بانقباضة فى القلب . هل من المعقول بهذه السرعة والسهولة أن
تستسلم البلد ، وأن تخفت شعارات المقاومة ، سمعنا أن جمال
عبد الناصر قد تنحى عن السلطة ، وأن الجماهير انطلقت فى
القاهرة وفى كل مكان كالموج الزاحف تصر على بقاء عبد الناصر
فى مكانه من السلطة ليرد الهزيمة ، ويقود الشعب الى معركة الثار
والكرامة .

ودارت حول حركة الجماهير هذه أقوال : هل كانت هدية
أم تلقائية عفوية ، مع أن التدبير لم يكن باستطاعته أن يصنع
مثل هذه الأمواج المتلاطمة من البشر !

أسرعت الى مكتب التلغراف لأرسل الى عبد الناصر برقية
بالتمسك به قائدا ، ورفض التنحى والعمل على تحقيق الثار
والنصر .

وأرسل مجلس الشعب وفدا اليه يجدد الثقة به ويرفض
طلب التنحى ، ويقرر الاستمرار فى الانعقاد حتى يسحب
عبد الناصر قرار تنحيه ، ويقبل الاستمرار فى مكان القيادة .

عاد عبد الناصر الى مكانه ليعد العدة لاصلاح الأوضاع
الفاسدة ويخطط لمعركة الشرف والثار .

لم أمكث أسبوعا فى المنيا ، أحسست بالاختناق ، ورسلت
للمنيا أطلب تحويلي للقومسيون الطبى بالمنصورة .

حين عدت من الاجازة المرضية وجدت بالمنطقة التعليمية ضجة وتحقيرا حول توقيعى بالانصراف الساعة الثانية ظهرا مع اننى سافرت بالأتوبيس فى الساعة الواحدة حسب متابعات المباحث الصامة .

أخذت خلال عام ١٩٦٧ والنصف الاول من عام ٦٨ اجازات متقطعة بعضها اعتيادى وبعضها استقطع من مرتبى ، وبعضها مرضى من القومسيون الطبي بالمنصورة وبالقاهرة بعد أن طلبت الوزارة أن يتم عرضى على القومسيون الطبي العام ، كانت هناك ثغرات ، دفعنى العناد واليفين بأننى مظلوم الى الاستفادة منها .

فى احدى الاجازات جاءنى خطاب من المديرية تذكر فيه أن المحافظ يترنى لى الشفاء وهو فى انتظار مقابلتى بعد شفائى وعودتى للعمل ، وحينما انتهت الاجازة وعدت للمديرية صحبني مديرها العام الى المحافظة ، وقابلنا المحافظ فرحب بى وعرض على أى منصب اختاره بالمديرية أو أنتدب الى المحافظة كمدير للعلاقات العامة بها ، فأخبرته اننى فى المنيا منفى ظلما ومادام هذا شعورى فلن أجيد أى عمل ، ولهذا فانا مضرب عن العمل ، وسأنتهز كل فرصة للحصول على اجازات حتى أنقل الى بلدى ، فتفهم المحافظ موقفى وأحسست بتعاطفه مئى ووعدنى بأنه سيعمل على الاستجابة لطلب عودتى الى بلدى فى خلال ثلاثة أشهر .

لم أعتد على هذا الوعد كثيرا لأنه فى خلال هذه الفترة قد ينقل المحافظ أو يعزل ، فلا أمان لمثل هذه المناصب فى الاستمرار، وقد حدث ما توقعته .

اتصلت بالدكتور عبد العظيم أنيس - وكان وقتها رئيسا لمجلس ادارة هيئة الكتاب - فاتصل بالدكتور حلمى مراد وزير

التربية والتعليم وقبلها للاستماع الى قضيتي وأخذت منه موعدا وذهبت لتقابلته وشرحت له موضوعي فنعاطف معي ووعدني بالاستجابة لطلبي بعد الاتصال بالاتحاد الاشتراكي ووزارة الداخلية ، وكنت قد قيمت بالاتصالات اللازمة مع الاتحاد الاشتراكي وأخذت وعدا بالموافقة على طلبي بالعودة الى الدقهلية .

ولما ذهبت الى الداخلية وقابلت العميد محمود يونس بالمباحث العامة وافق على النقل لكن لا الى الدقهلية لأنني معروف بها ووضعني فيها حسياس.. وأى موقف مني حتى ولو كان تأييدا للحكومة سيفهم على وجه آخر ، ومن الأفضل أن أختار محافظة أخرى ، فاخترت القاهرة ، وجاءت ردود الاتحاد الاشتراكي ووزارة الداخلية في هذا الاتجاه .

النقل للقاهرة :

صدر قرار الوزارة بنقلي الى القاهرة في يوليو ١٩٦٨ ، وكنت في هذه الاتصالات أنسق مع الأستاذ منصور حسين وكان في ذلك الوقت المدير الفني لوزير التربية والتعليم ثم أصبح وكيلا للوزارة ثم نائبا للوزير ثم وزيرا .

أخليت طرفي من المنيا واستلمت في القاهرة ، وفي تنسيق مديرية التربية والتعليم وزعت على مصر الجديدة - التي كنت قد أجرت بها سكنا لأتزوج فيه - وذهبت الى الدكتور عبد الفتاح شلبي وكان موجهها أول للغة العربية وطلبت منه توزيعي كمدرس ثانوي على مدرسة ثانوية فوزعني على مدرسة مصر الجديدة الثانوية للبنين - ولم يكن أحد يعرف أنني ممنوع من التدريس حسب أوامر المباحث العامة .

لم أمارس التدريس قبل ذلك منذ كنت أدرس حصص التربية العملية وأنا بالكلية ، ولكنني كنت أمارس لقاء المحاضرات سواء في العمل السياسي أو الوظيفي ، ومع ذلك كان التدريس يحتاج الى جهد لفهم المادة وطريقة توصيلها الى الطلبة ، وقد قمت بذلك حتى أكون مدرسا على مستوى طيب وحتى أتمكن من أن أعطي حصصا اضافية للمجموعات الدراسية والانداب.لحصص بالمدارس الخاصة والدروس الخصوصية .. فقد كانت حالتني المالية تدفعني الى ذلك لسداد الأقساط الشهرية من ثمن أناث وعفش الزواج خاصة وأنني أثناء فترة نقلي الى المنيا قد اشتريكت في مشروع خاسر هو اقامة مصنع للملابس الجاهزة في ظروف الهزيمة والجمود الاقتصادي فخسرت فيه وخسر من اشترك معي .

أضف الى هذا المجهود أنني كنت ملتحقا بمعهد الدراسات الاسلامية منذ عام ١٩٦٧ ونجحت في السنة الأولى ثم دخلت امتحان السنة الثانية ونجحت بتقدير جيد جدا عام ١٩٦٨ .

قلت ان اعادة تعييني تمت بمرتب أول مربوط الدرجة التي يعين عليها خريج الجامعة الجديد ولم يعر القرار اهتماما بمدة خدمتي السابقة ولا مساواتي بزملائي في التخرج ، فبقى البون .. شاسعا بيني وبينهم في الدرجة والمرتب .

كان هذا الفارق الظالم مقصودا لشغل الناس وامتصاص طاقاتهم وأوقاتهم في الجري وراء مساواتهم بزملائهم .. لم يكن الأمر متعلقا بي فقط بل يشمل عددا كبيرا ممن سبق اعتقالهم .. وقد استغرق هذا سنوات عدة ، واحتاج الأمر الى استصدار قرارات جمهورية متعددة ومتدرجة لاصلاح هذا الخلل .

كان البون شاسعا بينى وبين زملائي المخرجين معى فى الكلية سواء فى الدرجة أو المرتب أو الاستقرار المعيشى وامتلاك مقر السكن وأثاثه وحياسة الآلات المنزلية الحديثة .

كانت حالتى أكثر تعقيدا . . كنت قد سبقتهم فى التعيين فى نوفمبر ١٩٥١ بمؤهل الصيارف بسنوات عديدة مع الاستمرار فى دراستى . . كان دخلى من الوظيفة يؤهلنى للزواج ، ولحياة الاستقرار ، ولكن السياسة شدتنى إليها ، ثم جاء الفصل السياسى أثناء الاعتقال ، بقرار من مجلس قيادة الثورة فى أول مايو ١٩٥٦ وتصديق مجلس الوزراء فى اليوم التالى ٢ مايو ١٩٥٦ ليلقى بى فى الشارع بلا دخل مادى . . . واصلت الدراسة بمساعدة الأسرة التى كانت متعشرة فى ذلك الوقت .

كان المفروض أن أخرج من كلية دار العلوم عام ١٩٥٦ ولكنهم حرمونى - كما حرموا غيرى من المعتقلين السياسيين - من الامتحان سنتين فتخرجت عام ١٩٥٨ ، ولم ألحق فى التعيين بدفعة ١٩٥٦ التى سبقتنى ، ولا بدفعة ١٩٥٨ المتخرجة معى ، حيث سبق فصلى سياسيا .

كان يشترط فى تعيين أى موظف موافقة المباحث العامة ، وكانت هذه تتحكم فى التعيينات وترفض تعيين أمثالى خاصة من سبق فصلهم سياسيا . . ثم جاءت إعادة التعيين أخيرا فى ١٠/٧/١٩٦٤ بأول مربوط الدرجة ، ولم تتم تسوية حالتى للمساواة بزملائى الا فى عام ١٩٦٩ .

الاعارة لليبيا :

من هنا تخلفت عن زملائى لا فى المرتب والدرجة فحسب بل فى فرص الاعارة الى الخارج أيضا ، وكانت هذه أمل كل مدرس وموظف فى مصر لتحسين حالته المادية .

أتاحت لزملائي الاعارة الى الخارج مرة أو مرتين . . بينما على أن أعيش في حدود مرتبي المتواضع أنا وزوجتي وأولادي ، وإن أردت تحسينا فعلي أن ألهم ليل نهار في أعمال اضافية حتى أسدد أقساط أثاث شقة الزوجية التي كانت كلها بالتقسيط ، هذا علاوة على أن كثرة الاعتقالات وطولها فرض على التأخير في الزواج .

كانت حياتي الوظيفية تجسد مفارقة غريبة ، فزملائي سبقوني ماديا بينما أتاحت لي امكانياتي في الفترة الأولى من الوظيفة مناصب وترقيات أعلى مما أتيح لهؤلاء الزملاء لكن ليس بالمنصب وحده يعيش الانسان ، فالحياة ومتطلباتها والخلقية التي جفت مواردها تحتاج الى مزيد من الدخل المادي ، ولا حل لمشاكل هذه المشاكل الا الاعارة الى الخارج . ولكن دون هذه الاعارة حواجز وعقبات ، حيث قبضة المباحث العامة والمخابرات تحيط بكل شيء ، ولا عمل في الخارج أو سفر الا بموافقتها ، ورغم ذلك فعلي أن أنتظر عدة سنوات من اعادة التعيين ، وأن أحصل على تقدير امتياز عدة سنوات حتى أدرج في كشف الاعارات .

بعد أن تحققت هذه الشروط صدر قرار وزارة التربية والتعليم عام ١٩٧٢ باعارتي الى ليبيا - وكانت ليبيا في ذلك العام هي الأولى في المعاملة المالية . . وأدخلت نفسي عضوا في لجنة توزيع المعارين على محافظات ليبيا ، بالوزارة ، وتقدمت بأوراقى الى وزارة الداخلية للحصول منها على تصريح عمل ، ولكن بعد مراوغة فوجئت برفض المباحث العامة اعارتي الى ليبيا. وادعت أن مكتب أشرف مروان التابع لرئاسة الجمهورية هو الذي رفض، والمكتب بدوره يتهم الداخلية بالرفض ، فبذلت جهدا شاقا للحصول على وثيقة رسمية من الداخلية بهذا الرفض لأقدمه

لوزارة التربية والتعليم لتحويل الاعارة الى بلد آخر ، اذ كان الاعتراض - كما يقولون - قاصرا على الاعارة الى ليبيا فقط .

حتى الحصول على ورقة برفض التصريح لي بالعمل بليبيا كان في حاجة الى واسطة فتحرك معي للحصول على هذه الوثيقة الأستاذ أحمد مجاهد عضو مجلس الشعب فقابلنا اللواء النبوي اسماعيل وكان وقتها مديرا لمكتب وزير الداخلية وحصلنا على الوثيقة بعد فترة ولكنها لم تفدني في شيء لأن قرارات الاعارات لكل البلاد قد صدرت .

ولكن الأمور في هذا البلد كثيرا ما تسير بشكل غير طبيعي لا يخضع لقواعد معينة ، وأحيانا تحسم العلاقة الشخصية كثيرا من المشكلات .

تعاطف مع حالتى حين علم بها زميل قديم هو الأستاذ حلمي رمضان كان يعمل مدرسا بمدرسة اليسيه بمصر الجديدة ويدرس لابنة أحد الموظفين الكبار في مكتب الأستاذ أشرف مروان كليمه في الموضوع محتجا بأنهم يقطعون أرزاق الناس بلا مبرر ، فطلب منه أتقدم له بمذكرة لاعادة النظر في التصريح لي بالاعارة .

كان جهدى قد نفذ ، ولم تعد عندي قدرة على مواصلة السعى في هذا النيه الظالم فشرحت له يأسى من اعادة المحاولة ، فطلب منه أن أتقدم له بمذكرة لاعادة النظر في التصريح لي بالاعارة .

كان جهدى قد نفذ ، ولم تعد عندي قدرة على مواصلة السعى في هذا النيه الظالم ، فشرحت له يأسى من اعادة المحاولة فطلب منى كتابة هذه المذكرة وسيقوم هو بتقديمها وفعلا أعيد النظر وسحبوا منى وثيقة الرفض وسلموني تصريحاً بالموافقة على اعارتي الى ليبيا .

كانت الموافقة متأخرة فقد سافرت كل الدفعات منذ فترة ، ونصحنى البعض بالسفر منفردا وتقديم نقسى لوزارة التعليم

بليبيا ، ولكنني رفضت هذه المغامرة ، فلم تعد عندي طاقة تسمح بالمجازفة ، والسؤال عن سبب التأخير ، وقد تكون ليبيا قد اكتفت ولم تعد بحاجة الى مدرسين ، فلا داعي للتعرض للإحراج والعودة بخفي حنين .

في العام التالي ١٩٧٣ أصبح لي الحق في الاعارة بحكم القرار السابق ، وتأخيري كان لعذر خارج عن إرادتي فصدر قرار الوزارة بإعارتي ، ولاحساس مكتب أشرف مروان بمسئوليته عن عدم سفرى في العام الماضى ضم اسمى الى كشف الاعارة المسماة الصادرة من مكتبه . . وكان بالاسم خطأ اضطررنا لتصحيحه ، وأصبح هناك قراران بإعارتي الى ليبيا عام ١٩٧٣ .

في هذا العام صدر قرار بإعارة زوجتى الى « أبو ظبى » فحاولنا لجمع الأسرة تحويل إعارتها الى ليبيا فرفض الطلب لأن ليبيا أفضل في المعاملة المالية فطلبت تحويل إعارتي الى « أبو ظبى » فرفض لأن إعارتي مسماة فقلت اننى أعرت أيضا في كشف الاعارة العادية الصادرة من الوزارة ولكنهم استكثروا الإعارتين علينا فتنازلت زوجتى عن الاعارة وسافرت معى الى ليبيا كمرافقة فى اجازة بدون مرتب .

فى طرابلس بليبيا مكثت أربع سنوات لم أزر مصر فيها حتى فى الاجازات الصيفية الا بعد مرور ثلاث سنوات لأننى لم أكن مطمئنا الى سهولة الحصول على تجديد التصريح لى بالعمل من وزارة الداخلية بعد التجربة المريعة السابقة .

مقالات بصحف ليبيا :

فى العام الأول من الاعارة ترددت على مكتبة طرابلس واستخرجت كارنيه اعارة منها ، وفى الاجازة الصيفية للعام الأول كتبت عشرين مقالة نشرت فى الجرائد الليبية اليومية والأسبوعية :

منها دراسة استغرقت ٩ مقالات عن « ابن خلدون ونشاطه السياسي في المغرب وريادته لعلم الاجتماع » ، ودراسة أخرى استغرقت سبع مقالات عن « ابن رشد » ونشر ذلك بجريدة « الجهاد » اليومية . ومقالات عن « سياسة المال عند عمر ابن الخطاب » ومقال عن « أبي ذر الغفاري أول ثائر في الاسلام » ومقال عن « التراث واستنهاض الأمة » ونشر ذلك في مجلة « الأسبوع الثقافي » .

كانت السنة الأولى واجازتها الصيفية فترة خصبة من النشاط الثقافي والفكري ولكنني انشغلت في الفترة الباقية في أمور عائلية عاقتني عن مواصلة هذا النشاط .

في مفترق الطرق :

بعد حل الحزب وانضمامنا الى لجنة الدعوة والفكر ، وما واجهناه أثناءها من عيب وخداع ثم النقل للمنيا ثم القاهرة ، ثم الاعارة ومصاعب التصريح بها والمراوحة بين الرفض والموافقة ، وجدت نفسي في مفترق طرق ، هل أواصل نشاطا سياسيا تنظيميا ، أم عملا ثقافيا فكريا ؟

الأول مارسته لفترة في المنصورة ، حتى من خلال المنابر الرسمية والعلنية ، فكانت العواصف والزواجع والنفي الى المنيا ، وفي ظلال التفكك والهزيمة وتهرب البعض من الزملاء ممن وضعوا في مناصب مرموقة ، واجهت المحنة وحدي حتى زالت بعد أن أجهلت أعصابي ، ملت الى الطريق الثاني لعل بهذا أعمل عملا وأؤدي واجبا هو في النهاية في خدمة الحقيقة وكشف الأوهام والزيف والخداع من وراء اللافتات البراقة ، والشعارات

التي تلبس مسوح القداسة ، حتى أساهم في أن يتلمس الشعب طريقه الذي به يستطيع أن يرتفع بمستواه المادي والثقافي ، بعيدا عن الوعي الزائف والمغلوط الذي يضع العقبات والمعوقات في طريق نهوضه وتقدمه .

دراسات عن الحركة الإسلامية :

لقد قمت بدراسة ظاهرة الاسلام السياسي في العصر الحديث وتبعت مراحلها المختلفة وأعلامها لما لهذه الظاهرة من تأثير متنام في حياة الشعوب العربية والإسلامية لإبراز الجوانب الايجابية فيما يحتويه الاسلام من مبادئ تعلى من قدر الانسان ، وتنحاز الى الحرية والعدالة والشورى وترفع من قيمة العقل والعلم ، وتحث على الاجتهاد ومراعاة المصلحة ودور المفسدة ، ومراعاة تجديد الأحكام مع تجديد الأزمان حتى لا يتحجر الدين ويصبح قيذا على تطور الحياة وسعادة الانسان .

بينت أن هناك فارقا بين هذه القيم ، وبين من يحاول استخدام الدين واستغلاله كستار يخفي طمع الطامعين وشهوات الطغاة الظالمين ، يحتكرون الدين لحسابهم ، ويعتبرونه حائوتا خاصا بهم يبيعون فيه صكوك الغفران ، ويصدرون منه أحكام التكفير والردة على الناس .

الاسلام أكبر من هذه الأوهام وأرحب صدرا من هذه القلوب الغليظة القاسية ، وأرحم من الجفاة الأدعياء المنحرفين .

كانت الدراسة في البداية مشروع رسالة ماجستير بعنوان « موقع الشيخ حسن البنا من حركة التجديد الاسلامي في العصر الحديث » مقسمة الى معهد الدراسات الاسلامية ، واتفقت مع

الدكتور عبد العظيم رمضان ليكون مشرفا على هذه الرسالة ، ولكن لجنة الأبحاث بالمعهد - كما قالوا لي - لم توافق على البحث بهذا الإشراف ، وكان على أن أختار مشرفا آخر ، وأخذت موافقة الدكتور إبراهيم أبو الخشب ، وكان يدرس بالمعهد عن التجديد في الاسلام ، فوافقت اللجنة عليه .

لكن البحث تشعب عندي الى آفاق أوسع ، وأدركت بعد مناقشات أولية مع المشرف أننا لن نتفق حول كثير من القضايا ، وأن الأفضل أن أسير في الدراسة حزا في اجتهادي بدلا من معوقات الاشراف ، على أن أكتفي بنشرها في أطاؤها الذي يرتضيه اجتهادي ، واستبعدت مسألة الماجستير أو الدكتوراه .

كانت نتيجة هذه الدراسة الموسوعية والأكاديمية الموثقة هذه الكتب التي طبع بعضها ولا زال بعضها الآخر تحت الطبع :

أما ما طبع منها فهو :

الإخوان المسلمون هل هي صخرة إسلامية . ١٩

الجزء الأول : حسن البناء وبناء التنظيم وبه ملحق أحضائي عن كل ما كتبه حسن البناء .

الجزء الثاني : حسن البناء والبناء الفكري .

الجزء الثالث : الجماعة والعنف .

الجزء الرابع : الجماعة وحركة التحرر الوطني .

الجزء الخامس : الجماعة والأحزاب .

الجزء السادس : الجماعة والبراري والجيش والوحدة الوطنية .

- الاخوان المسلمون والدولة الاسلامية •
- المرأة وحقوقها في منظور الاخوان المسلمين •
- الشيخ محمد عبده رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث •
- جمال الدين الأفغاني الثائر والمجدد •
- أما ما هو تحت الطبع فهو :
- فجر الحركة الاسلامية الحديثة •
- عبد الرحمن الكواكبي رائد القومية العربية •
- محمد رشيد رضا والعودة الى منهج السلف •
- التراث واستنهاض الأمة •

حصاد السنين :

بعد هذا العرض لبعض متشاهد السيرة الذاتية أرى لزاما على أن أختتمها باستخلاص بعض الدلالات من هذه المشاهد :

اولا :

حين تعرضت الى حياتي في القرية لم يكن هدفي سرد ملامح حياة شخصية ، بل بغرض عرض صورة للحياة في الريف المصرى - وقريتنا نموذج فقط ، بل ونموذج متقدم - منذ أكثر من خمسين عاما لادراك حجم التطور السريع وللمقارنة بين حياة الأمس وحياة اليوم في القرية المصرية .

كانت أدوات القرية التكنولوجية : في الزراعة المحراث والساقية والشادوف والفاس والمنجل والنورج ، فأصبح الآن آلات الرى الميكانيكية الحديثة وآلات الحرث والبذر والحصد والتعريه . . . كانت الملكيات القزمية تتجاوز في زراعات مختلفة يضر بعضها بعضا ، فأصبحت الآن جزءا من تجميع زراعى يشمل مساحات واسعة تخضع للتورات زراعية على أسس علمية .

كانت هناك الاقطاعيات الكبيرة التى يمتلكها كبار الاقطاعيين ، والفلاحون يعملون بها كأجراء من العبيد ، يعيشون في أحط حالة من الفقر والجهل والمرض ، فتناول الاصلاح الزراعى

هذه الاقطاعات ووزعها على صغار الفلاحين ليحررهم من عبودية الاقطاعي ويرفع قامنهم الى أحباها الفهر والاسفلال يعيسوا أحرارا أعزاء ، يتنفسون روح الاسفلال وسجدد طموحاتهم الى حياة أفضل .

كانت أدوات الفلاح في اسرل هي « الكابون » اظهى أطعام، وفي احسن الاحوال وابور الغاز وكانت وسيلة الابارد هي النلمبه أم شعلة التي يتصاعد دخانها فيلوث جو المنزل ويطللى جدرانها وأسففه بالسواد وفي أحسن الأحوال لمبة الغاز ذات الزجاج رفم ٥ أو ١٠ وفي البيوت المتيسرة رقم ١٥ وفي المناسبات الكلوب ذو الرتينسة والذي يجمع حوله كل ناموس القرية أو ما يسمى بالهاموش .

كانت وسيلة السرب هي القلة والبلاص والزيز الذي يجلب مياهه من البحر أو الترغ مباشرة وتستخدم نواف المسمس أو الشبة في تنقيته من الرمال والأتربة فقط لا من الجرايم والطفليات وكثيرا ما كان البحر أو الترعة أو المسجد مكانا يلجأ اليه الفلاح وأبناؤه للاستحمام ، ففي بعض المساجد كانت المياه نرفع من الآبار بآلات رفع يدوية بدائية .

كانت الأسرة الريفية بعضى حاجتها في الخلاء وفي أحسن الأحوال في كنيف بدائي يصرف في حفرة داخل المنزل أو في الشارع وتنزح بعد أن تمتلىء لتلقى على « الكيمان » في أنحاء القرية ليتجمع عليها الذباب والناموس وكل الحشرات الضارة .

كانت القرية محرومة من المياه النقية والكهرباء والمجارى ، أما التليفونات فلم تكن توجد إلا في مركز البوليس وأحيانا يوجد فرع في بعض القرى عند العمدة يتصل فقط بمركز الشرطة .

أما المذيع فقد عاشت أغلبية القرى دون أن تعرفه إلا بعد سنوات طويلة من انشاء الاذاعة المصرية .

أما عن التعليم فلم يكن ميسرا للطبقات الفقيرة وحتى المتوسطة لقلة المدارس وبعدها ، وارتفاع مصروفاتها . . كان الطفل يمكث سنوات محدودة في التعليم الإلزامي - ان لم يتسرب منه - ثم يعود الى الأمية وكأنه لم يدخل مدرسة .

أين هذا التخلف والحياة البدائية مما يعيشه المصري الآن خاصة بعد عمل الكثيرين من أبناء القرية في الدول البترولية ، فأغلب المنازل يبنى بالمسح ونؤسس بكل الأجهزة الحديثة من راديوهات وتليفزيونات وفيديو ومراوح وأجهزة تكييف وثلاجات وغسالات ومكانس كهربائية وتليفونات .

دخلت المياه النقية والكهرباء والمجارى الريف وبدأ رصف بعض الطرق وأنشئت المدارس في كل القرى والمراكز وتوزعت الجامعات في عواصم الأقاليم بل وجدت مزوع لها في بعض المراكز واحتشدت القرية بالمئات من خريجي الجامعات واعتلى أبناؤها الكثير من المناصب في الدولة وفي مؤسسات القطاع العام والخاص .

ان الفضل الأول في هذا يعود للتفهم العلمي وثورة الاتصالات التي حدثت في العالم خصوصا في النصف الثاني من القرن العشرين ، ولا ننسى دور الثورة في نشر التعليم وتيسيره على أبناء الفقراء بمجانيته وفتح المدارس الجديدة ، كما لا ننسى دور الثورة في التصنيع وبناء السد العالي ومحاولة اللحاق بركب التقدم العالمي .

ثانيا :

إذا كانت الثورة قد حفرت في مجرى تطور المجتمع المصرى آثارا اجتماعية واقتصادية عميقة ، فقد كانت لها سلبياتها فى المجال السياسى ، فرغم أن القائمين بها كانوا يعبرون عن جبهة عريضة ومدارس فكرية مختلفة ، ورغم أنها قامت فى مناخ سياسى موات صنعتة وشكلته القوى السياسية الديمقراطية والتقسيمية والاشتراكية والشيوعية التى كانت موجودة فى الساحة قبل قيام الثورة ، غير أن عناصر من داخل قيادة الثورة قد قامت بتصفية الأجنحة الأخرى حتى تنفرد بالقيادة ، ثم قامت بتصفية كل القوى السياسية فى المجتمع من أحزاب وتنظيمات وجمعيات حتى لا يكون هناك منافس لها ، وبذلك ضربت الديمقراطية ورفضت حتى الاستماع لرأى آخر ، حتى لو كان هذا الرأى مؤيدا لها ومدعما لتوجهاتها ، مادام هذا الرأى صادرا من تنظيم آخر ، وفرضت بذلك حكما شموليا فتح الباب واسعا لكل المداحين والدجالين والانتهازيين والوصوليين أصحاب المصلحة الخاصة الذين انضموا الى الزفة ليحققوا مآربهم على حساب الشعب ، فاتسع الفساد فى الأرض وخلق مناخا ملائما لولادة التطرف والارهاب .

لقد كانت هذه سياسة خرقاء - أتاح لها بعض الانتصارات فى البداية أن توطد أركانها ، كما أكدتها نشوة السلطة والأنانية فى الاستئثار بها .

تصورت قيادة الثورة أنها يمكن أن تعبر بمفردها عن ضمير الشعب وطموحاته ، وأن تكون بديلا للشعب وتنظيماته السياسية والنقابية ، وأن تختزل الصراع الطبقي فى شخص جمال

عبد الناصر فهو الذى يعالج هذا الصراع ويعيد اليه التوازن فى
غيبة عن حركة هذه الطبقات .

من هنا وضعت الثورة فى قيادة النقابات والجمعيات
واتحادات الطلبة وجميع التنظيمات المختلفة العناصر التى أعدتها
أجهزة المباحث العامة والمخابرات وتصورتها عناصر مطيعة لها ،
فتحولت هذه التشكيلات الى هياكل هشة لا عقيدة لها ولا ايمان ،
منفصلة عن جماهيرها ، لا تستطيع تحريكها واثارة فاعليتها ان
دعا داعى الجسد ، وكل مهمة هذه الهياكل أن تستأجر بعض
التابعين لها - مقابل بعض المميزات المادية التى تقدمها الدولة -
لاستقبال زائر أو توديعه أو حضور احتفالات وترديد شعارات
تملى عليهم لا يؤمنون بها ، ولا يفهمون لها معنى .

وبهذا أصبحت ايجابيات الثورة فى مهب الريح . . . هزتها
هزة عنيفة هزيمة ١٩٦٧ ثم جاء السادات ليوارىها التراب ، دون
أن يجد مقاومة من أصحاب المصلحة الحقيقية فى هذه الايجابيات ،
لأنهم لم يشاركون فى بنائها ولم يدربوا على حمايتها ، وفرض
عليهم طاعة أوامر الحكومة والصمت ، وحتى لو فرض وكانت
لديهم النية فى حمايتها ، فأين الأسلحة التى يقاومون بها
الردة . . . لقد جردوا من الأشكال التنظيمية المناضلة السياسية
والنقابية والتعاونية القادرة على التصدى لحماية مكتسباتهم .

فى هذا المناخ السيء واجهت وحدى - وأنا نموذج لكثيرين
واجهوا اضطهادا مماثلا - ما عانيته من اضطهاد متنوع الأشكال
فى فترات مختلفة من حياتى . . هذا الاضطهاد كان يكمن خلفه
رفض الثورة لأى نشاط أو تجمع خارج عن تنظيمها الخاص ومظلتها
المباشرة ، لم يكن اضطهادا وتحطيما لشخصى فقط ، بل هو

اضطهاد وتحطيم لتيار سياسى يحاول أن يجتهد ويقسم رؤاه المستقلة فى خدمة الوطن والثورة نفسها .

فى هذا الاطار يمكن تفسير حرمانى أنا وكل الطلبة المعتقلين من الامتحان طوال أعوام المعتقل .

و حين فصلت - وأنا بالمعتقل - بقرار من مجلس قيادة الثورة فى أول مايو عام ١٩٥٦ وبتوقيع من جمال عبد الناصر ، وتصديق مجلس الوزراء فى اليوم التالى ٢ مايو ١٩٥٦ وبتوقيع جمال عبد الناصر أيضا ، لم أكن وحدى ، وإنما كان هناك عدد آخر من المعتقلين فصلوا من مجالات مختلفة .

حاولنا فرادى إلغاء قرار الفصل دون جدوى ، لم نستطع تكوين لجنة تتابع هذا الموضوع لأننا انشغلنا بعد الافراج مباشرة فى الدعوة لانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية فى ٢١ يونيو ١٩٥٦ وقبلها بثلاثة أيام احتفالات جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ . . . ثم معركة بناء السد العالى ورفض أمريكا والغرب والبنك الدولى تمويله بعد أن وعدوا بمساعدتنا ، ثم تأميم القناة - كرد على ذلك - فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ثم العدوان الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ومقاومته .

انشغلنا بالمعارك العامة عن المعارك الخاصة . . . وحل البعض مشاكله بالعمل فى الصحافة ، أما بالنسبة لى فقد انشغلت باستكمال دراستى بالكلية بجانب العمل السياسى .

لم تشفع لى مساهماتى فى المعارك العامة السابقة ، بل وضعوا أمامى العقبات لاستكمال دراستى بفصلى من الكلية كطالب منتظم وتربوى مما استدعى منى جهدا استغرق الفصل الدراسى

الأول من الصام الدراسي ١٩٥٧/٥٦ حتى استصدرت قرارا من مجلس الجامعة ومجلس الكلية لاعادة قيدي بالكلية كطالب نظامي تربوي .

ولكن قبل أن أفيق من هذه الضربة ، ووجهت بضربة أخرى ، وهي محاولة منعي من دخول امتحان الفصل الدراسي الأول في يناير ١٩٦٧ بحجة واهية غير قانونية - ولكن متى كان القانون في ذلك الوقت له قيمة ؟!

وبعد اعتقال ١٩٥٩ بم الافراج عما في ابريل ١٩٦٤ راوغوا في اعادتنا الى العمل ، وحين وافقوا - بعد أن أرهفونا - أعادونا بأول مربوط درجة نعين الجامعي متخلفين عن زملائنا في التخرج في المرتب والدرجة . . ولم نتحقق تسويتنا بزملائنا الا بعد أن استهلكوا طاقنا عدة سنوات ، ولم يصرفوا لنا ما نستحقه من فروق مالية .

وحتى بعد أن قمنا بحل الحزب - تمهيدا لتحقيق وعد قيادة النورة بضمنا للتنظيم الطبيعي - استمر الاضطهاد والمطاردة فصدر قرار بنفي من الدقهلية الى المنيا في أواخر عام ١٩٦٦ ورفضوا عودتي الى الدقهلية موطنى لأظل منفيا عنه خوفا من أى تأثير لى .

لم يكفوا بهذا بل وفعت المباحب العامة فى طريق اعارتى الى ليبيا عام ١٩٧٢ حين صدر قرار وزارة التربية والتعليم ، فرفضوا منحي تصريحاً للعمل بليبيا ، وبعد جهد شاق وافقوا فأعرت عام ١٩٧٣ .

وحتى لا أواجه بتعقيدات جديدة ومنسأغبات فى تجديد التصريح اضطررت لعدم العودة الى مصر لرؤنة أهلى لمة ثلاث سنوات من الاعارة .

هذا الاضطهاد والمطاردة المستمرة طوال أكثر من عشرين عاما - مرت بها الثورة في ظروف مختلفة - لا يدل الا على الرفض والكرامية الدفينة لدى قادة الثورة وأجهزة الأمن بها لاي رأى مستقل حتى ولو كان مؤيدا للثورة .

وهذا يؤكد أن الأجهزة الرجعية التي كانت تنفذ سياسة القصر والاقطاع والاستعمار لا يمكن أن يعهد اليها بتنفيذ سياسة وطنية متحررة واجتماعية متقدمة ، لأنها لا تتعاطف مع الشعب وطموحاته ، وولاؤها لقوى التخلف والرجعية .

ان السياسة الجديدة لا بد لها من أجهزة جديدة ورجال جدد يؤمنون بها ويعملون على انجاحها .

ثالثا :

شاركنا باخلاص في تأييد انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية في يونيو ١٩٥٦ وفي مقاومة العدوان الثلاثي في بور سعيد ثم فضح ومقاومة مشروع ايزنهاور ، ورغم ذلك تأمرت الحكومة لسحب زملائنا من بور سعيد بعد أن تقرر سحب قوات الغزو ، حتى لا يشاركوا في احتفالات النصر ويتضح دورهم في هزيمة العدوان ، لينسب النصر للوصوليين الذين لم يقدموا اي تضحية في هذا المجهود النضالي ، ثم بعد ذلك اعترضت الثورة على ترشح زملائنا أبطال مقاومة العدوان في انتخابات مجلس الأمة عام ١٩٥٧ ، كما اعترضوا على كل المتعاطفين معنا ، مما يؤكد السياسة الثابتة لقادة الثورة في رفض المشاركة السياسية لاي قوة أخرى مستقلة عن تنظيمات الثورة ، حتى تستمر السسلطة خالصة لهم دون أي منافسة محتملة .

رابعاً :

انتهجت الثورة منذ قامت سياسة التضييق على الوطنيين والديمقراطية والتقدميين وفتحت المعتقلات وزجت فيها بأخلص أبناء الشعب ، واستمرت المعتقلات مفتوحة لسنوات طويلة باستثناء فترات محدودة ، كما شكلت المحاكم العسكرية لتصدر الأحكام القاسية والطويلة بالأشغال الشاقة على المناضلين في سبيل حرية الوطن وحق الطبقات الشعبية في الحياة والحرية والعدالة ، وقضى هؤلاء المناضلون سنوات الحكم كاملة دون أن يعطى لهم حق الاعفاء من ربع المدة مثل المساجين الجنائيين العاديين ، بل حولوا الى المعتقل بعد أن قضوا في السجن عشر سنوات ليستمروا معتقلين عدة سنوات أخرى .

ولم يقف الأمر على فترات السجن والاعتقال الطويلة بما يصحب ذلك من مآسى اجتماعية عانتها أسرهم ، انما تجاوز ذلك الى حرمان المعتقلين والمسجونين السياسيين من حقوقهم التي كفلتها لوائح السجن والمعتقلات ، وتعدى الأمر ذلك الى فرض حالة من الارهاب والترويع للأسر واستخدام أبشع ألوان التعذيب والسخرة والانهاك والتجويع والقتل المباشر والبطى .

أذكر أنه كان في العشرينيات من القرن العشرين مشروع لمكافحة الحفاء خاصة في الريف من فقراء الفلاحين والعمال الزراعيين ، ومع نمو الوعي والتحضر اختفى الحفاء ، وأصبح أفقر الناس يلبسون حذاء أو شيشباً أو بلغة .

ولكن رجال الثورة وضباط التعذيب المغاوير رفضوا هذا التحضر ، وأصروا لا على رفض حقوق الانسان فحسب بل العودة الى الماضى البدائى المتخلف ، ففرضوا على صفوة المفكرين والمثقفين

والفنانين والمناضحين من أجل حياة أفضل لجماهير الشعب -
فرضوا عليهم أن يخلعوا أحذيتهم وأن يعيشوا حفاة الأقدام لعدة
سنوات ليتساق الحفاء مع الضرب والانهك والتجويع والقتل
والأشغال الشاقة في تكسير أحجار البازلت في ليان أبي زعل
دون جريمة . انه منطق القوة والقسوة بلا حدود ، والتعسف في
استخدام السلطة دون وازع من دين أو أخلاق أو وطنية .

كان حب السلطة ورفض أى احتمال للمنافسة عليها هو
الدافع الوحيد لهذه الأعمال الإجرامية . . كانوا ينصرفون بحماقة
وبضيق أفق ، وكأن الحياة والسلطة ستدوم لهم الى ما لا نهاية .

ماذا كانت نتيجة هذا التعسف ؟!

انتشر الرعب في قلوب كل أبناء الشعب ، أصبح المعتقلون
والمسجونون نماذج مجسمة لفقدان الحرية والمطاردة في الرزق
والعمل والعزل السياسى والملاحقة المستمرة من قبل المباحث
العامة . لهم ولكل من يتصل بهم ، حتى أصبح كل واحد منهم كالجمل
الأجرب يحرص الناس على الابتعاد عنه فلا يجالسونه ولا يقبلون
مصاهرته هربا وخوفا من الاتهامات والشكوك ومن الوقوع في نفس
المصير التعس : .

ومتى كانت هذه نتائج العمل السياسى المسنقل فسحقا
للسياسة وللعاملين بها . .

هكذا أصبح العمل السياسى الجاد مخيفا ومرعبا ، وجالبيا
لصاحبه مصيرا مفرعا قد يودى بحياته .

من هنا أحجم الناس عن المشاركة السياسية أو التفكير في قضايا الوطن والمجتمع ، فعمت السلبية وتراجع الناس الى الصمت ، حتى أصبحت الانتخابات بلا جمهور لا يحضرها أحد ، تركوها للمزورين ينفردون بفوائم الناخبين وبطاقات الانتخابات يسودونها على هواهم ، حتى الموتى يبعثونهم من قبورهم ليضعوا أصواتهم !! عمليات تزيف احرفتها الدولة وحكمت بلا شرعية .

خلا الميدان من كل الكفاءات المناضلة والايجابية وأصبح المجال فسيحا للطبالين والزمارين ولكل الوصوليين والانتهازيين فنقدموا ليملاؤوا كراسى التنظيمات الحكومية والبنقابات والجمعيات ، ومع كثرتهم كانوا كفتاء السيل ، اذ أصبحت هذه الهياكل كيانات هشة لا تغنى شيئا فلا تجلب نفعا ولا تصد ضررا ، وأصبحت سوقا لتبادل المصالح وتحقيق المآرب الشخصية فعمت البلوى وانتشر الفساد ، وفرخ هذا المناخ ظاهرة التطرف والارهاب ليحدث هذا كله نحلا في نسيج المجتمع وفي قيمه الأصيلة ، ليحل محلها في هذا الزمن الرديء قيم الفهلوة والمادة ، وتتوارى قيم العمل والعلم والأمانة والاتقان .

روعوا الأهالي وشردوهم سنوات طويلة ، واعتقلوا وسجنوا وعذبوا المناضلين .

فماذا كانت النتيجة ؟!

قلوا روح النضال عند السعب وأجهضوا الجرأة والغيرة الوطنية عند الشباب ، وأماتوا روح الاقدام والنخوة والتضحية عند أجيال عديدة ، حتى روح التعاطف الانساني والاسراع لانقاذ الملهوف أو المصاب في الطريق كادت أن تنمحى من قاموس التعامل في الشارع ...

لقد قام الحكام المتسلطون بعملية اخضاء لروح الكفاح الشعبى . . تعيث اسرائيل كل يوم فى العالم العربى فسادا . . تضرب هنا وهناك . . وتحتل عاصمة احدى الدول العربيه ، وتتجول طائراتها فى نزهات يومية لتضرب كل مكان فى الجنوب اللبناى وتقتل أكثر من مائة طفل وشيخ وامرأة فى قانا وتذيق الشعب الفلسطينى مر العذاب والعقم كل يوم تقتل أبناءه وتحاصر شعبه وتبنى المستوطنات فى كل مكان وتهاجم المسجد الأقصى ، وتعمل على تقويض أركانه ببناء الأنفاق تحته وتضرب بالاتفاقات التى وقعت عليها عرض الحائط .

كل هذا لا يحرك فى الشعب المصرى أو فى تنظيماته الحكومية أو نقاباته الصفراء عرقا ينبض بالغيرة والاحتجاج ، وعلى طول أرض مصر لا تتحرك مظاهرة لشجب هذه التصرفات وادانتها وان حدث فتحت السجون والمعتقلات لقاداتها ، فالحكومة تغنى عن الشعب تحجج وتشجب بالبيانات الجوفاء . .

وأمرىكا بسياستها الاستعمارية والصهيونية تعامل العالم العربى معاملة خاصة . . تكيل بمكيالين تدلل اسرائيل وتشجعها على البلطجة والارهاب وضسم أراضى الغير لها بالقوة والجبروت ، وتملأها بكل وسائل القوة لتنفيذ هذه السياسة ، بينما تعمل على اضعاف العرب وتفتيت قواهم ، وتخلق الأكاذيب لحصارهم وتجويع شعوبهم ، وتتخذ من مجلس الأمن مطية لها لفرض الحصار على شعوب العراق وليبيا والسودان ومحاولة احتواء الشعب الايرانى .

أمام كل هذه الأحوال التى تستفز الموتى نرى الاسترخاء واللامبالاة فى الشارع المصرى بسبب التاريخ الطويل من التعذيب

والملاحقات المستمرة لأجهزة الأمن المصرية لآى نبذة احتجاج تلوح
بوادرها فى الجامعات أو النقابات أو التكتلات العمالية .

فى عهد الملكية كان من يبيت ليلته فى حبس قسم الشرطة
أو المركز يخرج بطلا ترفعه الجماهير على أعناقها تهتز بكفاحه
وتضحياته فتثير النخوة وتحرض الشباب على النضال ، أما فى عهد
الثورة فيغيب المناضل أكثر من عشر سنوات فى السجون والمعتقلات
دفاعا عن حقوق الشعب ثم حين يفرج عنه لا يجد سوى الانكار
والتجهم بل التهمك على نضاله .

ينتشر الفساد فى كل مكان ، ويسرق المال العام ، وتتضخم
نروات المعدمين ممن يعتلون المناصب الخطيرة ، ويحدث هذا خلا
كبيرا على دخول الطبقات الشعبية يدفعها الى مزيد من التذنى والافقار
كل يوم ، وأمام هذه الحالة السيئة لا نجد احتجاجا جماعيا ،
ولا ادانة فردية مكتوبة ، مع أن الناس يعرفون تفاصيل الانحرافات
وتتناقلها ألسنتهم فى مجالسهم الخاصة .. ولكنهم أمام العمل
الجماعى والموقف الجاد كأن على رؤوسهم الطير ، يجدون فى الصمت
أبلغ رد ، أكلت ألسنتهم وجف المداد فى أيديهم ، وفقدوا لجمة
النعاون والتضامن فى دفع المفسدة وجلب المصلحة .

سدت كل الطرق - سدتها الدولة - أمام التعبير الصحى
والتحرك السلمى الجماعى لتغيير الواقع السىء وامتصاص الغضب
وتقويم المفسد واصلاح الفساد ، وبذلك انفتح الطريق أمام دجالين
من نوع آخر يفسرون الدين لحسابهم ويتاجرون به ، ينشرون
الوعى الزائف والمغلوط للدين ضارين بصحيح الاسلام عرض
الحائط ، يستغلون مناخ السرية ، وحرمان القوى الديمقراطية
والتقدمية من كشف هذا الزيف ، فعلت نبرة التطرف ، واستقطب

أعدادا كبيرة من الشباب الذي يعيش الفراغ والبطالة وانعدام
العقيدة الوطنية الصحيحة ، وخلق الميدان من التنظيمات الجادة
والواعية التي تنهض بالشباب وتملأ وجدانه بالايمان بالوطن وبقيم
الشعب الأصيلة وتعمل على التوعية بصحيح الدين ونفند أباطيل
الأعداء .

من هنا انتشر وباء الارهاب يخرّب اقتصاد البلد ويهز
استقرارها ويهدد مستقبلها ويدمر عقل الشباب ووجدانه .

ولا منقذ الا باحترام الشعب والثقة به واعادة حقوقه اليه
والاقرار بمبادئ حقوق الانسان والعمل بها في المشاركة
السياسية بالرأى وحرية العمل السياسي وتنظيم الأحزاب
والجمعيات وحرية التعبير وحقوق الطبقات الشعبية في العدل
الاجتماعي ومحاربة الاستغلال والقهر وتقييد الحريات مع الغاء حاله
الطوارئ ومحاربة الفساد .

بهذا تقتلع جذور الارهاب ويعود الى الشعب وعيه وايمانه
بالقيم النبيلة التي تصبح جزءا من سلوكه اليومي . . . فينبذ
الموقف السلبي وتعود اليه ايجابيته وتقديسه للنضال والتضحية .
بهذا يشق طريقه الى مستقبل أكثر تحضرا وقوة وازدهارا .

انصاف و عدل

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
مقدمة	٧
الفصل الاول : من الكتاب الى الكلية	١٥
قريتي	١٥
أسرتي	١٩
طفولة متمرده	٢٢
الكتاب وحفظ القرآن - في المدرسة الالزامية	٢٣
طفولة بريئة والعباب ساذجة	٢٥
دروس خصوصية	٢٧
طالب بالمعهد الدينى بدمياط	٢٩
الطالب في القاهرة	٣٤

الفصل الثانى : بواكير الوعي من العدل الاجتماعى الى
 الاشتراكية العلمية : ٣٧
 القراءة وبؤس الفلاح قادتنا للفكر الاشتراكى ٣٧
 الوظيفة مع طلب العلم ٤٠
 الكفاح المسلح - حريق القاهرة ٤٣

الموضوع	الصفحة
في كلية دار العلوم - قامت الثورة فأيدناها . . .	٤٥
معاداة الديمقراطية	٤٦
الفصل الثالث : من السجن الى الاعتقال والفصل	
السياسي :	٤٩
في السجن لأول مرة	٤٩
الاقراج من النيابة - هبة مارس ١٩٥٤	٥٤
في المعتقل مرة أخرى	٥٧
في أوردى ليمان أبى زعبل	٥٨
اضراب عن الطعام يقابل بالجلد والتعذيب	٦٢
مواقف استقلالية مشجعة للثورة - الاقراج عن المعتقلين	٦٦
الفصل السياسي من الوظيفة	٦٩
الفصل الرابع : معارك متواصلة ضد الاستعمار :	
تأميم القناة والعدوان الثلاثى واندحاره	٧١
نظرية الفراغ ومشروع أيزنهاور - أكبر عريضة ضد	
المشروع	٧٤
فصلونى من الكلية كطالب نظامى	٧٦
حاولوا حرمانى من الامتحان للعام الثالث	٧٧
معركة انتخابات مجلس الأمة	٨٢
التضامن مع الثورة الجزائرية	٨٤
الفصل الخامس : لجنة الوحدة الوطنية	
التمهيد لجنة ١٩٥٩ - وحدة الشيوعيين وانقساماتهم	٨٥
تصاعد المد الوطنى والقومى	٩٢

الموضوع	الصفحة
اعتقالات راس السنة - فى المدرسة اليونانية ببورسعيد	١٠٢
معتقل القلعة	١١٦
الفصل السادس : بدايه التعذيب فى الفيوم	١٢٢
الترحيلة من القلعة للفيوم	١٢٣
فى معتقل العزب بالفيوم	١٢٦
الفصل السابع : التعذيب والاستئصال السافى بى زعبل : الترحيل من الفيوم والتشريفه على ابواب اوردى يمان	١٢٢
ابى زعبل	١٢٢
الهدف من التعذيب وحططه	١٤٥
التعريف بجهاز التعذيب ومن لعبوا دور الجلادين	١٤٩
صور من التعذيب فى يوم كامل :	١٦٠
التفتيش داخل العنابر وكيف تطور	١٦٠
طابور التمام والهتاف	١٦٢
طابور ما يسمى بالرياضة - العمل فى الجبل أشغال شاقة	١٦٤
طابور الاستحمام - طابور اليمك	١٦٨
استشهاد دكتور فريد حداد	١٨٨
استشهاد شهدى عطية الشافعى	١٩٠
الأوردى بعد مقتل شهدى	٢٠٣
الصمود	٢٠٧
الفصل الثامن : التعذيب والنفى بالواحات :	٢١٥
الترحيل الى الواحات	٢١٥
التعريف بسجن جناح	٢٢١
سجن المحاريق	٢٢٤

الموضوع	الصفحة
تطور المعاملة داخل السجن قبل وصولنا	١١٨
استشهاد شهدى وقف العدديب على جميع السجن	١١٦
قلة العداء واستمرار الامراض	٢٤١
المزرعة	٢٤٦
استمرار الاعتقل يتعارض مع الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية	٢٥٢
الضغط المعنوى للاستنكار جعلوه سبيلا للافراج	٢٦٠
الاضراب عن الطعام	٢٦٢
المقاومة بحركة ثقافية وفنية	٢٦٧
المحاضرات	٢٦٨
المسرح	٢٧٢
المكتبة - التأليف والترجمة والنشر - الفنون التشكيلية	٢٧٤
الألعاب الرياضية	٢٧٦
الحياة داخل الزنزانة	٢٧٦
بناء المسجد	٢٧٧
صراع سياسى مفتوح	٢٧٧
الرحلة الى اسبوط	٢٨٣
الفصل التاسع : التمهيد للافراج :	٢٨٧
الترحيل الى الفيوم	٢٨٧
السجن الحربى	٢٩٢
خرجنا الى الحرية ، والى تغيير فى حياة الناس	٢٩٤
الفصل العاشر : الخداع وحل الحزب واستمرار المطاردة :	٣٠١
تم حل الحزب واستمرت المعاناة والمطاردة	٣٠١
استعادة ثقة القرية - معاناة للعودة للعمل	٣١١

الموضوع	الصفحة
نشاط متميز في العمل	٢١٤
لجنة الدعوة والفكر	٢١٦
النقل للمينا	٢١٩
النقل للقاهرة	٢٢٦
الاعارة الى ليبيا	٢٢٨
مقالات بصحف ليبيا	٢٣١
في مقتزق الطرق	٢٣٢
دراسات عن الحركة الاسلامية	٢٣٣
حصاد السنين	٢٣٧

صدر شى هده السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ •
د • عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - على ماهر •
رسوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة •
د • محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطيء المصرية فى العصور الوسطى •
عليه عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ •
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي •
د • عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية •
د • على بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل •
د • محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة العزبية •
محمود فوزى ، ١٩٨٧

- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية .
شكرى القاضى ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير .
د . نبيل راغب ، ١٩٨٨
- ١٣ - اكلوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية .
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة
الطولونية .
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى .
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) .
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى .
د . محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية .
د . على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين .
د . أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى .
د . محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ .
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر .
جمال بدوي ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج ٢ ، امام التصوف
في مصر : الشعراي .
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) .
د . نجوى كامل . ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامي والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د . أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة ،
د . سعيد اسماعيل علي ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ .
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عصر الاخشيديين ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون في مصر في عصر محمد علي ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٩

- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ .
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠
- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر
العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .
- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميعى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الميِّق والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

- ٤٢ - تكوين مصر عبد العصور ،
محمد شفيق عربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف واثياة الاقتصادية في مصر في العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن حبشى ، ١٩٩١
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د. لطيفة محمد سالد ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتيا لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن
الثامن عشر ،
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة .
د . محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د . محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن اقليم المنوفية ،
د . حلمي أحمد شلبي : ١٩٩٢
- ٥٧ - مصر الاسلامية واهل الذمة ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التاميم (١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،
لمى المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور .
ومسيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣ .

- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة وثائقية ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣
- ٦٧ - مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣) أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشي ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - اهل اللمة في الاسلام ،
تأليف : أ . س . ترتون ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل الذمة في مصر ، في العصر الفاطمي الأول ،
د. سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د. سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة ونعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قنـاة السويس والتنافس الاستعمار الأوربي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د. رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د. سبدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د . أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ٢ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريغور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التلوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الاوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د . نبيه بيومي عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ، ج ٢ ،

د. سهر اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)

أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولوم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،

د. محمد سيد محمد

٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،

د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،

أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ،

أ. د. محمد إبراهيم بكر ، أ. د. إبراهيم نصحي ،

أ. د. فاروق القاضي ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم

رمضان

١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،

اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد

كفافي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير / جمال منصور

١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،

د. تيسير أبو عرجة

- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،
د . علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ،
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ - ١٩٨٧)
د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ، ج ٢ ،
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيري ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النفاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النفاس
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ١ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ٢ ،
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقي ،
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د . اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر .
أحمد رشدي صالح

- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك .
د . البيومي اسماعيل
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس
- ١٢١ - معركة الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د . محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج ٦
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوي
د . سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن
د . محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج ٧
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج ٨
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
- ١٢٨ - معارك صحفية
جمال بدوي

- ١٢٩ - الدين العام (وأثره في تطور الدين المصري)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣)
د . يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نهابات الفنانين في مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧)
سمير فريد
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨)
تأليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرؤوف أحمد عمر
- ١٣٢ - دار المندوب السامي في مصر ج ١ ،
د . ماجدة محمد حمود
- ١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر ج ٢ (١٩١٤ - ١٩٢٤)
د . ماجدة محمد حمود
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى
مخطوطة « ضياء ثامة » للدار ندلى
بقلم / عزت حسن أفندى الدار ندلى
ترجمة / جمال سعيد عبد الغنى
- ١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محاسن محمد الوقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق
تقديم أ . د . عبد العظيم رمضان
- ١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د . محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٣٨ - الإخوان المسلمون
وجذور التطرف الدينى والارهاب في مصر - السيد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الفناء المصري في القرن العشرين
محمد قاييسل

- ١٤٠ - سياسة مصر في البحر الأحمر .
في النصف الأول من القرن التاسع عشر - طارق
عبد العاطي غنيم .
- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك
لطفي أحمد نصار .
- ١٤٢ - مذكراتي في نصف قرن ج ٤
أحمد شفيق باشا .
- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة في القرنين الثاني والأول ق م .
د . منيرة محمد الهمشري .
- ١٤٤ - كشوف مصر الأفريقية
في عهد الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) -
د . عبد العليم خلاف .
- ١٤٥ - النظام الإداري والاقتصادي في مصر
في عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) -
د . منيرة محمد الهمشري .
- ١٤٦ - المرأة في العصر المملوكي
د . أحمد عبد الرازق .
- ١٤٧ - حسن البنا (متى .. كيف .. ولماذا ؟)
د . رفعت السعيد .
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د . سمير فوزي
ترجمة / نسيم مجلى .
- ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى .
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية أصولها وتطورها
د . سمير يحيى الجمال .

- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والتورة الشاملة
السيد يوسف
- ١٥٢ - انطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محاسن محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقلّمات السياسية)
د . علىة عبد السميع الجنزورى
- ١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الاسلامية فى
العصور الوسطى
د . علىة عبد السميع الجنزورى
- ١٥٥ - مصر وحمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
١٨٠٥ - ١٨٨٣
د . عبد الحميد البطريق
- ١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث فى العصر
الاسلامى
د . سمير يحيى الجمال
- ١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع فى العصر
الاسلامى والحديث
د . سمير يحيى الجمال
- ١٥٨ - نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /
١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د . محمد عيد الفنى الأشقر
- ١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الأول
د . محمد فريد حشيش
- ١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) الجزء الثانى
د . محمد فريد حشيش

١٦١ - السيف والنار في السودان تأليف سلاطين باشا

١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان

(١٩٣٦ - ١٩٥٣)

د . تمام همام تمام

١٦٣ - مصر والحملة الفرنسية

المستشار/ محمد سعيد العشماوى

١٦٤ - الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ

(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة

بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة

القاهرة « ٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ ») إعداد / د . عبد العظيم

رمضان .

١٦٥ - التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر

سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ - مذكرات معتقل سياسى

صفحة من تاريخ مصر

المسييد يوسف

هذا الكتاب : «مذكرات معتقل سياسى» هو صفحة
من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى، من خلال تاريخ
حياة معاصر وشاهد عيان، ومشقف يسارى، انحاز للفكر
الماركسى، والتحم بالحركة الشيوعية، وأيد ثورة ٢٣ يوليو،
ولكنها اعتقلته، كما اعتقلت غيره من الشيوعيين.

وقد اعتمد الأستاذ السيد يوسف فى كتابة مذكراته
على تجربته الشخصية، وعدد من الدراسات والمذكرات
الأخرى للمعتقلين الشيوعيين الذين زج بهم عبدالناصر
فى معتقلاته.

ومن ثم فالكتاب يعد مصدراً تاريخياً من الدرجة
الأولى يلقي الضوء على جوانب خفية من تاريخ مصر
السياسى والاجتماعى قبل ثورة يوليو وفى عهدها.